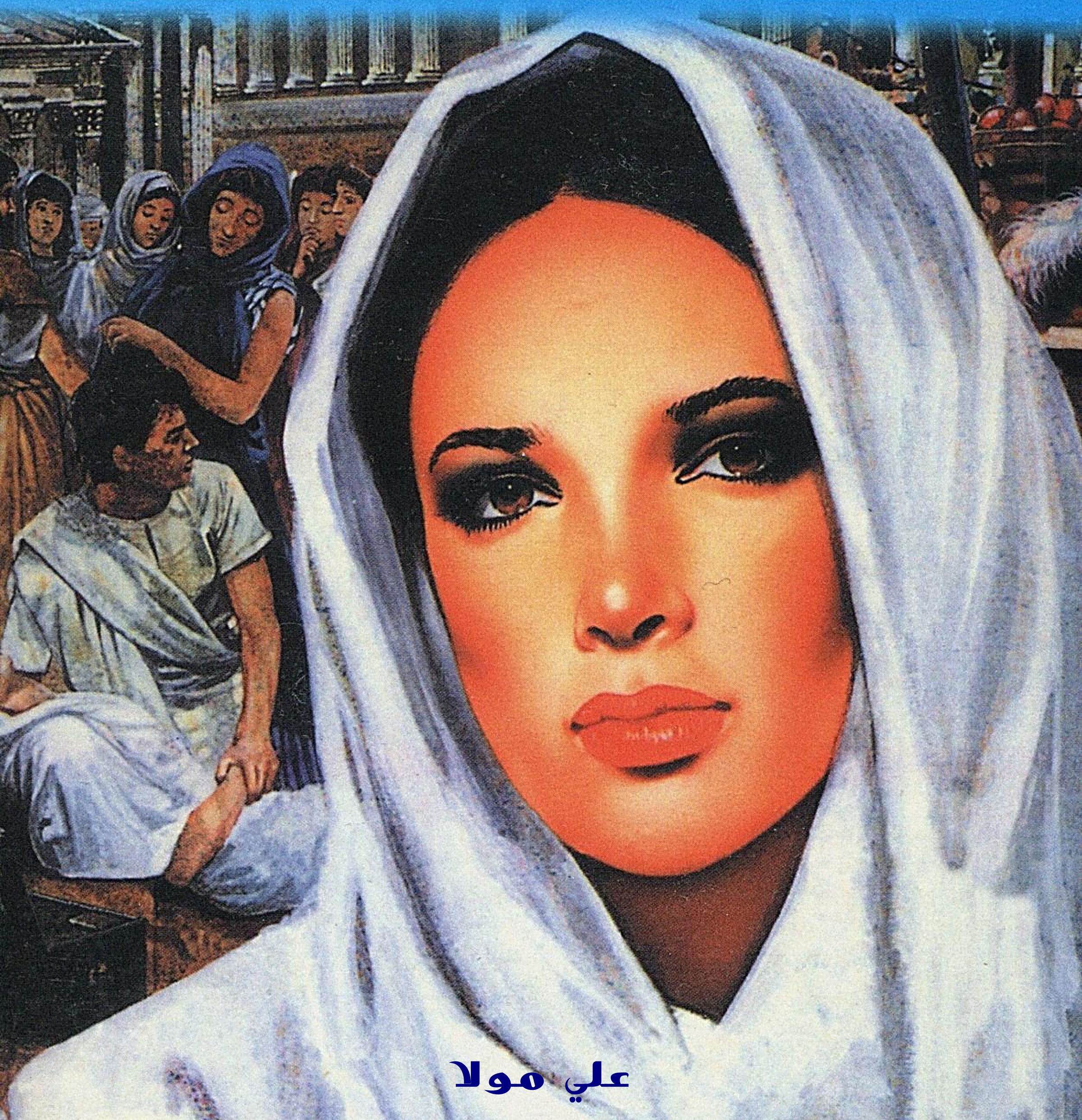
روائع الأدب العالمي 40

قلوب ضالة

تأليف الكاتب الهندي

رابندرانات طاغور



قلوب ضالة

قلوب ضالة

تأليف
رابندرانات طاغور

ترجمة
حلمي مراد

الناشر
دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت
تلفون : 674 803 1 961 00 فاكس : 223 790 1 961 00
E-mail : darbachir@terra.net.lb

طاغور

إذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسفة والمفكرين من الفقراء والمستضْعفين، إلا أن الهند شهدتْ مناسبتين، حاد فيهما القدر عن هذه العادة: وكانت أولى المناسبتين، يوم اختار القدر "**بوذا**" من قصر أحد الأمراء المالكين في الهند، ليكون مُبشّرا بالحكمة والفلسفة.. ثم كانت المرة الثانية، حين اختار "**رابندرانات تاغور**" حفيد الأمير "دوار **كاناث طاغور**" **ليكون من رُسُل الأدب والحكمة...**

وُلدَ "تاغور" في "كلكتا" في ٦ مايو سنة ١٨٦١م. وبعد أن درس في إحدى المدارس الخاصة بالهند، رحل إلى "**إنجلترا**" وهو في السابعةَ عشرةَ من عمره ليدرس القانون. ولكنه لم يستسغ هذا اللونَ من الدراسة، فعاد إلى بلاده، وتوفَّر على الكتابة في مجلات "**البنغال**" وصحفها، وما لبث اهتمامه أن اتجه إلى أحوال بلاده ومواطنيه، فراح يسعى لرفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية في "**الهند**"، وأنشأ في سنة ١٩٠١ مدرسة فذة في نوعها ورسالتها، تنكب فيها برامج التربية المألوفة، ليُعنَى بالنواحي الروحية والإنسانية والقومية.

وتوفر على الإنتاج الأدبي في تلك المرحلة، ففاز في سنة ١٩١٣ بجائزة "**نوبل**" للآداب. وقام بعد ذلك بعدة رحلات في "**أوروبا**"، كما زار "**اليابان**" و"**الولايات المتحدة**". وقد وضع "**تاغور**" مؤلفاته -من أشعار وتمثيليات وروايات- بوحي من جمال الكون، وإدراك وجود الله، وحب الأطفال، والبساطة. وتبدو هذه المعاني في أجْلَى صورها في كل ما كتب.

وعندما بلغ الثامنة والخمسين -وهي سنٌ تفتر فيها همم الكثيرين- وجد في مجال الفنون ناحية جديدة لنشاطه، فشغف بالرسم والتلوين، وأقبل على ممارستها.

وفي ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ مات "**طاغور**" عن ثمانين عاما.

الفصل الأول

– ما ارتاب أحدٌ لحظة في أن "رامش" سيجتاز امتحانه النهائيّ في القانون بنجاح.. فقد اعتادتْ ربة العلم، التي ترعى الجامعات، أن تُغدق عليه أوراق زهرتها الذهبية –زهرة "اللوتس"– وأن تمطره بالجوائز العلمية، وتغرقه في الشهادات من رأسه إلى قدميه!.. وكان من المرتقب أن يعود "رامش" من "كلكتا" إلى موطن أهله عقب الامتحان، ولكنه لم يُبد أي تعجل في حزم متاعه. وكتب له أبوه يأمره بالعودة فورا، فردَّ بأنه سيعود بمجرد أن تُعلَن نتائج الامتحان.

وكان "جوجندرا" بن "أنادا بابو" (١) زميلا لـ"رامش" في الدراسة، وجارا له في السكن. وكان "أناداباو" ينتمي إلى ملة "البراهمة"، وله ابنة تُدعَى "همناليني"، تقدمت أخيرا إلى امتحان السنة الأولى في الآداب. واعتاد "رامش" أن يزور الأسرة دوما، وأن يظهر في دارها في موعد تناول الشاي بانتظام. على أن الشاي لم يكن الإغراء الوحيد، إذ إن "رامش" كان يتردد على الدار في ساعات أخرى. كذلك اعتادت "همناليني" أن تتمشى على سطح الدار، لتجفف شعرها بعد الاستحمام، وهي تقرأ في أثناء سيرها.. واعتاد "رامش" أن يجلس على سطح داره –عند رأس السلم– ممسكا بكتاب، ليخلو إلى الاستذكار في هذا المكان المنعزل الذي يصلح للاستغراق في القراءة في هدوء. ومع ذلك، كانت ثمةَ أمور بسيطة تصرفه عن القراءة هناك، كما يمكن أن نستبين إذا فكرنا في الأمر مليّا!.. بيد أنه لم يكن قد دار أي حديث عن الزواج بين الطرفين، إذ كان لدى "أنادا بابو" من الأسباب ما يقعد به عن إثارة الموضوع. فقد كان له صديق شاب يدرس القانون في "إنجلترا"، وكان السيد الكهْلُ يضع عينه على هذا الشاب كمرشح للزواج من ابنته!

وفي عصر ذات يوم، دار على مائدة الشاي نقاش نقاش مُحتدم، في حضور شاب آخر من أصدقاء الأسرة يُدعَى "أكشاي" لم يكن موفَّقا في اجتياز امتحاناته، إلا أنه لم يكن يقل عن أي شاب مثقف تعطشا إلى الشاي وغيره من المكيفات غير الضارة؟.. ومن ثم كان يُكثر من الظهور على مائدة الشاي في دار "همناليني". وقد قال في ذلك اليوم: إن ذكاء الذكور كالسيف، وإن ثقله كفيل بأن يجعله سلاحا بتارا، ولو لم يكن حده مشحوذا، في حين أن ذكاء المرأة كالمبْراة، لا يمكن –مهما تشحذها– أن تؤدي مهمة خطيرة!

وأوشكت "همناليني" أن تتقبّل في صمت هذا الزعم البعيد عن الصواب، لولا أن أخاها "جوجندرا" أمعن في الحط من قدر الذكاء الأنثوي، مما اجتذب "رامش" إلى معمعة الجدل، فانتزع نفسه من صمته، وأخذ يتغنّى بمديح المرأة!.. وكان قد احتسى كوبين من الشاي، فوق ما اعتاد، في غمرة حماسه للأنوثة، حين أحضر الخادم رسالة موجهَة إليه بخط أبيه، فما هو أن تأملها، حتى ارتضى الهزيمة، بينما كان النقاش في أوَجه، وتأهّب مسرعا للانصراف. وانبعثت عاصفة من الاحتجاج، فاضطُر إلى أن يوضح لهم أن أباه قد وصل لتوّه

---

(١) "بابو" لقب إحترام يقابل "السيد".

قادما من البلدة، فقالت "همناليني" لـ"جوجندرا": "سل والد "رامش بابو" أن يأتي لنقدم له قدحا من الشاي".. فبادر "رامش" قائلا" "أرجو ألا تتعبوا أنفسكم، إذ يحسن بي أن ألحق به في الحال".

واغتبط "أكشاي" في نفسه، وقال: "قد يأبى السيد الشيخ أن يتناول شيئا هنا!".. وكان يشير بذلك إلى أن "أنادابابو" كان براهميا، في حين أن والد "رامش" كان من غلاة الهندوكيين!

*****

-استقبل "براجا موهان بابو" -والد "رامش"- ابنه بقوله: "يجب أن تعود معي إلى البلدة بقطار الصباح غدا؟".. فَحَكَّ "رامش" رأسه، وتساءل: "هل من سبب للعجلة؟".. فأجابه "براجا موهان": "ليس هناك سبب معين بالذات".. وتطلَّعَ "رامش" إلى أبيه بنظرة متسائلة، وهو يعجب من سر تعجُّله في هذه الظروف، بيد أن "براجا موهان" لم ير ثمةَ ضرورة لأن يُشبعَ فضول ابنه!

وإذ خرج الأب في المساء لزيارة أصدقاء له في "كلكتا" جلس "رامش" يكتب له خطابا. وبدأ بالاستهلال التقليدي الذي يليق بمقام الأب: "إلى قدمكم اللوتسية (١) الموقرة".. بَيْدَ أن قلمه أبى أن يمضي بعد هذه العبارة، رغم أن الشاب راح يحدث نفسه بأنه مرتبط بـ"همناليني" بعهد صامت، فمن الخطأ أن يُخفيَ هذا العهد المكتوم عن أبيه بعد اليوم. وأخيرا، كتب عدة خطابات بأساليب مختلفة، ولكنه انتهى إلى تمزيقها جميعا.

وفي تلك الليلة، أوى "براجا موهان" إلى مخدعه بعد العشاء مباشرة، فصعد "رامش" إلى سطح الدار، وراح يذرعه قلقا -كطيْف من أطياف الليل- وبصره لا يتحول عن بيت جيرانه. ورأى "أكشاي" يخرج في الساعة التاسعة، كعادته، إذ كان يتلكَّأ في الانصراف!.. ولم تحن الساعة التاسعة والنصف، حتى أغلق الباب الخارجي للدار. وفي الساعة العاشرة، انطفأ ضوء غرفة الجلوس في مسكن "أنادا بابو". وما حانت الساعة العاشرة والنصف، حتى غرق البيت كله في النعاس!

واضْطُرَّ "رامش" إلى أن يغادر "كلكتا" في ساعة مبكرة من الصباح التالي، إذ حرص أبوه على ألا يدع له فرصة للتحايل على تفويت القطار!

---

(١) لزهرة "اللوتس" مكانة قديسة لدى "الهندوكيين"

الفصل الثاني

– عندما بَلَغَ "**رامش**" البلدة، تبين أن ثمة عروسا اختيرت له، وأن تاريخا حُدد للزواج!.. إذ كان "**براجا موهان**" قد تعرّض في شبابه لأيام سوء وضيق، وكان مدينا بما أحرز –بعد ذلك– من ثراء، إلى محام يدعى "**إيشان**"، من زملاء صباه. وقد قضى "**إيشان**" نحبه في سن مبكرة، وظهر بعد وفاته أنه لم يخلف سوى ديون، فالفت أرملته نفسَها وابنتها الوحيدة، في فقر مدقع. وكانت هذه الابنة –التي بلغت في هذه الأثناء سن الزواج– هي العروس التي اختارها "**براجا موهان**" لـ"**إيشان**". ولقد اعترض بعض المشفقين على الشاب، قائلين: إن الفتاة –كما علموا– لم تكن جميلة، ولكن "**براجا موهان**" لم يكن يجيب بغير قوله: "لست أرى رأيكم، ففي وسعكم أن تحكموا على زهرة أو فراشة من مظهرها، ولكن هذا لا ينطبق على الإنسان.. وخليق بـ"**إيشان**" أن يعتبر نفسه محظوظا، إذا أثبتت الفتاة أنها زوجة صالحة.. كما كانت أمها!".

وغاص قلب "**إيشان**" بين جَنْبَيْه، حين سمع الأقاويل عن زواجه المقبل، فراح فكره يهيم على غير هدى، محاولا أن يبتكر وسيلة للتهرب، ولكنه لم يهتد إلى وسيلة ما. وأخيرا، استجمع شجاعته ليقول لأبيه: "ليس بوسعي –في الواقع– أن أتزوج من هذه الفتاة يا أبي، فأنا مرتبط بوعد مع فتاة أخرى!".

"**براجا موهان**": "ما هذا القول؟ هل بينكما خطْبة رسمية؟".

"**رامش**": "لا.. ليست خطبة بالمعنى الصحيح.. ولكن..".

"**براجا موهان**": "هل فاتحت أهل الفتاة؟.. وهل اتفقتم؟".

"**رامش**": الواقع أنني لم أتحدث في الموضوع، وإنما..".

"**براجا موهان**": "إذن، فلم تتكلم؟!.. ليهدأ بالك، مادمتَ لم تقل شيئا حتى الآن".

وألْقَى "**رامش**" قذيفته الأخيرة، بعد صَمْت قصير، إذ قال: "لسوف أسيء إلى الفتاة التي أعنيها، إذا أنا تزوجت من سواها"..

فأجاب "**براجا موهان**": "ولكن ذنبك يكون أكبر، إذا أنت رفضت الزواج من العروس التي اخترتها لك!".

*****

– ولم يشأ "**رامش**" أن يمضي في الجدل، فقد أيقن بأنه لم تعد أمامه سوى فرصة واحدة.. تلك هي أن يقع حادث ما يَحُولُ دون هذا الزواج. وكان العام الذي يعقب تاريخ القران "منحوسا"، لا تُعقَد فيه زيجات –وفقا لتنبّؤات الفلكيين– فعلل النفسَ بأن يقع ما يمنع الزواج في اليوم المحدد له، فيتحتّم تأجيله عاما على الأقل!

وكانت هذه العروس تقيم في بلد ناء، لا سبيل إليه إلا عن طريق النهر. في رحلة تستغرق ثلاثة أيام أو أربعة، إذا سلك المرء أقصر السبل خلال المسالك المائية "الترع" التي تربط بين القنوات الرئيسية. فبعد أن حسب **"براجا موهان"** حساب أي طارئ قد يعترض جماعته في رحلتها، اختار يوما للبدء بها، يسبق موعد القران بأسبوع كامل.

وظَلّت الريح مواتية طوال الطريق، فقطعوا المسافة إلى **"سيمولغاتا"** في أقل من ثلاثة أيام. ومن ثم كانت أمامهم أيام أربعة قبل موعد الزواج. والواقع أن السيد الشيخ كان يَسْعَى إلى غاية أخرى من وراء الوصول المبكر. فقد كانت أم العروس تعيش في شَظَف، وطالما رغب في أن تبرح موطنها وتنتقل إلى قريته، حيث يستطيع أن يكفل لها عيشا رغيدا، فيسد بذلك ما كان لصديق صباه من ديْن في عنقه. إلا أن العرف كان يمنعه من أن يعرض على السيدة مثل هذا الاقتراح، إذ لم تكن بينهما أية رابطة من روابط النسب، أما الآن، وإزاء الزواج المرْتَقَب، فقد سعى ليعرض عليها الأمر، آملا في قبولها. ولما لم يكن قد بقي من أسرتها سوى ابنتها الوحيدة هذه، فقد وافقت أم العروس على ما عرض عليها من أن تَشْغَل مكان الأم لزوج ابنتها الذي حُرِمَ أمه في صغره، بل لقد تشبثت بالفرصة قائلة: "لتَقُلْ الشائعات ما تقول، فإن مكاني الطبيعي بجوار ابنتي وزوجها!".

وقضى **"براجا موهان"** الأيام السابقة على الزواج في تدبير الإجراءات لنقل أثاث السيدة إلى مقرها الجديد. وكان قد اصطحب معه بعض قريباته ليساعدنها، رغبة منه في أن ترافق القوم عند عودتهم بالعروس.

*****

– وعُقدَ القرانُ في الموعد الذي حُدِّد له. غير أن **"رامش"** تعمَّد الا يردد الصيغة الشرعية كما ينبغي أن تُردَّد في مثل هذه المناسبة!

وعندما حانت اللحظة التي يحل فيها لكل من العروسين أن يرى الآخر للمرة الأولى، أغمض عينيه، ونكس رأسه، وظل صامتا عندما خلا إلى عروسه في غرفة العرس، بل إنه رقد طيلة الليل موليا ظهره للفتاة.. حتى إذا تنفس الصباح، بادر إلى مغادرة الحجرة!

وإذ انتهى الاحتفال، بادر القوم إلى الرحيل ، فَأُفْردَ للنساء قارب، وللشيوخ آخر، وللعروسين والشبان ثالث ، كما خُصِّص قارب للموسيقيين الذين عزفوا في حفلة الزفاف، والذين أخذوا يغالبون السَّأم بعزف بعض المقطوعات من آن لآخر خلال الرحلة!

وكان الحر لا يطاق في ذلك اليوم، والسماء صافية، ولكن ضبابا كابيا أخذ يرين على الأفق. وبدت الأشجار على الشاطئ ساكنة، لا تكاد تهتز ورقة منها. وسَبَحَ المجدفون في عرقهم.. وقبل أن تغيب الشمس، قالوا لـ**"براجا موهان"**: لابد لنا من أن نربط القوارب الآن إلى الشاطئ يا سيدي، فليس ثمةَ مكان نرسو فيه لعدة أميال بعد هذه البقعة!"..

ولكن **"براجا موهان"** كان توّاقا إلى أن يقطع الرحلة في أقصر مدة ممكنة، فقال: "لا داعي

لأن نقف هنا، فلسوف يظل القمر مشرقا طيلَةَ النصف الأول من هذا المساء.. فلنذهب إلى "**بالوهاتا**" ونرسو هناك.. وسوف أُجْزِلُ لكم العطاء!" .. ومن ثَمَّ واصل الرجال التجديف.

وكانت ثمةَ منطقة رملية إلى أحد جانبيْ النهر، يتصاعد منها هواء مشبع بالحرارة التي اكتنزتها الرمال طيلة النهار.. وإلى الجانب الآخر، فضاء غير مأهول. وأشرق القمر خلال الضباب الداكن، وقد احتقن لونه حتى بدا كعيني رجل ثَمل!.. ولم يكن في صفحة السّماء أثر للسحب، حين بدَّدَ السكونَ الشامل فجأة -ودون ما إنذار- هزيمٌ كقصف الرعد.. والتفت المسافرون خلفهم، فإذا عمود من الأغصان المهشمة، والأعشاب والقش، والغبار، والرمال، ينتصب فجأة، كما لو كانت تثيره مكنسة هائلة خفية.. ثم يندفع نحوهم في اجتياح. وتعالت صرخات جزعة: "اهدءوا!.. اسكنوا! اثبتوا في أماكنكم! اثبتوا! الرحمة! الغوث!".

ولن يُقدَّر لأحد أن يعرف ما حدث بعد ذلك... فقد انقضَّ على القوارب إعصار مدمر رفعها عن الماء، وقلبها رأسا على عقب.. وإن هي إلا لحظة، حتى كانت المراكب قد اختفت من الوجود!

الفصل الثالث

- انْقَشَع الضباب المعتم، واسْبغَ ضوء القمر على البطاح الرملية، المترامية، غلالة ناصعة البياض. ولم يظهر على صفحة النهر أثر لأي قارب، بل ولا لأية مَوْجة!.. وساد النهرَ والشاطئَ هدوءٌ كتلك السكينة الشاملة التي يخلعها الموت على شخص أضناه العذاب!

وعندما استعاد "رامش" رشدَه. ألْفَى نفسه مُلْقى على حافة جزيرة رملية. وانقضى بعض الوقت قبل أن يتذكر ما حدث، وإذ ذاك عاودته رؤى النكبة كلها -وكأنه في حلم محموم- وقفز واقفا على قدميه. وكان أول ما ساوره، هو أن يستبين ما أصاب أباه وأصدقاءه. فراح يحملق فيما حوله، ولكنه لم ير أي أثر لإنسان حيٍّ، في أي مكان. وأخذ يسير على حافة الماء باحثا، دون جدوى. وبدت الجزيرة في بياض الجليد، وقد استلقتْ بين فرعين من نهر "بادما" العظيم -أحد روافد "الجانجز"- كما يستلقي الطفل بين ذراعي أمه. واجتاز "رامش" الجزيرة من أحد جانبيها إلى الجانب الآخر. وما إن شرع في البحث، حتى لمح شيئا يشبه الغلالة الحمراء، فأغذَّ الخطى إليه، وإذا فتاة شابة ترقد كالميتة على الرمال، وقد التفّت في ثوب عرس قرمزي!

وكان "رامش" على دراية بوسائل إسعاف الغرقى، فأخذ يبذل قُصارَى جهده -فترة- طويلة- ليرد تنفس الفتاة إلى طبيعته، رافعا ذراعيها إلى ما فوق رأسها، ثم خافضا إياهما إلى جانبيها، حتى تنفست أخيرا، وفتحت عينيها. وكان الإنهاك قد استبدَّ بـ"رامش" في هذه الأثناء، فظل بضعَ دقائق عاجزا عن التقاط أنفاسه، وبالتالي، عن سؤال الفتاة. كما أنها لم تكن قد استردت بعدُ وعيَها كاملا، على ما لاح له، إذ إنها لم تكد تفتح عينيها حتى عادت تغمضهما في إعياء. على أن "رامش" اطمَأنَّ إلى أن أنفاسها أخذت تتتابع في يسر. وظل برهة طويلة جالسا، يتأملها في ضوء القمر الشاحب. كان المنظر المحيط بهما أغرب منظر يشهده شابان عروسان في أول لقاء حقيقي لهما!.. فقد كانت البقعة مُقفرة، معزولة بين الأرض والسماء، وكأنها تقوم بين الحياة والموت!

وساءل "رامش" نفسه: "من ذا الذي قال إن "سوسيلا" -عروسه- لم تكن مليحة!"..

وكان ضوء القمر قد غمر المكان ببهاء زَاه، وبدت السماء كرقعة شاسعة لا حدود لها. إن كل روعة الطبيعة بَدَتْ لعيني "رامش" مجرد إطار خُلقَ ليحيط بالوجه الصغير.. وجه النائمة!.. ونسي كل شيء، وراح يقول لنفسه: "لشدَّ ما أنا مغتبط، لأنني لم أحاول أن أنظر إليها في غمرة الزفاف وضجيجه.. ما كان بوسعي إذ ذاك أن أراها كما أراها الآن.. ثم إنني إذ رددتُها إلى الحياة، أصبحتُ ذا حق عليها يفوق كل الحقوق التي يكسبني إياها ترديد الطقوس والصيغ المأثورة للزواج.. فإنني بترديد هذه الطقوس أجعلها زوجتي أمام الناس، في حين أنني الآن قد فزت بها كهبة عزيزة غالية من القدر الكريم!".

*****

– وما لَبِثَتْ الفتاة أن استردَّت رشدها، فاستوت جالسة، وشدتْ ثوبها المتهدل حول جسمها، وأرْخت قناعها على وجهها. وسألها "**رامش**": "أتعرفين ما الذي جرى لمن كانوا في القارب؟"، فهزت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة. وعاد "**رامش**" يقول: "هل لك في أن تبقيْ وحدك بضع دقائق ريثما أذهب للبحث عنهم؟".. ولم تجب الفتاة، ولكن جسمها المنْكَمش قال في بيان أبْلغ من الكلام: "لا تدعْني هنا وحْدي!".. وفهم "**رامش**" ضراعتها الصامتة، فوقف وأخذ يجيل النظر فيما حوله، ولكنه لم يلمح ما ينمّ عن أثر لحياة فوق الرمال المتلألئة، المترامية. وراح ينادي كلا من أصحابه باسمه، وبأعلى صوته، دون أن يتلقى جوابا، فلما تبين أن لا ثمرة لجهوده، جلس ثانية، وكانت الفتاة قد دفنتْ وجهها في راحتيها، تحاول أن تَكْبَح دموعها، غير أن صدرها راح يعلو ويهبط مُتهدِّجا.

وأوحت إليه غريزة خفية بأن كلمات العزاء –في حد ذاتها– لن تُجْدي في التسرية عن الفتاة، فاقترب منها، وأخذ يربّت رأسها وعنقها في لطف. ولم تَعُدْ تقوى على احتباس دموعها، فانفجر حزنها قويا، في سيل من الشهقات المتلاحقة. وتدفقت الدموع من عيني "**رامش**" إشفاقا عليها. وعندما تمالكا نفسيهما، كان القمر قد اختفى، فبدت لهما الصحراء المقْفرَة في الظلام كحُلْم رهيب، ولاحت الرمال البيضاء كطيف مستلق في الدياجير. وأخذ النهر يلمع هنا وهناك –تحت ضوء النجوم الواهن– كجسد حية رقطاء، فامسك "**رامش**" بيدي الفتاة –وكانتا رَخْصتين، أثلجهما الخوف– واحتواهما بين راحتيه، واجتذبها برفق إليه. ولم تقاوم، إذ سلبها الخوف كل شعور عدا الرغبة في أن تأنس إلى صحبة إنسان. وفي الظلام الدامس، وجدت الحمى الذي كانت تنشده، في صدر "**رامش**" المتهدج، الدافئ، ولم تكن الظروف ملائمة للاسْتحْياء أو الدلال، فاستكانت في اطمئنان إلى ذراعيه اللتين ضمتاها إليه.

وغابت نجمة الصباح، ودَبَّ الشحوب في سماء الشرق خلف النهر، ثم احمرَّ لونها. وكان "**رامش**" يرقد على الرمال في نوم عميق، بينما توسَّدَت العروس الشابة ذراعه، واستلْقَت إلى جواره غارقة في النعاس. وما لَبِثَتْ شمس الصباح أن ترامت على أعينهما في رفق، فنهضا من نومهما. وظلا برهة يحملقان فيما حولهما بدهشة، ثم تبينا فجأة أنهما وحيدان، طرحهما الموج على الجزيرة المنعزلة، بعيدا عن موطنهما.

الفصل الرابع

– لم يَمْض وقت طويل، حتى انتشرت الأشرعة البيضاء على صفحة النهر.. أشرعة قوارب صيد السمك. ونادى "رامش" أحد هذه القوارب، واستعان بمن كانوا فيه من صيادين على استئجار قارب للعودة به إلى قريته، كما اتصل قبل الرحيل بالبوليس، للبحث عن رفاقه الذين تخلى عنهم الحظ.

وعندما بلغ مرساة السفن في قريته، علم أن البوليس عثر على جُثث: أبيه، وحماته، وعدد من أقاربه، وأنه قُدِّر لبعض النوتية أن ينجوا. أما من عدا هؤلاء، فقد اعْتُبروا مفقودين. وكانت جدة "رامش" قد بقيت في بيت الأسرة، فاستقبلت حفيدَها وعروسه بالعويل، كما ساد النحيب دور كل أولئك الذين كانوا في موكب العرس، فلم تطلق المقذوفات النارية، ولا تعالَتْ الصيحات والهُتافات ترحيبا بالعروس عند وصولها.. ولا احتفل بها أحدٌ، بل إن القوم كرهوا –في الواقع– رؤيتها!

وكان "رامش" قد عقد العزم على أن يبرح وزوجته القرية بمجرد انتهاء مراسم دفن الموتى، ولكنه لم يستطع أن ينقل قدما، قبل أن يُسَوِّي شؤون أبيه. وسألته الثكالى من نساء الأسرة أن يسمح لهن بالحَجِّ، فاضطر إلى اتخاذ التدابير لذلك أيضا. ولم يكن –في سُوَيْعات راحته من هذه الأمور المحزنة– ليغفل مطالب الحب، فإن عروسه لم تكن تلك الطفلة التي صورتها له الأنباء والأقاويل. بل إن نساء القرية تجنيْن فزعمن أنها تجاوزت سن الزواج المألوفة. ولم يَجدْ حامل "الليسانس" الشاب عَوْناً في الكتب، يبصره بأساليب الهوى!.. على أنه أحس بشعور غريب يدفعه إلى الحسناء الصغيرة.. بل إن ذهنه الذي اعتاد أن يفكر على أسس من المنطق لم يَقْوَ على مقاومة فتنتها!.. وتمثلها في خياله زميلة المستقبل وشريكته. وتوالت أمام عينيه –في أحلامه– الرُّؤى التي تظهرها في مختلف نواحي الحياة. عروسا عذراء، وخليلة معبودة، وأمّا فاضلة طاهرة لأولاده!.. وكما يقيم الرسام للصورة المثالية –أو الشاعر للقصيدة الكاملة التي يبتدعها خياله– عرشا في فؤاده، ويروح يُضْفي عليها كل إعزاز، ويقف عليها كل ولاء، فإن "رامش" بوأ هذه الفتاة الهيفاء، الصغيرة القدِّ، عرش خياله، كبهجة لفؤاده، وبشير بالفرح والرخاء في داره!

الفصل الخامس

– قضى "رامش" ثلاثة أشهر تقريبا في تسوية شؤون أبيه، وفي تدبير كل الإجراءات للحجِّ الذي رغبت فيه عجائز الأسرة. وبدأ بعض الجيران – في تلك الأثناء– يقدمون تحياتهم للعروس الشابة. وأخذ الرِّباط العاطفي –الذي كان يشدها إلى "رامش"– يزداد توثقا على مر الأيام، فاعتاد الزوجان الشابان أن يبسطا الحصائر على سطح الدار، وأن ينفقا الأمسيات تحت السماء. وأصبح "رامش" يَسْتَحِلُّ لنفسه بعض المداعبات، فيفاجئها من خلف ظهرها، ويضع يديه على عينيها، ويجذب رأسها إلى صدره.. فإذا غلبها النعاس في أوائل الليل قبل العشاء، تعمَّدَ أن يوقظها بمفاجأة مزعجة، معرضا نفسه للَّوم والعتاب!.. وفي إحدي الأمسيات، أمسك بشعرها المعقوص، فنثره في مداعبة، وقال: "لست أحب يا "سوسيلا" هذا الشكل الذي عقصت عليه شعرك اليوم!"، فاعتدلت الفتاة في جلستها قائلة: "اسمع.. لماذا تصرون جميعا على أن تدعوني "سوسيلا"؟".

وحملق فيها "رامش" مأخوذا، حائرا، لا يدري ما الذي كانت تعنيه بهذا السؤال، بينما اسْتَرْسَلت هي قائلة: "إن تبديل اسمي لن يغير من حظي. لقد كنت منحوسة مذ كنت طفلة، وسأظل منحوسة ما حييت!".. وانبثق في فؤاد "رامش" شعور من خيبة الأمل، وغاض الدم من وجهه. وتسلط عليه فجأة يقين بأن ثمّةَ خطأ جسيما.. خطأ ما لم يكن يدري كنهه، فقال: "لماذا تقولين: إنك سيئة الحظ طيلة عمرك؟".

– لقد مات أبي قبل أن أولد.. ولم أكن قد بلغتُ الشهر السادس من عمري حين لحقت به أمي.. ولقد قضيت وقتا من أسوأ الأوقات في دار خالي. ثم بُوغتُّ بأنك جئت من مكان ما، وأُعْجِبْتَ بي، فلم ينقض يومان حتى تزوجنا.. وإنك لتعلم ما جرى بعد ذلك!

واستلقى "رامش" على حشيته حائرا. وكان القمر قد بزغ، ولكن شعاعه بدا في عينيه فاقد البهاء. وأَوْجَسَ من أن يوجه إلى الفتاة سؤالا آخر، بل إنه حاول أن يطرح عن ذهنه ما سمع. وأن يعتبره حلما، أو وهما!.. وهَبَّت نَسْمَةٌ دافئة من الجنوب، لطيفة كزفرة المستيقظ من نعاس.. وشرع طائر من طيور "الوقواق" يصدح في ضوء القمر بأنغام رتيبة.. وانبعث من القوارب الراسية في المرفأ القريب غناء النواتيّ. وإذ تبينت الفتاة سكون "رامش" لكزته في رقَّة، متسائلة: "هل نمت؟".. فأجابها: "لا"، ولكنه لم يزد. ومالبثت الفتاة أن استسلمت للنوم في دعة!

وإذ ذاك استوى "رامش" جالسا، وراح يتأملها.. ولكنه لم يَرَ على جبينها أثرا للسر الذي خطه القَدَرُ. ترى، كيف تسنَّى لمثل هذا النحس البغيض –الذي أشارت إليه– أن يسْتَتِرَ وراء حُسْنٍ كهذا؟

الفصل السادس

– وما لَبثَ "رامش" أن أيقن أن الفتاة لم تكن الزوجة التي عقد عليها قرانه! على أنه لم يكن من السهل أن يكتشف ممن كانت قد اقترنت، وعنَّ له مرة أن يسألها في لباقة، فقال: "ما الذي خطر لك حين رأيتني للمرة الأولى عند عَقد قراننا؟". فأجابته: "إنني لم أرك.. إذ لم أوجه إليك بصري طيلَةَ الوقت".

"رامش": أولم تسمعي اسمي على الأقل؟".

الفتاة: "إنما سمعت عنك للمرة الأولى في اليوم السابق لزفافنا، فقد كانت زوجة خالي تتعجل الخلاص مني، إلى درجة شغلتها أن تذكر لي شيئا.. ولو اسمك!".

"رامش": "لقد علمت –بهذه المناسبة– أنك تعرفين القراءة والكتابة، فهل تراك قادرة على كتابة حروف اسمك؟".. وقدم لها ورقة وقلما، فصاحت في اسْتهْجان: "لعلك تحسبني أجهل حروف اسمي!.. إنه في الواقع سهل الهجاء"، وكتبت بحروف كبيرة. "سريماتي كمالا ديبي".

"رامش": "والآن، اكتبي اسم خالك!".

وكتبت "كمالا": "سريجوكتا تاريني تشاران تشاتو بادياي". ثم تساءلت: "أتراني أخطأت؟".. فأجابها: "لا.. ولكن، هلا كتبت اسم قريتك؟".. فكتبت: "دوبابكور". وبمثل هذه الحيلة لم يلبث "رامش" أن جمع عددا من البيانات عن حياة الفتاة. على أنه ظل رغم ذلك أبعد ما يكون عن الغاية التي كان يسعى إليها من وراء أسئلته، ومن ثَمَّ عكف على تدبير خطة يتصرف بمقتضاها في المستقبل. كان الاحتمال الغالب أن زوجها غرق. ولو أنه اهتدى إلى أهل هذا الزوج، وأرسل إليهم "كمالا"، فمن المشكوك فيه أن يقبلوها بينهم. ولم يكن من الإنصاف أن ترد إلى دار خالها. ثم، كيف يتلقاها المجتمع، إذا ما ظهر أنها كانت تقيم كل هذا الوقت مع رجل غير زوجها، كزوجة له؟.. وأين إذن تجد المأوَى والرعاية؟.. ولو افترضنا أن زوجها كان حيا، فهل من المحتمل أن يرغب في استعادتها.. أو أن يُقْدمَ على ذلك؟!

وشعر "رامش" بأنه إذا أقدم على أي تصرف من هذا القبيل، لألقى بالفتاة في عُرْض بحر لا أول له ولا آخر، وليس لها فيه من هاد ولا دليل!.. وما كان بوسعه أن يستبقيها معه بأي اعتبار، سوى اعتبار أنها زوجته، كما لم يكن بوسْعه أن يسلِّمها إلى أي امرئ آخر. ومع ذلك، فما كان له أن يعيش معها كزوج يعيش مع زوجته!.. وأصبح من واجبه أن يمْحُوَ الصورة الفاتنة التي رسمها لهذه الفتاة، كشريكة لحياته المقبلة، رغم أنه أبدع في رسمها، وأسبغ عليها ألوانا وضَّاءة مزجها له الحب!.. كذلك لم يعد في الإمكان أن يقيم معها في قريته. أما بين الحشد الزاخر من السكان الذين تكتظ بهم "كلكتا"، فلن يكون أكثر من فرد مغمور.. ولعله يستطيع هناك أن يهتديَ إلى حلّ. ومن ثم انتقل بـ"كمالا" إلى

"**كلكتا**"، وأقام معها في مَسْكن ناء عن ذاك الذي كان يشغله من قبل.

ووجـــدت "**كـمـــالا**" في الانتقال تجربة مثيرة.. فعندما استقرا في مسكنهما يوم وصولهما، لزمت النافذة!.. كان السَّيْل الآدمي الذي يتدفق دون انقطاع تحت بصرها، كفيلا بأن يثير في نفسها فضولا لا سبيل إلى إشباعه. وكان "**رامش**" قد استأجر لخدمتها امرأة ثيّباً لم تكن طرقات "**كلكتا**" بالجديدة عليها، ومن ثَمَّ أخذت ترمق عُجْب "**كمالا**" وكأنه لون من النزَق، وما لبثت أن هتفت بها: "ما الذي يدهشك في هذا المنظر؟.. ألن تنهضي للاغتسال؟.. إن الوقت يمضي سراعا!".

وكانت المرأة مكلفة بخدمتهما طيلة النهار، على أن تنصرف في المساء إلى دارها، إذ عزّ عليهما أن يجدا خادمة تبيت معهما. وقال "**رامش**" لنفسه: "لم أعد أملك أن أنام مع "**كـمـــالا**"، ولكن، كيف تقضي الصغيرة لياليها وحيدة في مكان لم تألفه؟".. وما إن انصرفت الخادم عقب العشاء –في الليلة الأولى– حتى قاد "**رامش**" "**كمالا**" إلى مخدعها، وقال: "يحسن بك أن تأوي الآن إلى فراشك، وسألحق بك بعد أن أفرغ من القراءة!".. وفتح كتابا، وتظاهر بالقراءة.. وكانت "**كمالا**" مُتْعَبة، فلم تلبث أن نامت.. وأفلحت الحيلة في الليلة الأولى! وكذلك عمد "**رامش**" في الليلة التالية إلى إسلام "**كمالا**" إلى السرير وحيدة. وكان الحر شديدا، فنشر ملاءة على أرض الشرفة المتصلة بالمخدع، وقرر أن يقضي ليلته هناك. وظلَّ فترة طويلة مستغرقا في التفكير، مُسترْوِحاً النسمات، ولكنه مالبث –حوالي منتصف الليل– أن استغرق في السبات. غير أنه انتبه من نومه في نحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحا، على شعور أوحى إليه بانه لم يكن وحيدا.. كان ثمَّةَ من يجتلب له النسمات بمروحة!.. وفي شرود النائم، جذب الفتاة نحوه قائلا بصوت أثقله النُّعاس: "ألا اذهبي فنامي يا "**سوسيلا**"، ودعي الترويح عنك!".. ولكن الخوف من الظلام زَيَّن لـ"**كمالا**" أن تستكين إلى حضن "**رامش**"، وسرعان ما استغرقت في نوم هادئ. واستيقظ "**رامش**" مبكرا في الصباح، فاجفل ماخوذا، إذ كانت "**كمالا**" نائمة وقد طوقت عنقه بذراعها اليمنى!.. كانت قد فرضت نفسها عليه، في ثقة عذبة مفعَمة بالإغراء، فتوسَّدت صدره. واغرورقت عيناه وهو يتأمل الفتاة النائمة.. كيف يجرؤ على أن يفك الأنشوطة الناعمة التي طوقت بها الفتاة عنقه في اطمئنان؟.. وتذكر أنها تسللت إلى جواره في الليل، لتروّح مستجلبةً له الهواء. وأرسل زفرة حارة، وأخذ يتحايل حتى تخلص من عناقها في رفْق، ثم نهض.

*****

– قرر "**رامش**" –بعد تفكير طويل، قلق– أن يلجأ إلى حل مؤقت للمشكلة، بان يُلحق "**كمالا**" بمدرسة داخلية للبنات. ومن ثَمَّ شرع يزيّن لها الفكرة، فسألها: "هل تحبين أن تزدادي علما يا "**كمالا**"؟".. فتطلعتْ إليه الشابة بنظرة قالت بلغة أفصح من الكلام: "ما

الذي ترمي إليه؟" .. فأخذ يسهب في الحديث عن فوائد التعلم، وما في الدراسة من متعة. وما كان أحراه بأن يوفر على نفسه الكلام، إذ كان كلّ ما قالته "**كمالا**" هو: "حسنا، إذن فعلمني!" .. فقال "**رامش**": "سألحقك بمدرسة!"، فهتفت في عجب: "مدرسة!!. أو تذهب فتاة كبيرة مثلي إلى المدرسة؟!" .. وابتسم إذ أسندتْ احتجاجها إلى السن، ثم قال: "إن هناك من يذهبن إلى المدرسة ويكبرنك في السن كثيرا!".

ولم تجد "**كمالا**" ما تقوله بعد ذلك. وفي أحد الأيام، استقلّت عربة مع "**رامش**" إلى المدرسة، فإذا بها مؤسسة كبيرة، لا يكاد المرء يُحْصي من كُنّ فيها من فتيات، منهن من يكبرن "**كمالا**" ومنهن من يصغرنها!.. ووكلها "**رامش**" إلى رعاية ناظرة المدرسة، حتى إذا هَمَّ بالانصراف، تحركت وكأنها تَبْغي أن تصحبه، فقال لها: "إلى أين تنصرفين؟.. لسوف تمكثين هنا!" .. فسألته في صوت مرتجف: "أولن تمكث أنت الآخر؟". قال: "لست أملك البقاء!" ..عند ذاك أمسكت "**كمالا**" بيده، وقالت: "إذن، فليس لي أن أبقى أنا الأخرى.. خذني معك!" .. فقال وهو يخلص يده من يدها: "لا تكوني غبية يا "**كمالا**"!" .. وأفْحَم هذا التأنيب "**كمالا**"، فلم تحر كلاما، وسُمِّرَت في مكانها كالمأخوذة وقد بدا وجهها مسرحا لاختلاجات مؤثرة. وأسرع "**رامش**" إلى الخروج بقلب أثقله الألم. على أنه –رغم تعجله– لم يستطع أن ينسى منظر ذلك الوجه الجميل الصغير، المرتاع!

الفصل السابع

– اعتزم "رامش" بعد ذلك أن ينصرف إلى ممارسة المحاماة أمام محاكم "آليبور" في "كلكتا". على أنه كان فاتر الهمة، إذ كان ينقصه الحافزُ الذي يدفعه إلى العمل في سبيل غاية معينة، وإلى تذليل كل العقبات التي تعترض طريق المحامي الناشئ. وبدأ يكثر من المشي على غير هدى –أو لغير ما غاية– عند جسْر "هوراه"، أو حول "ميدان الكلية". وكان قد شرع يفكر في القيام برحلة إلى المناطق الشمالية الغربية، حين تلقّى رسالة من "أنادا بابو"، حُولَتْ إليه من بلدته. وكان الشيخ الجليل قد كتب له: "طالعتُ في صحيفة "الجازيت" نبأ نجاحك، فآلمني ألا أسمع هذا النبأ منك شخصيا. ولقد انقضى أمد طويل لم نحظ فيه بأخبارك. فمن واجبك أن تخفف من قلق أصدقائك القدامى، ولذا نرجو أن تكتب إلينا عن صحتك، وعن موعد حضورك إلى "كلكتا"!.. وما نرانا نخرج عن الموضوع إذا ذكرنا هنا أن الشاب الآخر الذي كان يدرس في "إنجلترا" –والذي كان "أنادا بابو" يضع عينه عليه كزوج لابنته– كان قد أتم دراسته، وسُمح له بممارسة المرافعة أمام المحاكم، وعاد إلى الهند فتزوج من شابة ثرية!

وساور الشكّ "رامش" –فترة طويلة– فيما إذا كان من حقه، بعد كل ما جرى، أن يجدد علاقته بـ"همناليني" على النّسق الذي قامت عليه في الماضي. إذ ما كان له –في حاضره– أن يُميط اللّثام عن حقيقة علاقته بـ"كمالا"، مهما تكن الظروف. فقد كان يُشفق على الفتاة البريئة مما يعرضها له هذا التصرف من فضيحة وخزْي في نظر المجتمع. ومع ذلك، كان من واجبه، إذا شاء أن يستأنف علاقاته الأولى مع "همناليني"، أن يبوح لها بكل شيء!.. على أنه –في أي الحالين– لم يجد من الكياسة أن يُبطئ في الرد على خطاب "أنادا بابو"، ومن ثَمَّ كتب له: "أرجو أن تغفروا لي عدم زيارتي لكم، فقد حالتْ دون ذلك ظروف فوق إرادتي"!.. وتعمَّد إغفال ذكر عنوانه الجديد. في اليوم التالي، ابتاع الزي التقليدي للمحامين، وظهر لأول مرة في محكمة "آليبور".

وفي ذات يوم، راق لـ"رامش" أن يقطع بعض الطريق على قدميْه، وهو عائدٌ من حي المحاكم، وإذ همَّ بأن يستأجر عربة لتقله إلى البيت، سمع صوتا مألوفا لديه، يهتف في عجب: "أبت.. ها هو ذا "رامش بابو"!".. وانبعث صوت رجل يصيح: "قف أيها الحوذي.. قف!". ووقفتْ عربة على مقربة من المكان الذي وقف فيه "رامش". فقد كان "أنادا بابو" وابنته عائديْن من نزهة استغرقتْ نهارهما في حدائق حيوان "آليبور"، ومن ثم كان هذا اللقاء. وما إن وقع بصر "رامش" على "همناليني" في العربة.. "همناليني" بوجهها السّمح اللطيف، وزيها، وشعرها المنسّق على ذلك النمط الذي ألفه، والقرطين الكبيرين، والأساور الذهبية المحيطة بمعصميْها.. عندما وقع بصر "رامش" على كل هذا، اجتاحت صدرَه موجةٌ من الانفعال العاطفي هزت كيانه هزا!

وهتف "أنادا بابو" : "هذا إذن "رامش" !.. أي حظ أتاح لنا أن نلقاك هكذا في الطريق!.. لقد كففْتَ الآن عن الكتابة إلينا، وحتى عندما كتبتَ لم تُعْطِنا العنوان.. إلى أين أنت ذاهب الآن؟.. هل أنت ذاهب لتأدية مهمة خاصة؟" .. فأجاب "رامش" : "لا.. إنما انصرفتُ لتوي من المحكمة".

– إذن، تعال فتناول الشاي معنا.

وكان قلب "رامش" مُفْعَماً بالشوق، ولا مجال فيه للتردد، فصعد إلى العربة، وجلس وهو يغالب الحياء والإحجام بجهد جبار. وسأل "همناليني" عن صحتها. وبدلا من أن تجيبه، سألته: "لماذا لم تُنْبِئْني بنجاحك؟" .. ولم يُسْعفه ذهنه بجواب، فاكتفى بأن قال: "لقد علمتُ أنك الأخرى نجحت" .. وضحكتْ "همناليني" قائلة: "إذن، فأنت لم تنسنا تماما! حسنا، إن هذا يبشر بشيء من الطمأنينة!". وسأله "أنادا بابو" : "وأين تقيم الآن؟" .. فقال "رامش" : "في حي "دارد جيبارا" .. وإذ ذاك قال الشيخ الجليل: "ولماذا؟.. إن مسكنك القديم في حي "كالوتولا" كان ملائما!" .. وحدّقت "همناليني" في "رامش" باهتمام، مَشُوقة إلى سماع جوابه. ولم تغب هذه النظرة عن "رامش"، بل لقد أَحَسَّ بالعتاب الذي انطوت عليه، فقال متلعثما: "أجل.. لقد اعتزمتُ أن أعود إليه!".

*****

– وكان "رامش" موقنا بأن "همناليني" قد أقامت من نفسها حكما عليه، ومن ثم وجد نفسه أمامها مذنبا، وكأنما كان تغيير مسكنه جريمة خطيرة!.. وأثار الشعورُ بالذنب في نفسه شجنا مؤلما، وعجز ذهنه عن أن يلهمه حُجَّةً واحدة للدفاع عن تصرفه. على أن هذا التحقيق دار في صمت –مؤقتا– وتعمدت "همناليني" أن تثبت بصرها على الطريق مشيحة عنه. حتى إذا ثقل الصمت ولم يعد لـ"رامش" قِبَلٌ باحتماله، تطوع لأن يذكر لها طرفا من سبب تغيير مسكنه، قائلا: "إن لي قريبا يقيم بالقرب من "هدوا"، ولذلك أقمت في "داردجيبارا" حتى أكون على اتصال به!" .. ومع أن هذا لم يكن كذبا خالصا، إلا أنه بدا تبريرا ناقصا، يثير الاستنكار.. كأنما لم يكن حي "كالوتولا" قريبا من حي "هدوا" بحيث يتيح له أن يطمئن من آن إلى آخر على قريب له بعيد النسب!

وظلت "همناليني" تحدق في الطرق، فراح "رامش" المسكين يعصر ذهنه بحثا عن شيء يقال. وما لبث أن تساءل: "ما أخبار "جوجن"؟" .. ولكن الجواب جاءه من "أنادا بابو"، إذ قال: "لقد أخفق في الامتحان النهائي للقانون، فذهب إلى الريف لتغيير الهواء"!.. وإذ بلغت العربة غايتها، فعل المسكن المألوف والأثاث فعل السحر في نفس "رامش"، فأرسل زفرة عميقة، امتزج فيها الارتياح بالحسرة بشكل عجيب!.. وجلس دون أن ينبس ببنت شفة. وفجاة، قال "أنادا بابو" : "لعلها أعمال مهمة تلك التي حملتك على البقاء طويلا في قريتكم؟" .. فقال "رامش" : "لقد مات أبي..." . ولم يتم عبارته، إذ صاح الشيخ:

"أحق هذا؟.. وكيف كان ذلك؟".

- كان عائدا إلى القرية في قارب على نهر "**بادما**"، حين هبت عاصفة مباغتة، فانقلب به القارب، وكان من بين الذين غرقوا:

واكْتَسحَ هذا النبأ ما كان بين "**رامش**" و"**همناليني**" من فتور، كما تجرف الريح السحب من السماء، فلا يلبث أن يسودها الصَّحْو. وقالت "**همناليني**" لنفسها في أسف: "لكم أخطأت في حق "**رامش بابو**".. كان مشغولا بحزنه على فقدان أبيه، وبما ترتب على ذلك من متاعب. ولعله لا يزال حزينا حتى الآن.. ولكنا اعتبرناه مذنبا، ولم يخطر لنا قط أن انشغاله عنا قد يكون راجعا إلى متاعب عائلية أو أعباء من هذا القبيل!".. ومن ثم تحولت تغدق رعايتها على الشاب اليتيم!.. فلما لاحظت انه لم يُصبْ شيئا مما قُدم مع الشاي، قالت: "أرى انك لست في صحة طيبة.. يجب أن تُعْنَى بصحتك!"، ثم التفتتْ إلى "**أنادابابو**" قائلة: "يجب أن يتناول "**رامش بابو**" عشاءه الليلة معنا يا أبت!".. فقال السيد الكهل: "بالتاكيد يا ابنتي!"..

*****

وفي تلك اللحظة، وصل "**أكشاي**". وكان ظهور "**رامش**" غير المرتقب صدمة ساءته، بعد أن ظل زمنا بغير مُزاحم أو غريم على مائدة الشاي بدار "**أنادابابو**". بيد أنه تمالك نفسه، وهتف في حبور: "ما هذا؟.. أأنت هنا يا "**رامش بابو**"!.. الا ترى أنك قد نسيتَ وجودَنا تماما؟".. فاكتفى "**رامش**" بابتسامة واهنة. ولكن "**أكشاي**" مضى في حديثه: "عندما رأيت كيف حملك أبوك على الرحيل، أيقنت انه ولابد سيعتقلك إلى أن يتم تزويجُك.. فهل استطعتَ أن تفر من هذا المصير، بعد الذي جرى؟".. ورمقته "**همناليني**" بنظرة ناقمة عَقَدَتْ لسانه. وإذ ذاك قال "**أنادابابو**": ؛لقد رُزئَ "**أنادابابو**" في أبيه يا "**أكشاي**".. ونكس "**رامش**" رأسه، ليُخفي الاصفرار الذي كسا وجهه فجاة، عند ذكر الزواج. وسارعت "**همناليني**" تسري عنه، وهي محنقة على "**أكشاي**" لتحرشه به، فقالت: "إنني لم أطلعك بعد على مجموعة صوري الجديدة، يا "**رامش بابو**"... وأحضرت "الألبوم" فوضعته على المائدة أمام "**رامش**"، وشرعت تحدِّثه عن الصور. وانتهزت الفرصة لتقول له بصوت خافت: ؛أظنك تقيم وحيدا في مسكنك الجديد يا "**رامش بابو**؟.

فأجاب: "أجل.. وحدي".

- حسنا، يجب أن تنتقل باسرع ما تستطيع إلى مسكنك القديم المجاور!

- نعم، سانتقل إليه يوم الاثنين القادم مهما يحدث!

فاستدركتْ قائلة في تخابث: "الواقع أنني ساحتاج إلى معونة منك - بين آن وآخر- في دراسة الفلسفة، لأحصل على "بكالوريوس الآداب".. واغتبط "**رامش**" لهذه الفكرة!

الفصل الثامن

– وقبل أن يمضي وقتٌ طويل عاد "رامش" إلى مسكنه القديم. ولم يبق أثر للغيوم التي خيّمت على علاقاته بـ"همناليني". بل إنه اعتبر كأحد أبناء البيت، فكان يشترك في الدعابات العائلية، ولم يفته قط الحضور في أية مناسبة من المناسبات التي كانت الأسرة تحتفل بها. وكان طول استغراق "همناليني" في الاستذكار قد شف جسمها، حتى كان المرء يخال أن النسيم يوشك أن يقصف عودها!

وكانت "همناليني" –قبل عودة "رامش"– كثيرة التحفظ والصمت، حتى إن أصدقاءها كانوا يحُجمون عن الإلحاح عليها بالحديث، خشية أن تردهم في جفاء. على أن الأيام القلائل التي تلت عودة "رامش" إلى مسكنه القديم أحدثت تطورا مدهشا في مظهرها ومسلكها.. فحلّت محل صفرة خديها حمرةٌ خفيفة، وأصبحت عيناها ترقصان طَرَباً مع كل كلمة تنطق بها. ولقد مرتْ عليها فترة كانت ترى فيها أن من الطيش –بل من الإجرام– أن تبدي اهتماما كبيرا بالثياب. ولكن أحدا لم يقدِّر له أن يدرك سر ما طرأ عليها اليوم من تطوّر في هذا الصدد، فما كانت لتُفْضيَ بدخيلة نفسها إلى أحد، أما "رامش"، فكان كالعهد به دائما، محرجا، مرهَف الضمير، كمن يخشى أن يَصْدر عنه ما يُؤاخَذُ عليه؟... كان الشعور بالمسؤوليات يثقل جسمه وعقله، على السواء. وما كان ليحيد عن عاداته ولو تغيَّر نظام الكون!.. كان أشبه بالفلكي، لابد من أن يقيم مرصدَه وكل أدواته على أسس وقواعد ثابتة، رغم أن الكواكب تمضي في أفلاكها طليقة، حرة من كل قيد!.. وكان لا يحفل ببهرج الدنيا وضجيجها، ليستغرق في كتبه وما كانت تتضمنه من فلسفات. على أن وميضا من الخفة والمرح –اللذين لم يكن له بهما عهد– أشرق اليوم في ظلام مسلكه المتزمت. ومع أنه ظل يجد عناء في ترويض نفسه على إلقاء النكات والفكاهات، إلا أنه أصبح لا يتورع عن أن يُبدي تقريره للملحة الطيبة، أو الدعابة البريئة، وإذا كان شَعْرُه قد ظل محروما من المعاجين والطيب، إلا أنه لم يكن قط زري الثياب.. ولاح أن جسده وعقله أصبحا أكثر نشاطا ومرحا!

الفصل التاسع

- تَفْتقدُ "كلكتا" -أكثر من أية مدينة أخرى- كل تلك المعالم التي اعتاد الشعراء أن يرسموها للبيئة التي تليق بالعشاق من الشباب. فالبساتين المزهرة، والأشجار الوارفة، والخمائل الملتفة في أوراق النباتات الزاحفة، وأنغام طائر "الوقواق" الصدّاح.. كل هذه معالم لا وجود لها في "كلكتا"، ومع ذلك فإن "الحب" الساحر يأبى أن ينسحب منهزما من المدينة الحديثة الخالية من الخضرة والجمال، ومن ذا الذي يستطيع أن يتعقب هذا الإله -أصغر الآلهة وأقدمها معا- في جولاته، وهو ينساب بقوسه وسط حركة المرور الزاخرة، متسللا خلال مركبات الترام الفولاذية الجدران، ومتواريا عن عين رجل الشرطة ذي العمامة الحمراء؟!.. فلقد كان "رامش" و"همناليني" يسكنان بيتين من بين مجموعة من بيوت حي "كالوتولا" تواجه حَانُوتَ إسكافي، وتجاور متجر بَدَّال، ومع ذلك انساب غرامهما في سرعة ويسر، وكأنهما كانا يقيمان في خميلتين شاعريتين!.. ولم يضرّ "رامش" في شيء أن تقضي الظروف بأن تكون لقاءاتهما حول مائدة "أنادابابو" العتيقة، الصغيرة، ذات الغطاء الملطخ ببقع الشاي، بدلا من أن تكون حول بحيرة تتناثر على سطحها زهور اللوتس!.. وما قُدِّر لأي فتى ريفي -من العشاق الذين تصورُهُم الأساطير- أن يداعب الحَمَلَ الوديع الذي تعتز به حبيبته، بمثل ذلك الوجد الفيّاض الذي كان "رامش" يبديه وهو يتحسس عنق القط الذي كانت "همناليني" تعتز به!.. وكان القط إذا ما قوَّس ظهره، ونهض مُتَمَطِّيا، بدا لعيني الشاب المفتون أجمل المخلوقات التي يكسوها الفراء!

كذلك كانت "همناليني" قد أهملت الحياكة والتطريز، عندما وقفت كل تفكيرها على الاستعداد للامتحان. ومن ثم قضت وقتا في تلقي بعض الدروس على يدي إحدى صديقاتها. على أن "رامش" كان يرى في التطريز عملية غير لازمة، وغير جديرة بأي اهتمام جَدِّي..

فقد كان في وسعه أن يلتقي بـ"همناليني" في ميدان الأدب وأحاديثه، أما فيما يتعلق بأشغال الإبرة، فلم يكن له ثمةَ مجال لارتياد ميدانها!.. وكان لا يفتأ يهتف بحبيبته في شيء من العتاب: "فيم شغفك بالتطريز في هذه الأيام؟.. إنه ملهاة أولئك اللائي لا يجدن عملا يفضله!".. فكانت "همناليني" تبتسم في صمت، وهي منهمكة في إيلاج الخيط في ثقب إبرتها.

وخطر لـ"أكشاي" يوما أن يقول في سخرية لاذعة: "إن "رامش بابو" يزدري كل شيء في الدنيا له نفع!.. إنه قد يتخذ من أي فيلسوف أو شاعر إلها معبودا، ولكن ما دَرَجَ عليه من استهانة بكل شيء ذي قيمة، لا يلبث أن يَحيدَ به عن الاستغراق في العبادة!"... وأثار هذا القول ثائرة "رامش"، فتأهب لجدال حامي الوطيس، بيد أن "همناليني" اعترضته قائلة: "لماذا تحفل دائما بالردّ على ما يُقال يا "رامش بابو"؟.. ما أكثر ما في الدنيا من لَغْو

لا قيمة له!" .. وانحنت تحصي عدد الغرز التي صنعتها إبرتها، ثم عادت تدس الإبرة بانتباه خلال الحرير..

ودخـل "**رامـش**" ذات يوم حجرة مكتبه، فإذا على مائدة الكتابة كراسة من ورق النشّاف، في غلاف من حرير مزين بزهور مطرزة. وفي أحد الأركان، نقش الحرف "ر"، بينما نقشت زهرة "اللوتس" في ركن آخر بخيط من القصب. ولم تساور "**رامش**" الحيرة طويلا، فما لبث أن فطن إلى شخصية صاحبة الهدية، وإلى الباعث الذي حملها على تقديمها، فتسارعت دقات قلبه، وتلاشى كل احتقاره لأشغال الإبرة، فانقلب في لحظة إلى متحمس لهذه الأشغال، مُتأهب للدفاع عنها أمام كل إنسان. وإذ ضم كراسة ورق النشاف إلى صدره، بدا مستعدا لأن يعترف بخطئه، ولو لـ"**أكشـاي**" نفسه!.. وفتح الكراسة، فوضع فيها قطعة من الورق، وراح يكتب: "لو أنني كنت شاعرا، لأرسلت لك نسخة من أشعاري.. أما وأنا كما تعرفين، فإني عاجز عن أن أقدم لك ما يتكافأ مع هديتك. لقد حُرمتُ نعمة البذل، ولكن ثمة نعمة في الأخذ.. إن ما تعنيه هذه الهديّة غير المرتقبة، لهو سر بين الإله العليم ونفسي!.. والهدية ذاتها قد ترى وتلمس، أما عرفاني للجميل فشيء لا يرُى ولا يُلمس، وإنما يكفيك أن أذكر لك أنني سأظل إلى الأبد مدينا لك – "**رامـش**".. وتلقت "**همناليني**" الرسالة، ولكنها و"**رامش**" لم يشيرا إليها بعد ذلك قط!

*****

– وأقبل فصل الأمطار.. والأمطار تدخر فوائدها عادة للريف، أما لأهل المدن، فهي ليست نعمة مشتهاة، إذ تتجه الجهود بأسرها إلى تفادي البلل، وفي سبيل هذا يُغلق أصحاب الدور نوافذهم، ويعززون سُقوفَهم، ويرفع عابرو الطرق المظلات فوق رؤوسهم، وتُسدل ستائر مركبات الترام.. ومع ذلك يظلُّ الجميع يخوضون في الماء والوحل طيلة الوقت. هذا، بينما يستقبل النهر، والجبل، والغابة، والحقل، مقدم المطر، بصيحات الترحاب، وكأنه صديق حميم.. ولكم نرى المطر في أبهى آياته، في بيئته الطبيعية!.. فعندما تَتّحد أصوات السماء والأرض لتحية السحب المطيرة، يغيب كل نغم ناشز!.. والعشّاق الشبّان يرحبون بالمطر كالجبال! فإذا كان انْهماره لم يزد "**أنادابابو**" سوَى نهم، إلا أنه لم يقو على أن يغرق روحي "**همناليني**" و"**رامش**"!.. وكثيرا ما كان المطر يحول دون ذهاب "**رامـش**" إلى المحكمة، إذ أخذ يهطل بغزارة يوما بعد يوم، إلى درجة كانت تدفع "**همناليني**" إلى أن تقول لـ"**رامش**" وهو يتأهب للانصراف من دارهم بعد تناول الشاي: "كيف تستطيع أن تعود إلى دارك في مثل هذا الجو يا "**رامش بابو**"؟". فيجيب "**رامش**" في استحياء: "هذه مسألة بسيطة.. سأستطيع ذلك بطريقة ما!".. فتقول "**همناليني**" مُسْتحثَّة: "ما الجدوى من أن تُبْتل وتُصاب ببرد؟.. من الأفضل أن تمكث لتتناول العشاء معنا!".

ولـم يـكـن "**رامـش**" بالذي يخشى على صحته، فما لاحظ أصدقاؤه وأقاربه أنه عرضة للتأثر بالبرد بسهولة. ومع ذلك، فقد أخذ ينصاع بسرعة مدهشة لما كانت تمليه عليه "**همناليني**" في الأيام الممطرة، وأصبح السير تحت المطر -ولو الخطوات القلائل التي تفضي به إلى داره- يعتبر تهورا آثما! .. وعندما كانت السماء تبدو أكثر اكفهرارا وإنذارا بالسيل من المألوف، كـان "**رامش**" يدعَى إلى غرفة "**همناليني**" ليشترك في الفطور أو العشاء، حسب الوقت! .. وكانت "**همناليني**" لا تخشى على جهازه الهضمي من الأكل خشيتها على صدره من البرد! .. وهكذا، راح الشابان يقضيان أيامهما -يوما بعد آخر- متدثرين بعواطفهما! .. ولم يفكر "**رامش**" مطلقا في نتيجة هذا كله، ولكن "**أنادا بابو**" فكر فيه، كما وجده أصدقاؤه وأقاربه مادة لأحاديثهم! .. فإن ما أوتيه "**رامش**" من وَعْي بالأمـور الدنيويَّة، لم يكن يعادل ما أوتيه من لباقة وبلاغة. وقد أسْدَل افتتانه بـ"**همناليني**" ستارا كثيفا على نظرته إلى شؤون الحياة الاجتماعية، فلم يفطن إلى ما ينبغي أن يكون بعد هذا الانسياق للهوى! .. وكان "**أنادابابو**" يتفرَّس في وجهه كل يوم، مستطلعاً، متسائلاً، فلا يتلقَّى الجواب المرتَقَب!

الفصل العاشر

– لم يكن صوت "**أكشاي**" بالرخيم، ولكن أي ناقد ما كان ليتردد في أن يسأله المزيد إذا ما غنى وهو يعزف على قيثارته!.. ولم يكن "**أنادا بابو**" شديد الشغف بالموسيقى، بل إنه ما كان ليزعم ذلك ولو على سبيل المجاملة، إلا أنه أوتي وسائله الخاصة التي كان يلجأ إليها إذا ما رأى أن محبي الموسيقى قد أسرفوا في إرضاء ميولهم على حسابه. فإذا سأل أحد "**أكشاي**" أن يمضي في الغناء من جديد، تدخل "أنادا بابو" قائلا: "ما ينبغي لك هذا في الواقع.. إنكم لترهقون المسكين لمجرد أنه يجيد الغناء!".. وكان "**أكشاي**" يَرُدُّ في لباقة: "هذا صحيح يا "**أنادا بابو**"، فلا تأبه لهم.. ولكن، من الظالم ومن المظلوم في هذا الإرهاق؟".. فيقول الشخص الذي سأله أن يغني: "هذا ما سنقرره بعد أن تجود علينا بأغنية أخرى!".

واكفهرت السماء بعد ظهر ذات يوم بسحب ثقال، وأخذ الليل يقترب دون أن يكف المطر عن الانهمار. وحال السيل دون انصراف "**أكشاي**"، فاقترحت "**همناليني**" عليه أن يغني، وشرعت في ضبط أوتار "بيانو صغير" من ذلك النوع الذي يسهل نقله، والذي نستخدمه في "**البنغال**"، فَضَبَط "**أكشاي**" بدوره أوْتار قيثارته، ثم انطلق يغني مقطوعة هندوكية. ولم تكن لغة الأغنية مألوفة للسامعين، ولكن غموض الكلمات لم يضايقهم في شيء.. فإن أتفه الإشارات ترضي النفوس، إذا ما كانت المشاعر في أوج جيشانها. وكان المعنى العام للأغنية واضحا: كانت السحب المطيرة ترسل قطراتها، والطواويس تصيح، وثَمةَ عاشق يَنُوح من أجل حبيبته!.. وكان "**أكشاي**" يحاول أن يبثّ أغنيته ما كان يعتلج في فؤاده من مشاعر لا يجسر على البوْح بها، ولكن محاولته لم تنجح إلا في تحريك عواطف شخصين آخرين، كانا على مقربة منه.. فإذا قلبان يخفقان في تجاوب، ويغوصان في لُجَج اللحن!.. ولم يعُد في الدنيا شيء يلُوح لهما تافها أو قاتما، وإنما بدت الدنيا لهما ملتفة في غلالة من ضباب وَرْدي.. وكأنما اجتمع كل ما خفَقَتْ به قلوب البشَر من وجْد –منذ الخليقة– ثم أخذ ينهمر على هذين العاشقين، ويتغلغل في كيانيهما بكل ما كان يحتويه من لذة وعذاب، ومن حنين وأسى!

ولم ينقطع المطر.. ولا الغناء!.. ولم يكن على "**همناليني**" سوى أن تقول: "لا تسكت يا "**أكشاي بابو**"، بل أسمعنا أغنية ثانية"، فينطلق "**أكشاي**" –دون أي تمنُّع– في أغنية جديدة!. وعزف فيما عزف، وهو يغني، لحنا كأفواج من سُحُب قاتمة مُدْلَهِمة، يمرق البرق خلالها. لكن اللحن كان رغم ذلك يثير كوامن الشجَن في القلب البشري!.. وكان الليل قد اكتهل عندما انصرف "**أكشاي**" إلى داره في تلك الليلة. وإذ تأهّب "**رامش**" للانصراف، رمق "**همناليني**" لحظة، وكأنه يتأملها خلال صدى أنغام الأغنية.. واستقبلت "**همناليني**" نظرته بنظرة حالمة، إذ كان سحر اللحن قد استولى عليها!.. وكان المطر قد

كف لحظة عن التساقط، ولكن، ما إن عاد "رامش" إلى داره، حتى عاد الماء ينصَبُّ انصبابا.

*****

– ولم ينم "رامش" في ليلته. وكذلك جلست "همناليني" في ظلام مخدعها طويلا، تنصت بوعي شارد إلى وقع قطرات المطر، وكلمات الأغنية الأولى تتردد في أذنيها. حتى إذا كان الصباح التالي، قال "رامش" لنفسه: "آه.. ليتني أجيد الغناء!.. ما كنت لأحجم عن النزول عن أية موهبة من مواهبي في مقابل هذا!"... ولكنّه كان يُدرك أن أي لون من ألوان التدريب لا يمكن أن يجعل منه مغنيا، وإن كان في وسعه أن يتعلم العزف على أية أداة موسيقية، على الأقل!.. وتذكر أنه في إحدى المناسبات، وجد نفسه وحيدا في قاعة الجلوس في دار "أنادا بابو"، فأجرى القوس على أوتار القيثارة.. وكانت هذه الجرة الواحدة، كافية لأن تجعله يَهْفُو إلى تعلّم الموسيقى؟.. على أن إله الموسيقى رَاحَ يلومه في عنف –في أحلامه– ويوحي إليه بأن الاتجاه إلى إجادة العزف على القيثارة أمر لا ينبغي أن يطمع فيه، ومن ثم خفَّفَ من غلوائه، واشترى معزفًا "بيانو" صغيرا، وضعه في غرفته، ثم أوْصَد الباب، وشرع يجري عليه إصبعه في حذر. ولم يطُل به الوقت حتى تبيَّن أن "البيانو" الصغير أقل إجهاداً وتطلبا للبراعة من القيثارة!

وعندما ظهر في دار "أنادا بابو" بعد ذلك، بادرته "همناليني" مُجاملةً. "سمعنا بالأمس شخصا يعزف على "البيانو" الصغير في مسكنك!".. وكان "رامش" قد ظن أنه بإغلاق الباب يصبح بمَنْجَى عن الأسماع، ولكنه تبيَّن أن ثمة شخصا مرهف السمع، التقط الأصوات التي انسابت خلال بابه المغلق!.. واضْطُر إلى أن يعترف باستحياء، فقالت "همناليني": "لا جدوى من أن تحبس نفسَكَ، لتقوم بمحاولات يائسة على أمل أن تعلّم نفسك.. بل الأفضل أن تأتي فتتدرب هنا، إذ إنني على دراية بأصول العزف بعض الشيء، وسيكون في وسعي أن أؤدي لك بعض العون!".. فقال "رامش": "إنني ثقيل الفهم، وسيكون تدريبي من أشق المهام عليك!".. قالت: "بل لسوف أعلمك كل ما أعرف، مهما تكن خجولا!".

وسرعان ما ظهر أن "رامش" لم يكن مغاليا في التواضع، حين وصف نفسه بأنه ثقيل الفهم في الموسيقى. فقد كان من العسير عليه أن يثير في نفسه أي ميل إليها، رغم معونة مدربته الحسناء!.. أفَرأيْتَ رجلا لا يعرف السباحة، يهوي في بركة، فيروح يضرب الماء بيديه وقدميه في جنون؟.. هذا المثال يدلك على مدى تخبّط "رامش"، وإن كان الماء في هذه الحال غير عميق، إذ لم يتجاوز ركبتيه!.. لم تكن لديه أضأل فكرة عن حركة أية أصبع، وكان يدق نغما ناشزا في أي مقطع دون أن يفطن، إذ كان انسجام الأنغام وتنافرها سواء لديه!.. وكان يخرق كل أصول العزف دون أن ينتبه قط، فإذا صاحت "همناليني": "ما الذي تفعله؟... هذا خطأ!"، أسْرَع إلى إصلاح خطئه بخطأ آخر!... على أن صاحبنا

"رامش" الصلب الرأي، الدءوب، لم يكن بالذي ينفض يديه من أية مهمّة بسهولة. وكما تمضي آلة تمهيد الأرض "وابور الزلط" في طريقها متثاقلة، غير حافلة بما تهشّم وتسحَق تحتها، كذلك راح "رامش" يدق -في غير ترفق، ولا انتباه- على مفاتيح آلته الموسيقية التعسة!.. وكانت "همناليني" تضحك من أخطائه، بل كان هو الآخر يضحك منها.. وكانت مقدرته الفائقة على ارتكاب الأخطاء تروق للجانب الضاحك من إدراك "همناليني"!.. فللحب مقدرة على ان يستخلص المتعة والبهجة من الأخطاء، ومن عدم التناسق، ومن العجز!... وكما أن حبّ الأم ينساب فياضا كلما أخطأ طفلُها الخطْو، وهي تُعلمه المشي.. كذلك كان انعدام أي ذوق أو ميل موسيقي لدى "رامش" مبعث متعة خفيّة لدى "همناليني"؟

ولقد قال "رامش" مرة، أو اثنتين: "بديع جدا أن تضحكي مني هكذا، ولكن.. ألم تكوني تُخطئين بدورك عندما كنت تتعلمين العزْف؟".. فكانت تُجيب: "كنت أخطئ بالتأكيد، ولكنني أصارحك يا "رامش بابو" بأن أخطائي لم تكن لتقاس مطلقا بأخطائك!".. ولم يعقه شيء من هذا، بل كان يضحك ثم يبدأ من جديد. ولم يكن "أنادا بابو" -كما أسلفنا- بالذي يفقه شيئا في الموسيقى، ولكنه كان يتكلف الإصغاء أحيانا، فيرهف السّمع، ثم يقول: "قولي ما شئت في عزفه، ولكن "رامش" أوشك أن يكون أستاذا!".

"همناليني": "أستاذ في النشاز!".

"أنادا بابو": "لا، لا.. لقد تحسّن كثيرا عما كان حين سمعته لأول مرة. وثقي بأنه لن يلبث أن يغدو عازفا لا بأس به، إذا هو ثابر على المران، فليس هناك من سبيل للإجادة سوى المران المتواصل.. وما إن يحفظ "النوتة" حتى يغدو الطريق ممهدا أمامه!".

ولم يكن ثمةَ وجه للاعتراض على مثل هذا القول.. فقد اعتادت الأسرة أن تتلقى في احترامٍ وصمت، ما يضعه الشيْخُ الجليل من قواعد وقوانين!

الفصل الحادي عشر

– تشبه عطلة "**البوجا**" في "**البنغال**"، عطلة عيد الميلاد لدى الإنجليز، فتُعطل الأعمال لعشرة أيام أو ما يقرب من ذلك، ويلتئم شمل الأسرات. وكان –في خريف كل عام تقريبا– ينتهز فرصة أجور السفر التي تخفض بمناسبة موسم العطلات هذا، فيرحل إلى "**جوبولبور**" للاستجمام وتغيير الجو، مُصْطَحباً ابنته، فيقيمان في ضيافة شقيقة له، كان زوجها من موظفي الحكومة هناك. وكان ينظر إلى هذه الرحلة السنوية كفرصة لتقوية جهازه الهضمي!

وأقبل شهر سبتمبر، فاقترب موعد العطلة، وشُغل "**أنادا بابو**" بالاستعداد للرحلة. وكان غياب "**همناليني**" كفيلا بأن يعطّل دروس العزف، لذلك حَرِصَ "**رامش**" على أن يفيد من أكبر قسط من الوقت الباقي قبل سفرها. وفي ذات يوم، قالت "**همناليني**" في سياق الحديث: "أعتقد أن في تغيير الجو نفعا كبيرا لك يا "**رامش بابو**"، فإن الرحيل عن "**كلكتا**" –ولو لأمد قصير– كفيل بأن يفيدك!.. ورأى أن الاقتراح معقول، فقد عَانى "**رامش**" –كثيرا– من الحُزْن والحدَاد، ومن شأن الترحال أن يشفيه من اكتئابه. وقال الشيخ: "من المؤكد أن تبديل الهواء الذي تعيش فيه لبضعة أيام شيء رائع.. أتعرف يا "**رامش**" أنني لاحظت أن الإنسان لا ينتفع من الذهاب إلى الريف أو إلى سواه، إلا في الأيام القلائل الأولى.. فإن شهية الإنسان تتفتح خلال الأسبوع الأول، فيأكل برغبة ونهم، ولكن الأمر لا يلبث بعد ذلك أن يعود إلى ما كان عليه، بلا اختلاف، فيعاوده شعوره القديم بمتاعب المعدة، والحموضة، وما إلى ذلك، كلما أكل!"..

"**همناليني**": "هل رأيت "**تربودا**" يا "**رامش بابو**؟".

"**رامش**": "لا.. لم أرها قط".

"**همناليني**": "خليق بك أن تراها.. أليس كذلك يا أبت؟".

"**أنادا بابو**": "اسمعي.. لماذا لا يأتي "**رامش**" معنا؟ لسوف يبدل الجوّ، ويشهد في الوقت ذاته صخور الرخام!".

ورُؤِيَ أن هذا النفع المزدوج أمر ضروري لشفاء "**رامش**"، فلم يجد سبيلا إلى المعارضة، وخُيّل إليه في ذلك اليوم أن كيانه كله يسبح في الهواء. ولكي يهدئ من خفقان قلبه الصاخب، أغلق باب مسكنه خلفه، وتحول إلى معْزَفه. وضاقت نفسه بالتزام الأصول والدقة، فراحت أصابعه تتراقص –كالمجانين– على مفاتيح المعزف، مُرْسلة عاصفة من الأنْغام الثائرة، غير المنسجمَة!.. كان التفكير في قرب فراقه لـ"**همناليني**" قد أسلمه من قبل إلى الهموم، أما الآن، فإن الفرح الطاغي أخرجه عن طوره، فلم يحفل بكل ما تعلم –بعد عناء– من أصول العزف!

*****

– وقطع عليه استرساله، طَرْقٌ على بابه، وصَوت يصيح: "كف يا "**رامش بابو**"، بحق السماء!.. ما هذا الذي تفعله؟"... واحْتقَن وجه "**رامش**" غيظا، وفتح الباب، فولج "**أكشاي**" قائلا: "الا ترى يا "**رامش بابو**" أنك بالإغراق في رذيلتك الخفية هذه، تعرّض نفسك للعقاب إذا مثلت أمام نفس المحكمة التي تترافع فيها؟".. فضحك "**رامش**" قائلا: "أقر بأنني مذنب!".. وعاد "**أكشاي**" إلى الحديث، فقال: "لديّ أمر أريد أن أحدثك فيه يا "**رامش بابو**" إذا لم تر مانعا". وارتقب "**رامش**" حديث "**أكشاي**" في صمت، وهو يعجب مما قد يكون عنده. ومالبث "**أكشاي**" أن قال: "لعلك قد عرفت بعد كل هذه المدة، أن سعادة "**همناليني**" ليست بالمسألة التي أستهين بها؟".. ولم يجب "**رامش**" بنعم أو بلا، وإنما ظل صامتا ينتظر ما بعد هذه المقدمة. ومالبث "**أكشاي**" أن قال: "إنني كصديق لـ"**أنادا بابو**" أرى من حقي أن أسألك عن نواياك إزاء "**همناليني**"؟!".

وأحس "**رامش**" بنفور من الكلمات، ومن اللهجة التي قيلت بها، بيد أنه لم يشأ –ولم يستطع– أن يجيب بجفاء، وإنما رَدَّ في هدوء قائلا: "هل هناك ما يوحي إليك بأن لدي نوايا سيئة؟".. فقال "**أكشاي**": "اسمع.. إنك تنتمي إلى أسرة هندوكية، وقد كان أبوك هندوكيا. وما صحبك إلى القرية ليزوجك، إلا لأنه كان يخشى أن تتزوج هنا من إحدى بنات الأسر البراهمية.. إنني أعرف ذلك!".. وكان "**أكشاي**" يعرف ذلك بالفعل، وهو الذي وَشَى به إلى الشيْخ الجليل، والد "**همناليني**"!.. وظل "**رامش**" لحظات لا يقوى على التطلع إلى وجه "**أكشاي**"، بينما استأنف هذا حديثه: "أفتظن أن وفاة أبيك المفاجئة قد جعلتك حرا تفعل ما تشاء؟.. عندما كانت رغبته..".

وهناك قطع عليه "**رامش**" استرساله وقد نَفَذَ صبره: "اسمع يا "**أكشاي بابو**".. إذا كان لديك أي موضوع آخر تتطوع فيه بنصحي، فإليّ بهذا النصح وسوف أنصت لك.. أما علاقتي بوالدي، فليست من شأنك في شيء!".. فقال "**أكشاي**": "حسن جدا.. لندع هذه الناحية.. إنما الذي أبغي معرفته هو: هل تعتزم الزواج من "**همناليني**"؟ وهل أنت في وضع يمكنك من هذا؟!".. وكانت هذه الطعنات المتتالية أكثر من أن يتحملها "**رامش**"، رغم هدوء طبعه، فقال: "اسمع، يا "**أكشاي بابو**".. قد تكون صديقا لـ"**أنادا بابو**"، ولكني وإياك لم نبلغ من الود حدا يسمح لك بأن تتكلم بهذه الطريقة.. فهلا تكرمتَ وتحولتَ عن هذا الموضوع؟".

"**أكشاي**": "إذا كان تحوّلي عن الموضوع معناه إغفال المسألة كلها، وتركك تمضي –إلى مالا نهاية– في الاستمتاع بالحياة التي تحياها، دون ما حساب للعواقب، لما ملكت أن أقول شيئا.. ولكن المجتمع ليس مجرد ساحة صيد لمن هم على شاكلتك ممن لا يحفلون بالعواقب. وربما كانت لديك أسمى الحوافز، كما أنك قد لا تحفل مطلقا بما تقوله الدنيا عنك، ولكنك جدير بأن تدرك أنك معرض لأن تُدعَى إلى تقديم حساب عن تلاعُبك –دون وازع– بفتاة في مثل وَضْع "**همناليني**".. هناك من سوف يناقشونك الحساب، وإذا

– وقطع عليه استرساله، طَرْقٌ على بابه، وصَوت يصيح: "كف يا "**رامش بابو**"، بحق السماء!.. ما هذا الذي تفعله؟"... واحْتقَن وجه "**رامش**" غيظا، وفتح الباب، فولج "**أكشاي**" قائلا: "ألا ترى يا "**رامش بابو**" أنك بالإغراق في رذيلتك الخفية هذه، تعرّض نفسك للعقاب إذا مثلت أمام نفس المحكمة التي تترافع فيها؟".. فضحك "**رامش**" قائلا: "أقر بأنني مذنب!".. وعاد "**أكشاي**" إلى الحديث، فقال: "لديّ أمر أريد أن أحدثك فيه يا "**رامش بابو**" إذا لم تر مانعا". وارتقب "**رامش**" حديث "**أكشاي**" في صمت، وهو يعجب مما قد يكون عنده. ومالبث "**أكشاي**" أن قال: "لعلك قد عرفت بعد كل هذه المدة، أن سعادة "**همناليني**" ليست بالمسالة التي أستهين بها؟".. ولم يجب "**رامش**" بنعم أو بلا، وإنما ظل صامتا ينتظر ما بعد هذه المقدمة. ومالبث "**أكشاي**" أن قال: "إنني كصديق لـ"**أنادا بابو**" أرى من حقي أن أسالك عن نواياك إزاء "**همناليني**"؟!".

وأحس "**رامش**" بنفور من الكلمات، ومن اللهجة التي قيلت بها، بيد أنه لم يشأ –ولم يستطع– أن يجيب بجفاء، وإنما رَدَّ في هدوء قائلا: "هل هناك ما يوحي إليك بأن لدي نوايا سيئة؟".. فقال "**أكشاي**": "اسمع.. إنك تنتمي إلى أسرة هندوكية، وقد كان أبوك هندوكيا. وما صحبك إلى القرية ليزوجك، إلا لأنه كان يخشى أن تتزوج هنا من إحدى بنات الأسر البراهمية.. إنني أعرف ذلك!".. وكان "**أكشاي**" يعرف ذلك بالفعل، وهو الذي وَشَى به إلى الشيْخ الجليل، والد "**همناليني**"!.. وظل "**رامش**" لحظات لا يقوى على التطلع إلى وجه "**أكشاي**"، بينما استأنف هذا حديثه: "أفتظن أن وفاة أبيك المفاجئة قد جعلتك حرا تفعل ما تشاء؟.. عندما كانت رغبته..".

وهناك قطع عليه "**رامش**" استرساله وقد نَفذَ صبره: "اسمع يا "**أكشاي بابو**".. إذا كان لديك أي موضوع آخر تتطوع فيه بنصحي، فإليّ بهذا النصح وسوف أنصت لك.. أما علاقتي بوالدي، فليست من شأنك في شيء!".. فقال "**أكشاي**": "حسن جدا.. لندع هذه الناحية.. إنما الذي أبغي معرفته هو: هل تعتزم الزواج من "**همناليني**"؟ وهل أنت في وضع يمكنك من هذا؟!".. وكانت هذه الطعنات المتتالية أكثر من أن يتحملها "**رامش**"، رغم هدوء طبعه، فقال: "اسمع، يا "**أكشاي بابو**".. قد تكون صديقا لـ"**أنادا بابو**"، ولكني وإياك لم نبلغ من الود حدا يسمح لك بأن تتكلم بهذه الطريقة.. فهلا تكرمتَ وتحولتَ عن هذا الموضوع؟".

"**أكشاي**": "إذا كان تحوّلي عن الموضوع معناه إغفال المسألة كلها، وتركك تمضي –إلى مالا نهاية– في الاستمتاع بالحياة التي تحياها، دون ما حساب للعواقب، لما ملكت أن أقول شيئا.. ولكن المجتمع ليس مجرد ساحة صيد لمن هم على شاكلتك ممن لا يحفلون بالعواقب. وربما كانت لديك أسمى الحوافز، كما أنك قد لا تحفل مطلقا بما تقوله الدنيا عنك، ولكنك جدير بأن تدرك أنك معرض لأن تُدعَى إلى تقديم حساب عن تلاعُبك –دون وازع– بفتاة في مثل وَضْع "**همناليني**".. هناك من سوف يناقشونك الحساب، وإذا

كنت تعتزم أن تثير فضيحة حول قوم تحترمهم، فامض فيما أنت ماض فيه من مسلك!".

"**رامش**": "أشكر لك نصيحتك، وسأقرر -حين يحلولي- المسلك الذي ينبغي عليّ أن أسلكه، بمحض رغبتي، فلا تشغلنّ بالك بالأمر.. ولا داعي لأن نمضي في هذا الحديث!".

"**أكشاي**": "يسرني أن أسمع هذا يا "**رامش بابو**" فشدّ ما يُريح بالي أن أعرف أنك ستفكر في الأمر، وتقرر مسلكا تنتهجه، وإن كان خليقا بك أن تسرع في هذا التفكيرا.. على أنني لن أمضيَ في مناقشتك في هذا الصدد، فاغفر لي أن قطعت عليك تدريباتك الموسيقية، وأرجو أن تعود إليها، فإنني لن أُثْقلَ عليك!"... وأسرع "**أكشاي**" منصرفا!

على أن "**رامش**" لم يعد يشعر بمَيْل إلى العزْف، وإنما استلقى على حشية، وقد عقد راحتيه تحت رأسه، وغفل عن الزمن، وعن الساعات وهي تنصرم تباعا. ولا يعلم غير السماء أي قرار انتهى إليه، ولكنه ولاشك رأى لزاما عليه أن يسعى لفوره إلى بيت جاره، وأن يحتسي قدحين من الشاي!

*****

- وهَتَفَتْ "**همناليني**" حين رأته: "أمَريض أنت يا "**رامش بابو**"؟".. فأجاب "**رامش**": "ليس هناك ما يستحق أن تشغلي به بالك!".. وهنا تدخل "**أنادا بابو**" قائلا: "لابد أن جهازك الهضمي يعاني بعض الاختلال.. إنه مجرد اضطراب في الصفراء.. ألا جرِّب قرصا واحدا من الأقراص التي أتناولها!".. فابتسمت "**همناليني**" وقطعت عليه حديثه قائلة: "حسبك يا أبت!.. إنك تريد من كل أصحابك أن يتناولوا هذه الأقراص، مع أنني لم أر واحدا منهم قد أفاد منها!".

"**أنادا**": "بل الأرجح أن أحدا لم يضار منها.. لقد تبينت بالتجربة أن أي نوع آخر من الأقراص التي تعاطيتها لم يفدني قدر ما أفادتني هذه!".

"**همناليني**": "إنك ما شرعت مرة في تناول نوع جديد من الأقراص إلا واعتبرته -خلال الأيام الأولى- خير الأنواع!".

"**أنادا**": "إنكم لا تصدقون ما أقول.. على رسْلكم إذن!.. ألا اسألوا "**أكشاي**" عم إذا كان قد انتفع من علاجي أو لم ينتفع!".

وتحولت "**همناليني**" عن الموضوع، لمجرد ذكر "**أكشاي**".. غير أن "الشاهد" أقبل في تلك اللحظة، وكأنما ساقه القدر ليؤدي الشهادة دون إيعاز، إذ كان أول ما قاله، مخاطبا "**أنادا بابو**": "عليك اليوم أن تعطيني أحد تلك الأقراص، فقد أفادتني أعظم فائدة، وإني لأحسَ اليوم بأني على خير ما يرام!".

فرمق "**أنادا بابو**" ابنته في انتصار وزهو!

الفصل الثاني عشر

– كـان "**أنادا بابو**" على استعداد لأن يحبّذ انصراف "أكشاي" بمجرد تناوله القرص، ولـكـن "**أكـشـاي**" –من ناحيته– لم يبد أية رغبة في التعجيل بالانصراف، بل ظلّ يرمق "**رامـش**" من ركن عينه في غير رضا. ولم يكن "**رامـش**" حريصا على أن يراقب نظراته، ولكنه –مع ذلك– لم يتمالك أن لاحظ تلك النظرات غير الراضية، فأحس بأنها تقض هناءته!

وكـانت "**همناليني**" تتحدث –طيلة الوقت– عن الرحلة المرتقبة إلى "**جوبولبور**"، إذ كان موعدها قد اقترب. وكانت قد عقدتْ عزمَها على أن تنتهز أول زيارة لـ"**رامش**"، كي تحدثه عن المشروعات التي رسمتها لعطلة العيد، ولتتشاور معه بصدد الكتب التي يحملانها معهما ليقرآها في أوقات فراغهما، ومن ثَمَّ فإنهما كانا قد اتفقا على أن يُبَكِّر "**رامش**" في الحضور، فإن تأخره حتى موعد الشاي، يترك مجالا لـ"**أكشاي**" –أو أي زائر آخر تسوقه المصادفة– كي يعكر عليهما حديثهما الخاص!.. ولكن الظروف شاءت أن يتأخر "**رامـش**" في الحضور.. بل لقد تأخر عن موعده المألوف في كل يوم، فلما وصل أخيرا، بدا مشغول البال، مهموما. وأحست "**همناليني**" باكتئاب لمنظره، فتحيّنتْ الفرصة لتقول له بصوت خافت: "لقد تأخرت اليوم كثيرا!".. وبدا "**رامـش**" شارد الفكر، إذ مضت هُنَيهة قبل أن يجيب قائلا: "أجل... أظنني كذلك".

وكـانت "**همناليني**" قد بذلت عناية خاصة بمظهرها –في ذلك اليوم– مرتقبة تبكيره كما اتفقا. فنسّقَت شعرها، وتأنقت في ملبسها قبيل العصر، ثم جلست تنتظره، وعيناها لا تتحوّلان عن الساعة. راحت تعلل نفسها بأن ساعة "**رامش**" متأخرة عن الوقت، وأنه لن يلبث أن يَفدَ. فلما خاب فألها، انتقلت إلى جوار النافذة، وانهمكت في التطريز وهي تغالب القلق، وزاد الطين بلة، ذلك الوجوم الذي كان يلوح على "**رامـش**" عند وصوله، والذي شغلت به عن محاولة تبرير تأخره، وخُيِّل إليها أنه نسيَ تماما وعده لها بالحضور مبكرا. ومن ثم كانت فترة تناول الشاي، في ذلك اليوم، من أثقل الأوقات على نفس "**همناليني**". فلما قُدِّر لها أن تنتهي أخيرا، بذلت الفتاة جُهدا في تبديد الشرود عن بال "**رامـش**".. وكانت ثمةَ كتبٌ على مائدة لصْق الحائط، فحَمَلتْ هذه الكتب، متظاهرة بنقلها إلى خارج الغرفة.. وأيقظت حركتها "**رامـش**" من اكتئابه ووجومه، فإذا هو إلى جوارها، يتساءل: "إلى أين تنقلين هذه الكتب؟.. ألم نتفق على أن ننتقي اليوم ما سوف نأخذه معنا منها؟".

وارتجفتْ شفتا "**همناليني**"، وقمعت– بعناء– الدموع التي وثبتْ إلى عينيها، ثم في صَوت مرتجف: "لا بأس.. ليس بوسعنا أن نقوم الآن بالاختيار!".. وأسرعت صاعدة إلى مَخدعها، فألقت بالكتب على أرض الغرفة!.. وزاد فرارها هذا من غم "**رامش**" وكربه.

وقال "**أكشاي**" وهو مغتبط في قرارة نفسه: "إنك لا تبدو في حال طيبة يا "**رامش بابو**"، فغمغم "**رامش**" بكلمات لم يتبينها أحد.. ولكن "**أنادا بابو**" التقط ما ذكره "**أكشاي**" عن صحة "**رامش**"، وقال: "لقد حدست هذا -في نفسي- حين رأيته!" .. وهنا استطرد "**أكشاي**" قائلا، وهو يضحك في قرارة نفسه: "إن أمثال "**رامش بابو**" يرون من مظاهر الضعف أن يولوا صحتهم أي اهتمام.. إنهم يعيشون في آفاق الفكر، فإذا اختل جهازهم الهضمي ظنوا أن من المشين لهم أن يتحروا السبب!".

وشرع "**أنادا بابو**" في إلقاء محاضرة عن انتظام الهضم، وكيف أنه ضروري للفيلسوف، كما هو لأي إنسان آخر. وجلس "**رامش**" بين الرجلين، متحملا المضض من حديثهما في صمت. وما لبث "**أكشاي**" أن قال: "نصيحتي لك يا "**رامش بابو**" أن تتناول قرصا من أقراص "**أنادابابو**"، وأن تأوي إلى الفراش مبكرا!"، فقال "**رامش**" باقتضاب: "بل أريد أن أتحدث إلى "**أنادابابو**" في أمر انتظر الفرصة لمفاتحته فيه!" .. وهنا نهض "**أكشاي**" عن مقعده، واستأذن من رب الدار في الانصراف، قائلا: "عجبا لك!.. كان خليقا بك أن تنبئني مبكرا أن "**رامش بابو**" يجلس الساعات وهو يكتم ما بنفسه، ثم يلقيه على رأس المرء بعد فوات الأوان!".

وما إن خرج، حتى ثبَّت "**رامش**" بصره على مقدمة حذائه، وشَرَعَ يقول: "لقد كان من حظي يا "**أنادابابو**" أن حظيتُ بالتردد على دارك، وبأن أعامل كفرد من الأسرة.. وليس بوسعي أن أبيّن لك مدى اعتزازي بهذا!" .. فأجاب "**أنادابابو**": "هذا صحيح، فأنت صديق ابني "**جوجن**"، ومن الطبيعي أن نعاملك كأخ له!" .. وأحس "**رامش**" بشيء من الارتباك، كراقص بدأ في الرقص ثم نَسيَ الخطوة التالية، فقال "**أنادابابو**" يسرّي عنه الحرج: "الواقع إننا المحظوظون، إذ ظفرنا بشاب مثلك يا "**رامش**" نعتبره ابنا لنا!" .. ولكن هذا لم يلهم "**رامش**" شيئا، فاستطرد "**أنادابابو**" قائلا: "لعلك أدركتَ أن الأقاويل أصبحت تَقْرن اسمك باسم "همناليني"... والناس يقولون: إن على الفتاة أن تختار أصدقاءها في حذر فائق، إذا ما أدركتْ سن الزواج. ولكنني أرد على ذلك قائلا: "إنني أثق بـ"**رامش**" كل الثقة، فهو رجل، وما أحسبه يُغَرِّر بنا!".

"**رامش**": "إنك تعرف كل شيء عني يا "**أنادابابو**"، فإذا رأيتَني أهلا لـ"همناليني"، فـ....".

"**أنادا**": "لا تزد.. الواقع أن ذهني اتجه إلى هذا بالفعل، ولولا أنك كنت في حداد على أبيك، لفاتحتك أنا في الأمر.. أما الآن، فلم يعد ثمة داع لإرجاء الموضوع يا بنيّ.. إن الناس يتقولون، ولابد لنا من أن نقضي على مثل هذه التقولات في أقرب وقت ممكن... ألا ترى هذا؟".

"**رامش**": "الرأي رأيك.. على أن لابنتك القول الفصل في هذا بطبيعة الأمر".

"**أنادا**": هذا حق، ولكني أعتقد أنني أعرف ما سوف يتجه إليه رأيها.. ولسوف

نبحث الأمر في صباح غد، على أية حال، ونتخذ فيه قرارا حاسما".

"**رامـــش**" : "أخشى أن أكون قد استبقيتك طويلا، فيحسن بي الآن أن أستأذن في الانصراف".

"**أنـــــادا**" : "بل ابق لحظة.. ألا ترى من الخيـر أن يتم القـران قـبل رحـيلنا إلى "**جوبولبور**"؟".

"**رامش**" : "يخُيَّل إليّ أن المدة الباقية لا تتسع!".

"**أنـادا**" : "صحيح أنه لم يبق أمامنا سوى عشرة أيام، ولكن في وسعكما أن تتزوجا في يوم الأحد القادم، فيظل لدينا يوم أو يومان لنستعد للرحيل. ولعلك تدرك يا "**رامش**" أنني لا أستحثك على العجلة استغلالا لموقفك، ولكني في الواقع أتعجّل الأمر، حتى أتفرغ للاهتمام بصحتي!"

وأقر "**رامش**" قوله، وابتلع حبة من أقراص "**أنادابابو**". ثم انصرف!

الفصل الثالث عشر

– كانت عطلة مدرسة "**كمالا**" قد اقتربت، ولكن "**رامش**" اتَّفق مع الناظرة على أن تبقى الفتاة بالمدرسة خلال تلك العطلة. وفي الصباح التالي لحديثه مع "**أناداباـو**"، استيقظ مبكرا، وذهب إلى المحكمة، وعندما انتهى من قضاياه، سَلَكَ إحدى الطرق غير المأهولة، المفْضيَة إلى الميدان.. أهم ساحات "**كلكتا**". وواصل تفكيره أثناء مشيه، فانتهى إلى أن من الخير أن يُنْبئ "**همناليني**" بكل شيء عن "**كمالا**" قبل الزواج، على أن يشرح الموقف بأسره لـ"**كمالا**" فيما بعد. وبذلك يتسنى له تفادي أي سوء تفاهم. بل إن "**كمالا**" لن تلبث أن تجد في "**همناليني**" صديقة، وأن توافق على الإقامة مع الزوجين الشابين. وتوقع أن تثير إقامة ثلاثتهم معا بعض الأقاويل، إذا استقروا بين من يعرفونهم، ومن ثم قرر "**رامش**" أن ينزح مع الشابتين إلى مدينة "حظر يباغ"، وأن يمارس المحاماة هناك.

وما إن وصل "رامش" إلى الحي الذي يقيم فيه، حتى اتجه إلى دار "**أناداباب**"، فصادف "**همناليني**" على السلم. وكان مثل هذا اللقاء –في الظروف العادية– فرصة ينتهزانها ليندمجا في حديث ودّي. أما في هذه المرة، فقد تضرّج وجه "**همناليني**"، وأشرقت على وجهها بسمة خفية كأولى خيوط الفجر، ثم أسرعت بالانسحاب وهي تغضّ بصرها!.. رجع "**رامش**" إلى مسكنه، وراح يجري أصابعه على معزفه الصغير، محاولا أن يوقع اللحن الذي دربته "**همناليني**" على عزفه. ولكنه مالبث أن مل العزف، فتحول إلى أحد دواوين الشِّعْر. ولكنه أحسّ بأن الشعر الذي يرقى إلى آفاق غرامه السامية لم يخلق بعد!.. كذلك خيل لـ"**همناليني**" –في ذلك النهار– أنها تطير غبطة. ولم يجن منتصف النهار، حتى كانت قد فرغت من أعمالها المنزلية، فاعتكفت في مخدعها وانصرفت إلى التطريز والحياكة، وقد تألّق محيّاها الوادع بإشراقة من هناءة روحية شملت كل كيانها وكأنما اطمأنت إلى مصيرها في الحياة!

وقبل موعد الشاي المعتاد بفترة طويلة، طرح "رامش" عنه ديوان الشعر، وتحول عن معزفه الصغير، وأسرع إلى دار "أنادابابو". وكانت "**همناليني**" –في الظروف العادية– تَخفّ إليه دون ما تلكؤ. ولكنه ألفى الغرفة خالية، في عَصْر ذلك اليوم، إذ كانت "**همناليني**" قد لزمت مخدعها. ومالبث "**أنادابابو**" أن أقبل واستقر في مَجْلسه المألوف من مائدة الشاي. وظل "**رامش**" يتلفت إلى الباب في قلق.. وانبعث وقع قدمين، ولكنهما كانا قدمي "**أكشاي**" الذي بادر يهنئ "**رامش**" في وُدّ بالغ، هاتفا: "أهلا يا "**رامش بابو**".. لقد ذهبتُ إليك في مسكنك!".. وخامر "**رامش**" شيء من القلق، ولكن "**أكشاي**" ضحك قائلا: "ليس ثمة ما يزعج يا "**رامش بابو**"، إذ لم أكن أنتوي سوى كل خير.. فليس من شك في أن من حق أصدقائك أن يهنئوك بمناسبة النبأ الطيب.. وهذا ما دعاني لزيارتك"!

ونبه هذا القول "**أنادابابو**" إلى غياب "**همناليني**"، فناداها، ولكنه لم يتلق جوابا، ومن ثم صعد إلى الطابق العلوي يبحث عنها.. وصاح بها: "ما هذا يا هيم "اسم التدليل

لـ"**همناليني**"؟.. الا تزالين عاكفة على أعمال حياكتك؟.. إن الشاي معد، و"**رامش**" و"**أكشاي**"هنا".. فقالت وقد تضرجت وجنتاها بحمرة خفيفة: "أرجو أن ترسل لي الشاي هنا يا أبت، إذ لابد لي أن أفرغ مما في يدي!"..

– هكذا أنت دائما يا "**هيم**"!.. ما إن تبدي اهتماما بشيء، حتى تنسيْ كل ما عداه. فعندما كنت تتأهبين للامتحان، لم تكوني ترفعين أنفك عن كتابك. وها أنت ذي تنصرفين الآن إلى الحياكة، فتأبين أن تفعلي أي شيء آخر. لا، لا.. هذا لا يليق مطلقا!.. هيا!.. لابد أن تهبطي فتتناولي الشاي معنا!".

وأوشك أن يجرّها جرّا على درجات السّلم، حتى لانت أخيرا. واتجهت إلى مائدة الشاي مباشرة، وتظاهرت بالانهماك في صبّه في الأقداح، دون أن ترفع بصرها لتحيي الضيفين، فهتف بها "**أنادابابو**": "ما هذا الذي تفعلينه يا "**هيم**"؟ لماذا تضعين سُكّرا في قدحي وأنت تعلمين أنني لا أتناوله إطلاقا؟".. وضحك "**أكشاي**" وبدأ يمازحها قائلا: "إنها لا تستطيع أن تكبح سخاءها اليوم، فهي توزع الحلوى على كل إنسان!".. ولم يطق "**رامش**" أن يسمع "**أكشاي**" يُرضي روحه الساخرة على حساب "**همناليني**"، فقرر أن يحذف اسمه من قائمة أصدقائهما بمجرد زواجهما!

وبعد أيام قلائل، كانت مائدة الشاي تجمعهم مرة أخرى، حين قال "**أكشاي**": "خليق بك أن تبادر إلى تغيير اسمك يا "**رامش بابو**".. على أن تظرفه المتكلّف لم يزد "**رامش**" إلا كراهية له، فسأله في جفاء: "ولماذا؟"، فقال "**أكشاي**" وهو يبسط أمامه إحدى الصحف: "إليك النبأ.. لقد أوعز طالب يُدْعى "**رامش**" إلى طالب آخر بأن يؤدي عنه الامتحان، منتحلا شخصيته، وبذلك قُدِّر له أن ينجح، ولكن أمره افتضح في النهاية!". وكانت "**همناليني**" تدرك أن "**رامش**" ليس سريع البديهة في الرد على الدعابات الواخزة، فآلت على نفسها أن تتولى الرد. ومن ثم كظمت غيظها، واصطنعت اللطف وهي تقول: "إذا كان هذا قياسا، فخليق بكل "**أكشاي**" أن يكون نزيل السجون!".. وصاح "**أكشاي**": "واها لك!.. أحاول أن أقدم نصيحة ودية، فإذا بك تعتبرينها إهانة. حسنا، سأفضي إذن بما عندي.. إنكم لتعرفون أن أختي الصغرى "**سارات**"، تتردد على المدرسة العليا للبنات. ولقد جاءتني ليلة أمس قائلة: "أتعرف أن زوجة "**رامش بابو**" في مدرستنا؟"، فقلت لها: "يالك من غبية!.. أو تظنين أن ليس في الدنيا من "**رامش**" سوى صديقنا!". وإذ ذاك قالت: "أيا كان ذلك الشخص، فإنه غير حَفيّ بزوجته.. إن كل الفتيات سيرحلن إلى أهلهن في عطلة العيد، ولكنه اعتزم أن يبقي زوجته بالمدرسة. يا للمسكينة!.. إنها لا تكف عن البكاء!".. عندئذ قلت لنفسي: "هذا لا يصح.. كم من أناس خليقون بأن يظنوا ما ظنته "**سارات**" بسبب الاسم؟".

وقهقه "**أنادابابو**" قائلا: "الحق إنك مجنون يا "**أكشاي**"!.. كيف يغير "**رامش**" اسمه لمجرد أن "**رامش**" آخر ترك زوجته تبكي في المدرسة؟".. غير أن "**رامش**" امتقع فجأة، وأسرع يغادر الغرفة، فصاح "**أكشاي**": "ماذا جرى يا "**رامش بابو**"؟.. إلى أين تذهب؟..

هل أسأت إليك؟ ما أظنك تؤول قولي على أنني أرتاب فيك!" .. وهتف "**أناداباب**و" : "لماذا كل هذا؟" .. ولدهشته، انبثقت الدموع من عيني "**همنالينى**"، فصاح: "ما هذا يا "هيم"؟.. ما الذي يبكيك؟" .. قالت منهنهة: "ما كان يليق بـ"**أكشاي بابو**" أن يقول هذا يا أبت!.. كيف يُهين ضيفا في دارنا" .. فقال الشيخ: "إنما كان "**أكشاي**" يمزح، فلماذا تَحْملان كلامه على هذا المحمل؟" .. فقالت "**همناليني**" وهي تندفع صاعدة إلى غرفتها: "إنني لا أطيق هذا اللون من المزاح!" .

*****

– وكان "**رامش**" قد حرَص –منذ عودته إلى "**كلكتا**"– على ألا يدخر وسعا للبحث عن زوج "**كمالا**"، فكتب إلى خالها، المدْعو "**تاريني تشاران**". وقد وافاه الجواب في اليوم التالي للحادث السالف، إذ كتب إليه "**تاريني تشاران**" يقول: إنه لم يسمع أي نبأ عن "**نالينا كشا**" –زوج "**كمالا**"– منذ النكبة التي حاقت بموكب العُرْس. وإذا كان "**نالينا كشا**" طبيبا يمارس مهنته في "**رانجبور**"، فإن "**تاريني تشاران**" تحرَّى عنه هناك، ولكنه لم يعثر على أي نبأ عنه، فضلا عن أنه لم يكن يدري شيئا عن موطن أسرته.. ومن ثم استبعد "**رامش**" أن يكون زوج "**كمالا**" على قيد الحياة!

وتلقى "**رامش**" في اليوم ذاته عددا من الخطابات. فقد سمع بعض أقاربه نبأ زواجه المرتقب، فكتبوا يهنئونه. وطالبه بعضهم بان يقيم وليمة حافلة، بينما عتب عليه البعض الآخر –على سبيل المزاح– ان كتم عنهم أنباءه طوال هذه المدة. وفيما كان يَطّلع على هذه الرسائل، أقبل خادم من لدن "**أناداباب**و"، يحملُ إليه رسالة، فخفق قلبه في عنف، إذ تبين الخط الذي كتبت به!.. كان خط "همناليني". وقال لنفسه: "لم يكن يسعها سوى أن ترتاب في أمري، بعد الذي قاله "**أكشاي**".. وها هي ذي قد كتبت إليّ لتطمئن!" .. وفضّ الخطاب، فإذا به خبر موجز: "كان "**أكشاي بابو**" سمجا إلي درجة فظيعة بالأمس. لماذا لم تات في هذا الصباح؟ لقد ارتقبتك. لماذا تحفل بما قال "**أكشاي بابو**"؟ إنك لتعلم انني لا أعير حماقته أذنا. لابد أن تبكر في الحضور اليوم، ولن أتولى حياكة شيء، في انتظارك!" .. ولمس "**رامش**" خلال هذه السطور القلائل مدى الألم الذي عاناه قلب "**همناليني**" الرقيق، فترقرقت الدموع في عينيه. لقد كانت تصْبو من صميم فؤادها إلى أن تُريقَ من عواطفها بلسما على جرحه، ولابد ان هذه الرغبة لازمتْها طوال ليلها، فلما لم يُتح لها إرضاؤها في الصباح، لم تعد تَقْوى على كبح لهفتها، فنفثتها في هذه الرسالة.. كان الأمر جليا!

– وكان قد رأى في امسه ان لابد له من ان يصارح "همناليني" بحقيقة موقفه فوْرا، ولكن الحديث الذي صدر عن "**أكشاي**" جعل السبيل إلى المصارحة شاقا، لأنها ستبديه في مظهر المجرم الذي ضُبطَ متلبسا، فحاول التماس المبررات!.. فضلا عن أنها ستعزز موقف "**أكشاي**"، وفي هذا هوان لـ"**رامش**"!.. وخطر له ان "**أكشاي**" حدس –ولابد– أن زوج

"**كمالا**" رجل آخر يحمل اسم "**رامش**"، وإلا لما سكت كل هذه المدة، ولما اقتصر على إثارة الشكوك، بل لعمد إلى إعلان الأمر من فوق قمم البيوت!.. ودَعتْ هذه الخواطر كلها "**رامش**" إلى أن يَسْعَى ليتجنب المتاعب مؤقتا، بدلا من أن يخوضها!

وإذ بلغ هذا القرار، حمل إليه البريد رسالة جديدة، وعندما فضها ألفاها من ناظرة مدرسة البنات، وقد كتبت تقول له: "إن "كمالا" حزنت أبلغ الحزن لما قرره من بقائها في المدرسة خلال العطلة، ومن ثَمَّ فإن إدارة المدرسة لا يسعها أن تتحمل مسؤولية بقائها، وسترسلها إليه، فعليه أن يستقبلها في داره!.. وكان موعد هذه العودة يوم السبت، في حين أن زواجه كان مقررا يوم الأحد!.. وقطع عليه حَبْلَ تفكيره في هذه الأزمة، صوتُ "**أكشاي**" وقد أقبل يقول: "ألا اصفح عني يا "**رامش بابو**"!.. لو خطر لي أنك ستعتبر مثل هذه الدعابة العادية إهانة، لآثرت الصمت. إن الناس لا يكرهون المزاح إلا إذا انطوى على شيء من الحقيقة، أما وهذه الدعابة لا تقوم على أي أساس، فلست أدري ما الذي ساءكم جميعا.. إن "**أنادابابو**" ينحي عليّ باللوم منذ قلتها، و"**همناليني**" لا تخاطبني.. وقد ذهبت لزيارتهما في هذا الصباح فبارحتْ هي الحجرة بمجرد دخولي.. لماذا يتملككم كل هذا الغضب مني؟".

– لست في حلّ من أن أوضحَ لك الأمر في الوقت الحاضر، فأرجو أن تعفيني.. فضلا عن ذلك أن لديّ بعض المشاغل.

– آه!.. تدابير العرس!.. لعل رجال الموسيقى يطلبون بعض أجرهم مقدما.. أراك مشفقا على وقتك من أن يتبدد، لذلك لن أثقل عليك.. في رعاية الله.

وما إن انصرف "أكشاي"، حتى أسرع "رامش" إلى دار "**أنادابابو**" فإذا "**همناليني**" في غرفة الجلوس تنتظر، وقد توقعت أن يبادر إلى هذه الزيارة المبكرة. وكان القماش الذي تطرزه مُلْقَى على المائدة، بينما استقر المعْزَف الصغير على مقربة منها.. كانت تتطلع إلى أن تنعم ببعض الموسيقى، ولكنها في الواقع لم تكن تَبْغي النوع العادي من الموسيقى.. فهناك نوع آخر من الموسيقى لا تسمعه سوى الرّوح.. وقد تاقت إلى هذا النوع!.. وتراقصت على شفتيها ابتسامةُ واهنة حين دخل "**رامش**" الحجرة، ولكن هذه الابتسامة تلاشت حين بادرها قائلا: ؛أين أبوك؟".

– في حجرته. لماذا؟ أتريده في أمر ما؟ لن يلبث أن يهبط لتناول الشاي.

"رامش": "لابد لي من أن أراه فورا، لأمر مهم لا يحتمل إرجاء!"

"**همناليني**": "حسن جدا.. ستجده في غرفته".

وخرج "**رامش**". وساءلت الفتاة نفسها: أحقا هو أمر هام، عاجل؟.. أمر يرجأ من أجله كل ما عداه؟.. حتى الحب يضطر إلى الانتظار، ريثما يفرغ من هذا الأمر؟!.. وخُيِّل لـ"**همناليني**" أن صباح الخريف المشرق يتنهد في أسى، وهو يرى الأبواب الذهبية تُوصَد دون ذخيرته من الفرح والسرور!.. ونحَّت مقعدها بعيدا عن المعْزَف الصغير، وجلست إلى المائدة تطرز.. ولكن إبرة أخرى، خفية، راحت تخز قلبها.. واستغرق "**رامش**" في مهمته أمدا طويلا، فبدأ "الحب" يقلق ويتضرع!

الفصل الرابع عشر

– عندما دخل "رامش" غرفة "أنادابابو" وجد رب البيت مستسلما إلى إغفاءة في مقعده، وصحيفته على وجهه. على أنه سرعان ما استيقظ مجفلا حين سعل "رامش"، فأشار إلى الصحيفة، وشرع يحدث ضيفه عما ورد فيها من أنباء ازدياد الوفيات بسبب انتشار وباء "الكوليرا" في المدينة.. ولكن "رامش" اتجه إلى هدفه مباشرة، فقال: "إنني أرجو تأجيل عقد القران لبضعة أيام، إذ لديَّ مهمة عظيمة الأهمية!".

وطارت أنباء الوفيات في "كلكتا" من رأس "أنادابابو" أمام هذا التصريح المثير للدهشة، فحملق في "رامش" متسائلا: "ما الذي تعنيه يا "رامش"؟.. لقد أرسلتُ الدعوات!".

– تستطيع أن تكتب اليوم إلى المدعوين تنبئهم بأن الزواج أُرْجِئَ إلى يوم الأحد بعد التالي.

– إنك تذهلني يا "رامش"!.. إن إرجاء أمر كهذا ليس في سهولة إرجاء أية قضية في المحكمة.. فليس من الميسور أن تطلب التأجيل وتجاب إليه لمجرد أنه يروق لك. ثم ما هذا العمل العظيم الأهمية الذي يدعوك للتأجيل؟!

"رامش": "إنه جد مهم وعاجل، وليس بوسعي إرجاؤه!"

وتهالك "أنادابابو" في مقعده كشجرة أسقطها إعصار، ثم قال: "ليس بوسعنا نحن إرجاء القران!.. يا لفكرتك من بديعة.. رائعة!.. حسنا، بوسعك أن تفعل ما يحلو لك، وإني أترك لك أن توضح الأمر لأولئك الذين دعوناهم. وإذا سألني أحد، فسأقول له: لا أدري شيئا عن الأمر. إن الزوج أدرى بشؤونه، وسيخبركم عن الموعد الذي يروق له أن يتزوج فيه!".

وظلَّ "رامش" يحدق في الأرض، بينما استطرد "أنادابابو" قائلا: "هل فاتحت "همناليني" في الأمر؟".. فأجاب "رامش": "لا.. إنها لم تعرف بعد شيئا عنه!".

"أنادا": "بل يجب أن تعرف فورا.. فإن الزواج يعنيها كما يعنيك!".

"رامش": "رأيتُ أن أنبئك أولا".

فصاح "أنادابابو" مناديا: "هيم!... هيم!". وأقبلت "همناليني" قائلة: "نعم يا أبت!!"، فقال لها: "إن "رامش" يقول إن لديه عملا مهما، ووقته لا يتسع للزواج في الآونة الحاضرة!".. وامتقع وجه "همناليني"، واتجهت عيناها إلى وجه "رامش" في تساؤل. وما كان أي مجرم فوجئ ملطخ اليدْين بالدم، ليشعر ببعض ما خالج "رامش" إذ ذاك من شعور!.. ما توقع أن يزجي النبأ إلى "همناليني" بمثل هذا الأسلوب الجاف، فحدثته مشاعره بمدى الصدمة التي ترتبت على مثل هذا الإعلان غير المتلطّف. على أن السهم لا يرتد إلى قوسه إذا ما انطلق!... وقد أيقن "رامش" أن السَّهم أصاب قلب "همناليني".

ولم يعد من سبيل إلى تخفيف الحقيقة القاسية، إذ لم تكن هناك حيلة إزاء الواقع الذي يفرض تأجيل الزواج!.. لقد كان لدى "**رامش**" عمل مهم، يأبى أن يُفضي به.. هذه هي الحقيقة، فكيف تُصاغ في قالب ألطف؟.. ومالبث "**أنادابابو**" أن التفت إلى ابنته قائلا: "حسن.. الشأن شأنكما، وعليكما أن تنظرا فيما ينبغي فعله!".

ورفعت "همناليني" عينيها بنظرة تشبه شعاع الشمس الغاربة، حين يترامى على صفحة سماء مُكفهرةً، وقالت: "لست أدري عن الأمر شيئا يا أبت!"، وبادرت إلى مغادرة الحجرة، فالتقط "**أنادابابو**" صحيفته، وتظاهر بالانصراف إلى المطالعة، ولكنه في الواقع كان يقدح ذهنه. وظلَّ "**رامش**" ساكنا، دقيقة أو اثنتين، ثم نهض فجأة وخرج. وعندما ولج قاعة الجلوس الكبيرة، ألفى "**همناليني**" تقف عند النافذة، وهي تحدق في الطريق صامتة -كان ثمة سيل من الآدميين يتدفق في كل شارع وحارة، تدفق النهر إذا ما فاض، وقد أشرقتْ وجوه الناس جميعا، ارتقابا لعطلة العيد.

وتردَّد "**رامش**" إذ فكر في الوقوف بجانبها. وجمد لحظة عند الباب وأخذ يتأمل الفتاة الواقفة بلا حراك، يلفها ضوءُ الخريف المنساب من النافذة التي قامت كإطار أحاط بصورة قُدّر لها أن تلصق بذاكرته فلا تغيب عنها!.. كانت أدق ملامحها واضحة: قوْس خدها الرقيق، وخصلات شعرها المعقوص، والشّعيْرات الخفيفة المحيطة بعنقها، وبريق القلادة الذهبية، وانسدال ثوبها في أناقة عن كتفها اليسرى.. كل هذه الدقائق طبعت على صفحة ذهنه السقيم آثارا لا تُمحَى!.. ومالبثْ أن سعى نحوَها وئيدا.. ولكنها لم تفطن إلى حبيبها، بل راحت تمعن في تأمل المناظر التي كانت تتوالى على الطريق. وارتجف صوت "**رامش**" وهو يبدد الصمتَ قائلا: "أرى لزاما عليَّ أن أسألك صنيعا!".

وأحسَّت "**همناليني**" برنة الألم في صوته، فالتفتت إليه، وهتف "**رامش**": "لا تفقدي إيمانك بي!.. طمئنيني أنك لن تفقدي الثقة فيّ.. إنني لأشهد السماء على أني سأظل أهلا لثقتك!".. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يغفل فيها كل تكلّف في الحديث تقتضيه المجاملة!.. ولم يجسر على أن يضيف كلمة إلى ما قال، وإنما نشر الدمع غلالة على مقلتيْه، فتأمَّلتْه "**همناليني**" في إشفاق. وحين تفرَّستْ في وجهه، ذاب قلبها وانساب دمعها على وجنتيْها. وهكذا التقت نظرات الحبيبين خلال الدمع، وهما يقفان متجاوريْن لدى النافذة، في عزلة عما حولهما. ومع أنهما لم ينبسا بكلمة، إلا أن سكينة مطمئنة هبطت على قلبيهما، فتذوقا في عذوبتها طعم النعيم!

وبدد "**رامش**" الصمتَ بزفرة حرَّى، ثم قال: "أفتدرين لماذا رجوتُ تأجيل الزواج؟": فهزت "**همناليني**" رأسَها.. لم تشأ أن تعرف!.. وعاد "رامش" يقول: "سأنبئك بالقصة كلها بعد زفافنا!".. وبعث ذكر الزفاف حُمرة واهنة إلى وجنتيْ الفتاة!.. كانت "**همناليني**" -وهي تتأهّب لاستقبال "**رامش**"، في باكورة الأصيل من ذلك اليوم- قد ارتقبت بقلب مغتبط أن تحظى بحديث زاخر.. حديث خافت يتناول مشروعات

المستقبل، ويعرض صورا مصغرة للسعادة التي تنتظرهما.. وما كانت لتتصور مطلقا أنهما سيتبادلان في دقائق قلائل، العهود الخالدة، والدموع المراقة، وأنهما لن يتحدثا، بل سيقفان جنبا إلى جنب في صمت!.. ولا مرّ بخاطرها ما في راحة البال، والثقة المطلقة، من نعيم للقلب!

وقالت "**همناليني**" أخيرا: "يجب أن تذهب إلى أبي فورا، فهو لابد مستاء!".. وخرج "**رامـــش**" مرتاح الخاطر، متأهبا لأن يفتح صدره، غير حافل بأية طعنة قد يحلو للدنيا أن توجهها إليه!

الفصل الخامس عشر

– تَطلّع "**أنادا بابو**" في لهفة وقلق إلى "**رامش**"، إذ عاد إلى الغرفة، فقال الشاب: "إذا أسلمتني قائمة المدعوين فسوف أكتب لهم جميعا اليوم عن تعديل التاريخ".

– إذن، فانت مصمّم على التأجيل؟

– أجل، فليس من حيلة في ذلك!

"**أنادا بابو**": "حسنا، اسمع يا بني.. تذكر أنني أنفض يدي من الأمر كله. عليك أن ترتب كل شيء بنفسك، فإني أربأ بنفسي ان أجعلها أضْحوكة. وإذا كنتَ تريد أن تجعل من موضوع الزواج لونا من ألعاب الأطفال، فليس لرجل في مثل سنّي أن يزجّ بنفسه في الأمر. هاك قائمة بأسماء من دعوتُ. لقد أنفقتُ مبلغا كبيرا من المال، وسيذهب أكثره دون ما جدوى، ولكنني لن أقبل أن أبدّد نقودي هباء!".. فأكد "**رامش**" استعداده لأن يتحمّل كافة النفقات، وأن يقوم بكل التدابير. حتى إذا همَّ بالانصراف، قال "**أنادا بابو**": "هل استقرَّ رأيك على المكان الذي ستمارس فيه المحاماة بعد الزواج يا "**رامش**"؟.. ما أظنك ستبقى في "كلكتا"؟".

"**رامش**": "لا، بل أرجو أن أوفّق إلى مكان ملائم في الشمال".

"**أنادا بابو**": في الشمال؟.. هذه فكرة طيّبة.. فلا بأس بمدينة "**إيتاواه**" مثلا، إذ إن جوها من أنسب الأجواء للجهاز الهضمي!.. لقد قضيتُ مرة شهرا في ربوعها، فوجدتُ أن بوسعي أن آكل هناك ضعف ما آكل هنا. ولعلك تدرك يا بني أن الفتاة هي ابنتي الوحيدة، وأن أحدنا لن يسعدَ بعيدا عن الآخر، وهذا ما يحملني على أن أسألك أن تختار مقرا يلائم الصحة!".

أما وقد أساء "**رامش**" إليه بالتاجيل، فقد رأى "**أناداابو**" أن يَسْتغلّ الفرصة ليُملي بعض مطالب تروق له. وما كان "**رامش**" –فيما اعتراه في اضطراب البال– ليتردد في أن يوافق على النزوح إلى أبعد البقاع وأوعرها، بل إلى أقصى قمة تغيب في الضباب.. ومن ثم قال: "بديع جدا، سأنضم إلى محامي "**إيتاواه**"!... وخرج بعد أن أخذ قائمة أسماء المدعوين. وعندما انصرف، أقبل "**أكشاي**"، فعلم من "**أناداابو**" أن "**رامش**" قد أرجأ زواجه أسبوعا.

"**أكشاي**": "أحق هذا؟.. ليس له أن يُرجئ! كيف يفعل والموعدُ بعد غد؟".

"**أنادا**": "ما كان له أن يفعل ذلك.. إن الناس العاديين لا يُقْدمون على مثل هذا التصرف، ولكن كل شي جائز لديكم يا رجال اليوم!".

وتظاهر "**أكشاي**" بالاستياء والوجوم، بينما انطلق ذهنُه يعمل في سرعة. ثم قال أخيرا: "إنك تغمضُ عينيْك عن كل الاحتمالات، حين تخال أنك وجدتَ زوجا صالحا لـ"**همناليني**". خليقٌ بكل أب أن يستوثق من كل أمور الرجل الذي سيعهد إليه بابنته بقية

عمرها. ما ينبغي أن تستغني عن الحذر، ولو إزاء ملاك يهبط من السماء!".

"**أنادا**" : "إذا لم يكنْ شابٌّ –مثل "**رامش**"– بمَنْجًى عن الريب، فليس في العالم شخص يمكن الركونُ إليه!".

"**أكشاي**" : "هل أدلى إليك بسبب للإرجاء؟".

فقال "**أنادا بابو**" وهو يفرك يديْه: "لا، لم يُدْلِ إلينا بسبب. كل ما قاله، حين سألته، هو أن لديه عملا مهما".. فأشاح "**أكشاي**" ليخفي ابتسامة خبيثة، وقال: "إذن، فلعله كاشف ابنتك بالسبب؟".

"**أنادا**" : "أظنه فعل".

"**أكشاي**" : "ألا يحسن بك أن تدعوها وتستوثق منها؟".

فقال "**أنادابابو**" : "أجل!"، ثم صاح مناديا "**همناليني**"، فلما أقبلتْ ورأتْ الشخص الذي كان معه، تعمدت أن تجلس خلف أبيها، بحيث لا يُتاح لـ"**أكشاي**" أن يرى وجهها. وسألها "**أنادابابو**" : "هل أبدي لك "**رامش**" سببا لإرجاء الزواج؟".. فهزت "**همناليني**" رأسها، قائلة: "لا!".. وعاد يسألها: "أو لم تسأليه؟"... فقالت. "لم أسأله!".

"**أنادابابو**" : "ياله من أمر عجيب!.. ويالكما من زوجين!.. إنه يأتي فيقول: "إن وقتي لا يتسع للزواج"، فتبادرين قائلة: "لا بأس، لنتزوج في أي يوم آخر".. ثم تهملان الموضوع!".

وتظاهر "**أكشاي**" بالانحياز إلى صف "**همناليني**"، فقال: "لا تنس أن المرء ينبغي ألا يلح على شخص يبين بوضوح أنه غير راغب في إبداء أسبابه!".. ولو كان السبب مما يمكن الإفضاء به، لباح لكما به "**رامش**" من تلقاء نفسه!" احتقن وجه "**همناليني**" غيظا، وقالت: "لا أحب أن أسمع رأي طرف ثالث في هذا الموضوع، فأنا شخصيا مقتنعة بالأمور في أوضاعها الراهنة!".. وأسرعت تغادر الحجرة.

واكفهرَّ محيّا "**أكشاي**"، ولكنه اغتصبَ ابتسامة، وقال: "هكذا الدنيا.. إذا حاولت أن تؤدي لصديق خدمة، كان التقريع جزاءك!.. إن هذا يوضح لك أن الصداقة أمر لا قيمة له. على أنني أرى من واجبي كصديق أن أُعربَ عن ارتيابي في "**رامش**"، ولو كرهتموني وأسأتم إليّ من أجل هذا.. فليس لي أن أقف مكتوفَ اليدين إذا رأيت المتاعب تتهددكم.. إنها نقطة ضعف في نفسي!.. وعلى أية حال، فسوف يحضر "**جوجندرا**" غدا، فإذا سمع القصة كلها، ولم يجد ما يدعوه للقلق من أجل أخته، فلن أنبس ببنت شفة!".

وأدرك "**أنادابابو**" أن هذه كانت اللحظة المناسبة –من الناحية النفسية– ليسأل "أكشاي" عما يعرفه من مسلك "**رامش**". ولكن الذي يحاول أن يخرق سرّا غامضا، قد يفتح ثغرة لإعصار يجتاحه هو!.. وكان الشيخ المسن يكره هذا بطبعه، ومع ذلك، فإنه لم يتمالك أن قال: "إنك كثير الوساوس يا "**أكشاي**"!.. إذا لم يكن لديك دليل، فلماذا...؟".. وكان "**أكشاي**" قديرا على كبح زمام نفسه، ولكن هذا التعريض أثاره،

فانفجر قائلا: "اسمع يا "**أنادابابو**"... إنك تستفزّ كل حوافز الشر في نفسي!.. إنك تُوحي بأنني أكنُّ للزوج المرشح لابنتك ضغينة، وإنني أثيرُ الريب حول رجل بريء. إنني لست من البراعة بحيث أحذق تعليم السيدات الفلسفة، ولا أزعُمُ لنفسي القدرة على الحديث معهنّ في الشّعر.. ما أنا إلا إنسان عادي، ولكنني كنت دائما محبّا ومخلصا لك ولأسرتك. وإذا لم أكن ندّا لـ"**رامش بابو**" في شيء، إلا أنني افخر بأني ما كتمتُ عنك شيئا ما. إنني قادر على أن أتملقك، وأنال منك ما أطمع فيه، ولكنني لا أجسر على أن أسرق بيتك... ولسوف تعرف غدا ما أرمي إليه!".

الفصل السادس عشر

– أقبل الليلُ قبل أن يفرغ "رامش" من إرسال جميع الخطابات. ومالبث أخيرا أن أوى إلى مضجعه، ولكنه لم يستطع أن ينام. فقد أخذ تياران من الأفكار يتدفقان على ذهنه: أحدهما صاف، والآخر عكر.. تماما كنهري "الجانجز" و"الجومنا"!.. واختلط التياران فأقضا مضجعه، ومن ثم راح يتقلب يمنةً ويسرة لفترة من الزمن. ولم يلبث أن طرح عنه الغطاء وهبّ واقفا، ثم سار إلى النافذَة وأطلّ خلالها. كانت المنازل القائمة على أحد جانبي الطريق منزوية في الظّلال، بينما كانت زميلاتها القائمة على الجانب الآخر تسبح في فيض من أشعة القمر الزاهية. وظل "رامش" واقفا، مستسلما لأفكاره. ونضا عنه أوشاب الوسط المادي المحيط به، وما يسود هذا الوسط من كفاح وعدم استقرار، فخيل إليه أن نفسه تنطلق محلقة في عوالم لا نهاية لها ولا حدود، حيث الخلود، والطمأنينة الشاملة!.. وتمثل في خياله رُؤَى: الميلاد والموت، والعناء والراحة، البداية والنهاية، وهي تتوالى دون انقطاع على مسرح اللانهاية، على أنغام الموسيقى السحرية اللادنيوية، المنبعثة من جوف الصّمت والسكونِ، دون أن يبدو لموكبها نهايةٌ وراء أستار هذا المسرح!.. ومن هذه اللانهاية التي لا نور فيها ولا ظلام، أبصر "رامش" بتوأمين عاشقين –رجل وامرأة– يبرزان إلى هذه الدنيا التي كانت تبدو لعينيه تحت أضواء النجوم!.. وكان التوأمان: هو، و"همناليني"؟

وصعد الهوينا إلى سطح الدار، فاتجهت عيناه إلى بيت "أنادابابو" لم يكن يعكر السّكونَ أيُّ صوت، وكان ضوءُ القمر والظلال يؤلفان نسيجا نشراه على جدران البيت، وتحت الأجزاء البارزة منه، وفي زوايا الأبواب والنوافذ وعلى حافة السطح.. ما كان أبهاه من منظر!.. كان يُقيم في هذا البيت غير الشامخ –في قلب المدينة الهاجعَة– كائنٌ رائع، تقمَّص في تواضع جسد طالبة!.. ولقد كانت المدينة الكبيرة تزخر بأفواج من أمثال "رامش".. من محامين، وطلبة، وأجانب، ومواطنين، فلماذا اختير هو بالذات، من بين هذه الأفواج، ليؤثَر دون الآخرين بالسر القدسيّ؟.. لماذا اختير هو بالذات –دون سواه– ليقف في النافذة مع هذه الفتاة، جنبا إلى جنب، وفي أشعة شمس الخريف المحتضرة، يشهدان معا الخلائق تطفو في بحر لا نهاية له من الأسرار الخفية، البهيجة؟!.. كانت معجزة، وأية معجزة!.. معجزة غيَّرت أعمق أغوار نفسه، كما أبدلت الكون المحيط به!

ومضى يذرع سطح داره، حتى اكتهل الليل، وتوارى القمر خلف البيت المقابل جانحا إلى المغيب. وجثمت الظلمة على الأرض، وإن ظلت القبة الزرقاء بوهج الضياء الذي عانقها مودّعا!.. وارتعشت أوصال "رامش" لفرط البرد، وداهمه خوف مباغت اعتصر قلبه.. كان عليه أن يخوض المعركة في غده.. في ميدان الحياة!.. ولم يتغضَّن في وجه السماء خط واحد ينم عن همّ، ولا تثنت غلالة ضوء القمر تحت أية حركة تشي بالقلق، ولا عكرت سكونَ الليل نامة، بل إن الحركة الأزلية الذائبة، التي تنتظم الكون بكواكبه التي لاعداد

لها، لم تنل من السبات الشامل الذي ران على الوجود، فإذا كل شيء قد أخلد إلى راحة مُطْمئنّة، عدا الإنسان في كفاحه القلق!.. فإن الحياة الإنسانية تمضي في صراع لايهن مع الطوارئ غير المرتقبة!

كانت الطمأنينة الأبدية -طمأنينة اللانهاية السرمديًة- تقف في جانب، والصراع الأبدي الدنيوي يقف في الجانب الآخر... فكيف تظل الحالان على قيد البقاء، جنبا إلى جنب؟!.. وعلى الرغم من العقبات والمتاعب التي كانت تشغل بال "رامش"، فإنه راح يفكر ويستنتج، محاولا أن يفسر هذا اللغز الذي استعصى على كل حال!.. لقد كان من حظه، أن آثره القدرُ بلمحة رأى فيها طيف "الحب" في السّكينة السرْمديّة التي لا حدً لها.. السكينة التي تشمل أحشاء الخليقة والكون!.. وها هو ذا في جوْف الليل يشهد "الحب" في ارتباطه بالدنيا، يمضي متعَثّرا، ويُداس بالأقدام في زحمة الحياة وتدافعها.. فأي الصورتيْن تمثل الحقيقة. وأيهما من نسْج الوهْم والخيال؟!

الفصل السابع عشر

– عاد "**جوجندرا**" –شقيق "**همناليني**"– من الريف بقطار الصباح في اليوم التالي.. يوم السبت السابق على الأحد الذي كان محددا لزواج "**همناليني**" ومع ذلك، فإنه لم يلمح –وهو يقرب من البيت– أية إشارة تنم عن الاحتفال المقبل، فلا عقود من الأوراق الخضراء معلقة في الشرفة.. بل ولا شيء على الإطلاق يميز البيت عن غيره من البيوت الكئيبة، المغبّرة، التي كانت تجاوره، وحدس –وهو مُوجس– أنه لن يلبث أن يسمع عن مرض مفاجئ، بيد أنه حين اندفع إلى داخل الدار، لم يلمح ما يشي بشيء من هذا القبيل، بل وجد طعاما مهيأ احتسى حوالي نصفه. وهتف "**جوجندرا**" وهو يلج الغرفة: "هل "**هيم**" بخير؟".

"**أنادا بابو**": "إنها في خير حال".

"**جوجندرا**: "وما أنباء الزواج؟"

"**أنادا بابو**": "سيعقد في يوم الأحد بعد القادم".

"**جوجندرا**": "ولماذا أرجيء؟".

"**أنادا بابو**": "يحسن بك أن تسأل صديقك. كل ما قاله لنا "**رامش**"، هو أن لديه عملا مهما، وأن الزواج لا يمكن أن يعقد يوم الأحد!".

وسخط "**جوجندرا**" –في نفسه– على ما أبداه أبوه من تساهل، وقال: "أى أنكم تهملون كل شيء يا أبت، عندما لا أكون هنا... أي عمل مهم هذا الذي تعلل به؟.. إنه يمارس مهنة حرة، كما أنه لم يَعُدْ ذو أقارب يتقيد بهم.. وإذا كان قد تورط في مأزق أو عمل، فلست أرى ثمَّة ما يمنعه من أن يُفضي إليك بالأمر. فلماذا سكتَ عن مناقشته؟".

– إنه لم يهرُب من المدينة، على أية حال!.. فخليق بك أن تذهب وتناقشه بنفسك.

وأفرغ "**جوجندرا**" في جوفه كوب شاي، ثم اندفع خارجا، فصاح "**أنادا بابو**": "انتظر يا "**جوجن**".. فيم هذا التعجّل منك؟ إنك لم تأكل شيئا!".. ولكن "**جوجندرا**" كان قد غادر الدار، واندفع إلى البيت المجاور، ووثب مجتازا درجات السلّم، مناديا: "**رامش**"!.. "**رامش**"!.. ولكنه لم يعثر على أثر لـ"**رامش**"، رغم أنه بحث عنه في غرفة النوم، وحجرة الجلوس، وعلى سطح الدار، وفي الطابق الأرضي. وبعد أن طاف بأعلى البيت وأسفله، عثر على الحارس فسأله عن مخدومه. وكان الجواب: "لقد رحل مبكرا!". وعاد يسأله: "ومتى يعود؟".. فأخبره الحارس بأن "**رامش**" حمل معه قدرا من الثياب، وقال: "إنه قد لا يعود قبل أربعة أيام أو خمسة.. أما أين ذهب فهذا ما لم يكن الحارس يعرفه!

وعاد "**جوجندرا**" إلى مجلسه من المائدة في داره، وهو عابس مَهْموم، فسأله "**أنادا بابو**": "أي حظّ أصبت؟".. وقال الابن محنقًا: "ما الذي تتوقعه؟.. ها هو ذا رجل يوشك أن يتزوج من ابنتك، ومع ذلك فإنك لا تهتم بتصرفاته وتنقلاته، رغم أنه يسكن المنزل

المجاور!" .. فقال "**أنادا بابو**": "لقد كان في داره ليلة أمس" .. فصاح "**جوجندرا**": "ومع ذلك لم تكن تعلم بأنه راحل، ولا حارس داره يعلم أين ذهب! .. إن في الأمر ما يريب . لست مرتاحا يا أبت لهذه الظواهر، فكيف تقبل الأمر بمثل هذا الهدوء"؟ .. وإزاء هذا اللّوم، بدأ "**أنادا بابو**" يفطن إلى الموقف، فتساءل وهو يبدي المظهر الجدّي الذي يتطلبه الظرف: "ترى ما معنى هذا؟" .

*****

– والواقع أن "**أنادا بابو**" تساهل في الليلة السابقة مع "**رامش**"، فتركه ينصرف دون أن يناقشه الحساب. ولكن الشابّ –من ناحيته– لم يفطن إلي هذا التساهل لجهله بمثل هذه الأمور، فظن أن مجرد الاعتذار بأن لديه عملا مهما يضطره إلى إرجاء الزواج، كان كافيا .. كان عذرا يتيح له كامل الحرية في التصرف!

وتساءل "**جوجندرا**": "أين "**همناليني**"؟"، فأجاب "**أنادا بابو**": "لقد تناولت الشاي في هذا الصباح مبكرة عن الموعد المعتاد، ثم صعدتْ إلى غرفتها" .. وهتف "**جوجندرا**": "يا للمسكينة! .. ما أراها إلا في خزْي بالغ من مسْلك "**رامش**" الغريب، وهذا هو السرّ في أنها تتفادى مقابلتي!" .. وصعد إلى الطابق العلوي ليسرّي عن أخته خجلها وهمّها. وكانت "**همناليني**" وحيدة في حجرة الجلوس، فلما سمعتْ وقع قدميْ "**جوجندرا**"، أسرعت فالتقطت كتابا وتظاهرت بالقراءة، حتى إذا دخل، طرحت الكتاب جانبا ونهضت تحييه في بشر هاتفة: "أهلا بك، متى جئت؟ .. إنك لا تبدو على ما يرام!" .. فصاح "**جوجندرا**" وهو يلقي بنفسه على مقعد: "وكيف أكون على مايرام؟ .. لقد بلغني كل شيء يا "**هيم**"! .. ولكن، لا تبتئسي، فما جرى الذي جرى إلا لأنني لم أكن هنا، على أنني سأعيد كل شيء إلى مجراه .. وبهذه المناسبة، هل أبدى لك "**رامش**" أية أسباب؟" .

وألقت "**همناليني**" نفسَها في موقف حرج .. وضايقها الشك الذي بدا من "**أكشاي**" ومن "**جوجندرا**"، وأوجست من أن تصارح أخاها بأن "**رامش**" لم يُدْل إليها بسبب يبرّر إرجاء الزواج. على أنها في الوقت ذاته أبت أن تكذب؟ .. لذلك ما لبثت أن أجابت: "لقد كان على استعداد لأن يبدي الأسباب، ولكنني لم أر داعيا لذلك!" .. فقال "**جوجندرا**" في نفسه: "محض كبرياء! .. هذه شيمة النساء!" .. ثم قال بصوت مرتفع: "حسنا، لا تبتئسي! .. سأحمله على أن يجهر بأسبابه قبل أن ينتهي هذا اليوم!" .. فقالت في غير اكتراث، وهي تقلب صفحات الكتاب الذي كان في حجرها: "ولكني غير مبتئسة! .. ولا أريد أن أضايقه بالإلحاح في طلب الأسباب" . وعاد "**جوجندرا**" يقول لنفسه: "الكبرياء مرة أخرى!" .. ثم قال لها: "حسنا، لا داعي لأن تشغلي بالك بهذا الأمر" . وهمَّ أن ينصرف، فنهضت "**همناليني**" عن مقعدها، وقالت: "أرجو ألا تقول له شيئا بهذا الصدد. لتظنوا جميعا ما شاءت لكم الظنون، ولكني –شخصيا– لا أرتاب فيه مطلقا!" .

وبـدا لـ"**جـوجندرا**" أن الأمر ليس مجرد مظهر تمليه الكبرياء. ولكن حبه لأخته سيطر عليه، فابتسم وهو يقول لنفسه: "إن هؤلاء المتعلمات لا يفقهن شيئا من أمور الدنيا.. فهي قد تعرف الكثير مما تعلمته في الكتب، ولكنها في المواقف التي تثير الريب تبدو ساذجة كالطفلة!".. وقارن بين ما كانت تظهر من ثقة خالصة، وبين ما بدا أنه خداع من "**رامش**"، فإذا قلبه يقسو على الشاب، وإذا عزمه على أنه يضطره إلى إعلان "أسبابه" يشتد. ونهض مرة أخرى متأهّباً للانصراف، ولكن "**همناليني**" أسرعت تمسك بذراعه قائلة: "عدْني بألا تنبس بكلمة لـ"**رامش**" في هذا الصدد!"، فأجابها: "سأفكر في الأمر".

– إن الأمر لا يحتاج إلى التفكير.. عدني قبل أن تنصرف. أؤكد لك أن ليس ثمَّة ما يدعو للقلق. لست أسألك أكثر من هذا الرجاء!

وأقنعه إصرارها بأن "**رامـش**" ولابد قد أوضح لها موقفه تماما، ولكن هذا لا يعني أن الإيضاح كان صادقا، فما كان من العسير خداعها بأية قصّة مُفتراة. ومن ثَمَّ تحوّل "**جوجندرا**" إليها قائلا: "اسمعي يا "**هيم**".. ليست المسألة مسألة ارتياب في شخص، وإنما هي واجبٌ لابد من أن يؤديه أولياء أمر الفتاة المقْدمة على الزواج. ربما كان "**رامـش**" قد أفضى إليك بإيضاح تؤثرين أن تكتميه، ولكن هذا لا يكفي.. بل عليه أن يبرّر الموقف لنا. وإذا شئت الحق يا "**هيم**"، فإن الإصرار على طلب الإيضاح أصبح من شأننا، في هذه المرحلة، وليس من شأنك أنت، على أننا لن نملك أن نتدخل في شؤونكما إذا ماتزوجتما!".

وأسرع مغادرا المكان. لم يتبقَّ خيط من القناع الذي يلتمس العشاق أن يستروا وراءه شؤونهم عادة!.. وغدتْ الرابطة بين "**رامش**" و"**همناليني**" عرضة لقذائف من "دخلاء" غير مشفقين.. تلك الرابطة التي كانا يأملان –في غمرة الوجد– أن تنمو حتى تخلق لهما عالما خاصا بهما!.. وأقلقت "همناليني" بوادرُ العاصفة التي خيمت على حياتها، حتى إنها أصبحت تعاف مقابلة الأهل والأصحاب. وما إن بارحها "**جوجندرا**"، حتى تهالكت في مقعد، وقضتْ فيه بقية نهارها مختلية بنفسها في غرفتها.

أما "**جوجندرا**"، ففيما كان يغادر المنزل، التقى بـ"**أكشاي**" الذي حياه قائلا: "أهلا بك يا "**جـوجن**".. هل وصلت أخيرا؟.. هل سمعتَ بالنبأ؟.. ما رأيك في الأمر كله". فقال "**جـوجندرا**": "لقد فكرتُ فيه طويلا، ولكني لن أقنع بالكلام وبالقيام بحركات لا نفع من ورائها. إن الوقت لا يتسع للجلوس إلى مائدة الشاي، ومناقشة افتراضات وعُقَد نفسية!".. فقال "**أكشاي**": "وأنا أيضا لا أستسيغ هذا المسلك كما تعلم، فلستُ ممن يؤمنون بعلم النفس، ولا بالفلسفة والشّعر. إنني رجل عمليّ.. وهذا ما جئتك بصدده!".. وعقب "**جـوجندرا**" في تحمس نزق، بقوله: "حسنا، أنا الآخر أفضل العمل.. فهل تستطيع أن تعرف أين ذهب "**رامش**"؟".

– أجل.

– أين؟

قـال "**أكـشـاي**" : "لن أقول لك، ولكنني سأجمعك به في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم" ... فسأله "**جـوجندرا**" : "ولماذا لا تنبئني بجليّة الأمر؟.. إنكم جميعا تتكتمون ما لديكم بدرجة مثيرة.. لقد غبتُ أياما لأستجم، فما إن أوليتكم ظهري، حتى بدأت الألغاز الرهيبة تقفز في كل مكان. قل يا "**أكشاي**"، فلا داعي للتكتم!.. تكلم يا رجل!".

"**أكـشـاي**" : "يسرني أن أسمعك تتكلم بهذه اللهجة، فما أغضب القومَ مني إلا أنني كنت صريحا، فإذا أختك تأبى أن تراني، وإذا أبوك يتهمني بأنني فطرتُ على التشكك والاستـرابة، وإذا "**رامش بـابو**" لا يطرب للقائي.. لم يَبْقَ سواك، وأخشى أن يصيبك ما أصابهم!.. على أنك لست ممن يحبون اللجاج في الجدل، وإنما أنت ممن يؤثرون العمل. ولكنني لم أوت البنيان الجسدي الذي يرشحني لأن أكون صنْواً لك".

"**جوجندرا**" : "دعك من هذا الأسلوب الملتوي يا "**أكشاي**".. إنني لأوقن بأن لديك ما يهمني، فلماذا تتكتمه وتحيّرني؟.. إليّ بالحقيقة.

"**أكـــشـــاي**" : "حسنا، سأروي لك القصة من البداية، فسوف تجد أن معظمها جديد عليك!"

الفصل الثامن عشر

- لم يكن أَجَلُ العقد الذي استأجر به "رامش" مسكنه في حي "دار دجبارا" قد انتهى، لا ولا خطر للشاب أن يُؤجِّر المسكن من الباطن. فقد كان -في الأشهر الأخيرة- يعيش في دنيا لا تثقله فيها الاعتبارات المالية. وكان لابد لـ"كمالا" من مأوى إذا ما غادرت المدرسة، ومن ثم فقد ذهب إلى ذلك المسكن عندما طلع نهار يوم السبت، فأشرف على تنظيفه، وجهزه بالحصائر، والحشيات والأغطية، وملأ مطبخه الخالي. وانقضتْ بضع ساعات بين استكمال هذه الاستعدادات، وبين وصول "كمالا"، قضاها "رامش" مضطجعا على أريكة خشبية، يفكر فيما يدخره له المستقبل. ولم يكن قد زار مدينة "ايتاواه" من قبل، ولكن مدن الشمال الغربي كانت متشابهة، ومن ثم لم يكن من العَسير عليه أن يستعرض بعين الخيال صورة للبيت الذي سيتخذه فيها: "فيلا" في أحد أطراف المدينة، على حافة طريق بريّة تحف بها الأشجار، وتمتد أمامها -على الجانب الآخر للطريق- مساحة شاسعة من الأرض المحروثة، تتناثر في أرجائها الآبار، والمنصَّات التي يجلس عليها الحرَّاس ليطردوا الطيور والحيوان عن المحصولات الناضجة.. ويتردد في الجو بلا انقطاع أزيز السواقي، والثيران الصبور عاكفة طيلة النهار على إدارتها لترفع المياه اللازمة لري الحقول.. وبين الفيْنة والفيْنة، يندفع في الطريق جواد يثير سحبا من الغبار، ويبدد صليل عنانه السكون الذي يرين على الجو القائظ!.. وأشْفَقَ إذ تصور أوقات الأصيل الوادعة التي ستقضيها "همناليني" وحدها، في "الفيلا" المنعزلة -المحوطة بكل ما يقيها من الحر اللافح- منهمكة في رعاية منزلها.. لا، ما كان ليقضيَ على زوجته بالحياة في مثل هذا الوسط إلا إذا كانت "كمالا" إلى جوارها!

واستقر رأيه على الا ينبئ "كمالا" بشيء إلا بعد الزواج.. فإذ ذاك ستسعى "همناليني" إلى اكتساب ودّ "كمالا"، ولن تلبث أن تكشف لها -في حنان- عن حقيقة حياتها، وأن تبصرها بالشباك التي نسجها القدرُ ليربطها إلى حياتهما!.. ولسوف ترى "كمالا" نفسها بمنأى عن موطنها، وقد حُرِمَتْ من الأهل والمعارف، فلا تلبث أن تستقر في المكان المخصص لها من الأسرة، دونما أسى ولا صدمة مضعضعة!

*****

وسادت الحارةَ سكينةُ الظهيرة، إذ كان العمال قد غادروا أعمالهم، وتأهب "أصحاب الفراغ" للقيلولة، ولاح أن نسَمات مبكرة من الشتاء المقبل قد تسربتْ لتخفف من وقدة الحَرّ. ولم يكن ثمَّة ما يشغل "رامش" عن الاستغراق في رسم صورة السعادة التي تنتظره، فأخذ يُضْفي عليها الألوان في سخاء!.. ولم يلبث أن بدد صفوَ أحلامه ضجيجُ عجلات،

فإذا بمركبة كبيرة تتجه إلى باب داره فتتقف عنده. وأدرك أنها ولابد عربة المدرسة تقل "**كمالا**"، فتسارعت دقات قلبه. تُرى كيف يستقبل "**كمالا**"؟ وأية موضوعات مشتركة تصلح للحديث بينهما؟ وكيف سيكون مسلكها نحوه؟.. كانت هذه الأسئلة كفيلة بأن تثير اضطرابه، فأحسّ بأنه لا يقوى على مواجهة الموقف وهو متمالك نفسه!.. وكان خادماه ينتظران أمام باب البيت، فأقبلا أولا، وقد حملا حقيبة "**كمالا**" الضخمة فوضعاها في الشرفة. وجاءت "**كمالا**" في أعقابهما، حتى إذا بلغتْ مدخل الغرفة، توقفتْ. فهتف بها "**رامش**": "تعالي يا "**كمالا**"!".

وغالب شعورا طارئا من التردد، ثم ولجت الغرفة. كان "**رامش**" قد اعتزم أن يتركها في المدرسة خلال العطلة، وقد كلفها هذا الإهمال الجلي منه لشأنها، دموعا غالية.. واختلطت هذه الذكرى بما كان بينهما من فراق طويل، فخلفا في نفسها شيئا من الوحشة. ومن ثَمَّ فقد تحاشت أن تتطلّع إلى "**رامش**" بعد دخولها الحجرة، وظل بصرُها عالقا بالباب المفتوح. وبدا له شكلها غريبا عنه بدرجة أذهلته.. فلقد اعتراها تغيّر عجيب خلال هذه الأشهر القلائل، فإذا بها قد نمت كالغصن الصغير.. ولكنه كان غصنا ضعيفا، إذ غابت عنها نضرة الصحة التي كانت تتجلى على أعضاء جسمها.. الجسم اليافع الذي لم يستكمل تناسقه. وفقد وجْهُهَا استدارته الطافحة بالشباب، وبرزت عظام وجهها، وغارت وجنتاها وعيناها، وانحسر التورد عن خديها فكسَتهما صفرة واهنة، وغاب مرحها وخفة حركاتها!

وظلَّت -بعد دخولها- واقفة، منتصبة القامة، وضَوْء أصيل الخريف يترامى من النافذة المفتوحة على محيّاها. وكان راسها عاريا، وجدائل شعرها المضفورة بشريط أحمر تتدلى على ظهرها.. وقد التف بإحكام حول جيدها - الذي لم يستكمل نموه - ثوبٌ من الصوف ذو لون مائل إلى الصّفرة. ولبث "**رامش**" يحدق فيها بضع لحظات، وهو صامت. لم يكن قد تبقى في ذاكرته من جمالها -خلال الأشهر القلائل الماضية- سوى صورة باهتة. أما الآن، فقد أضفى التغير الذي طرأ عليها، رونقا على هذا الجمال، مما أحدث أثرا عميقا في نفس "**رامش**"، فالفى نفسه عاجزا عن مقاومة فتنتها.. وقال لها: "اجلسي يا "**كمالا**"، فجلست دون أن تنبس ببنت شفة. وعاد يقول: "كيف حالك في المدرسة؟"، فأجابت باقتضاب: "بخير!".

وأخذ "**رامش**" يعْصر ذهنه، بحثاً عن شيء يقوله. وأخيراً، خطرت بباله فكرة، فقال: "أظنك لم تتناولي طعاما منذ ساعات. هناك طعام مهيّأ لك، فهل آمر بإعداد المائدة؟".. فأجابت: "لا، شكرا لك.. لقد أكلتُ قبل أن أبدأ الرحلة!".. وعاد يسألها: "أولا تأكلين شيئا؟.. هناك بعض الفاكهة.. تفاح، ورمان، وبعض الحلوى".. ولكن "**كمالا**" اكتفت بأن هزت رأسها رافضة. وعاد "**رامش**" يتامل وجهها.. كانت تحدّق في بعض صور كتاب المطالعة الإنجليزية -الذي كانت تحمله- وقد مالتْ براسها إلى الأمام قليلا. والوجه الجميل، كالمغناطيس، يجتذب كل جمال في الوسط الذي يحيط به! فقد لاح ضوء الشمس الجانحة

إلى المغيب، وكأنه استحال -حين مس وجه الفتاة- إلى كائن حساس!.. بل كان نهارُ الخريف تَبلوَر -لوجودها- فاتّخذ شكلاً وقالباً. فقد خُيِّل لـ"**رامش**" أن الفتاة تشدّ إلى فلكها السماء، والهواء، والنور، وكل ما يحيط بها -كما تشد الشمس الكواكب التي تدور في فلكها- فإذا كل هذه الأشياء تتشكل بشكلها وهي جالسة صامتة، تحملق في صور كتاب المطالعة، دون أن تفطن إلى جاذبيتها هذه!

*****

– وغادر "**رامش**" الحجرة ليعود حاملاً "صينية" مليئةً بالتفاح والكمثرى والرمان، وقال: "يبدو أنك تأبين أن تتناولي شيئا يا "**كمالا**"، ولكنني جائع، ولا أستطيع صبرا". فابتسمت "كمالا" وإذا ضوء ابتسامتها يبدد الضباب الذي كان ينتشر بينهما. وتناول "**رامش**" سكينا وشرع يقشر تفاحة، ولكن المهارة كانت تنقصه. ولم تُطقْ "**كمالا**" صبرا على تسرعه المجرد من البراعة، وعلى محاولاته الفاشلة لتقطيع الفاكهة، فانطلقت ضاحكة!.. وأثلج صدْرَ "رامش" ما انتابها من سرور لم تستطع أن تكبحه، فقال: "لعلك تضحكين لأنني لا أحذقُ تقشير التفاح، إذن أريني مهارتك!".. فقالت "**كمالا**": "بوسعي أن أريك لو أنني حصلت على سكين للفاكهة، ولكني لا أتقن العمل بسكين المطبخ!".. فقال: "أتظنين أن ليست لدينا سكين للفاكهة!". ونادى الخادم، وسأله إن كانت توجد سكين للفاكهة، فكان جوابه: "أجل يا سيدي، فقد ابتعنا كل ما يلزم".. وإذ ذاك قال "**رامش**": "إذن نظفها جيدا، وأحضرها!".

وعندما أحضر الخادمُ السكينَ، خلعت "**كمالا**" حذاءيها، وجلست، ثم راحت -في خفة بارعة- تقشر التفاحة، وتحولت بعد ذلك تقطعها إلى شرائح. وجلس "**رامش**" أمامها يتلقّى الشرائح في طبق، وهو يقول: "لابد أن تأكلي نصيباً منها!"، فقالت: "لا.. شكرا". قال: "إذن، فلن أتناول منها شيئا!".. وتطلعت إليه، ثم قالت: "حسنا... كل أنت أولا، وسآكل بعدك!"، فقال: "أتراك تعتزمين أن تغرّري بي؟".. فأجابت وهي تهزّ رأسها: "لا.. لن أخادعك حقا!".. واقتنع بتأكيدها، فتناول من الطبق شريحة دسّها في فمه. وفي تلك اللحظة، رأى ما جعل فكيه يجمدان.. رأى "**جوجندرا**" و"**أكشاي**" ينتصبان أمامه، لدى الباب!

وكان "**أكشاي**" أول من تكلّم، فقال: "معذرةً يا "**رامش بابو**". ظننتُ أننا سنجدك وحيدا. ما كان ينبغي يا "**جوجن**" أن نفاجئه هكذا دونما إنذار. هيا بنا، لننتظره في الطابق الأرضي!".. وتركت "**كمالا**" السكين تفلت من يدها وقفزت مستوية على قدميها. وكان الرجلان يسدان الطريق إلى خارج الغرفة، فتنحّى "**جوجندرا**" جانبا ليفسح لها الطريق، دون أن يحول بصره عن وجهها، بل ظل يحدّق فيها. ولاذتْ "**كمالا**" بالغرفة المجاورة، وقد تملكها الاستياء!

الفصل التاسع عشر

– قال "**جوجندرا**" متسائلا: "من هذه الفتاة يا "**رامش**"؟".. فأجاب: "إنها إحدى قريباتي". وسأله "**جوجندرا**": "وما صلة قرابتها بك؟ ما أظنها من ذوي النسب الأقربين إليك.. لقد حدَّثتني عن كل أقاربك، فلم أسمعْ قط عن هذه!". وإذ ذاك، أهاب به "**أكشاي**" قائلا: "اهدأ يا "**جوجن**" من المؤكد أن ثمَّة أمورا يحبّ أي رجل أن يكتمها حتى عن أصدقائه!".. فقال "**جوجندرا**": "أفهذه من الأسرار الدفينة يا "**رامش**"؟".. فتضرّج وجه "**رامش**" وقال: "أجل، إنها سر، وإني لأوثر ألا أتناول أمر هذه الفتاة في حديثنا!".. غير أن "**جوجندرا**" بادره في جفاء: "ولكنني –لسوء الطالع– أريد أن أتحدث معك بصددها بالذات!.. فلو لم تكن مُرتبطا بـ"**همناليني**"، لما كانت ثمة حاجةُ إلى التنقيب عن فروع شجرة النَّسَب الخاصة بأسرتك، ولجاز لك أن تستبقي أسرارك لنفسك!".. فقال "**رامش**": "كل ما أملك أن أقوله هو أنه ليس في الدنيا شخصٌ تربطني به علاقة من نوع يقف دون زواجي من "**همناليني**" وأنا مرتاح الضميرا".

"**جوجندرا**". "إن الذي لا يبدو لك حائلاً، قد يكون حائلاً في رأي أهل "**همناليني**".. ولستُ أريد أكثر من أن تجيب عن هذا السؤال: سواء أكنت قريبا لهذه الفتاة أو لم تكن، فلماذا تتستَّر على مقامها هنا؟".

"**رامش**": "لو أنني ذكرتُ لك السبب، لأفشيتُ السرّ. ألا تثق بقولي دون أن تسألني الأسباب؟".

"**جوجندرا**": "ألا تُدْعَى هذه الفتاة "**كمالا**"؟".

– "**رامش**" بلى!".

"**جوجندرا**": "هل وصفتَها بأنها زوجتُك، حين ألحقتها بالمدرسة أو لم تصفها؟".

"**رامش**": "بل وصفتُها".

"**جوجندرا**": "أفتريد مني بعد هذا أن أصدقك؟.. أتريد أن تقول إنها ليست زوجتك، في حين أنك أنبأت كل مخلوق بأنها زوجتك!.. إنك لا تضرب مثالا طيبا في الصّدق والحقيقة!"

"**أكشاي**": ؛أعتقد أنك تقصد أن هذا لا يكاد يكون مثالا يجوز للمرء أن يسوقه في محاضرة عملية عن الصدق!.. ولكنك تنسى يا عزيزي "**جوجن**" أن الضرورة قد تدعو المرءَ إلي أن يروي قصتين مختلفتين، لفريقين مختلفين من الناس، في بعض الظروف غير العادية. وغالبا ما تكون إحدى القصتين صادقة، فلعل تلك التي رواها لك "**رامش بابو**" هي القصة الحقيقية!".

"**رامش**": "لن أقول لكما شيئا على الإطلاق، ولن أزيد على ماقلتُه من أنني لا أرتكب وزرا بزواجي من "**همناليني**". ولديّ سبب جد قوي يجعلني أرفض أن أبحث معكما موضوع "**كمالا**". بل من الخطأ أن أفعل، مهما رأيتما في مسلكي ما يريبكما. ولو أن الأمر كان متعلقا بسعادتي أو سمعتي وحدي، لما أخفيْت عنكما شيئا، ولكنني أرفض أن أقول

شيئا، إذا كنت بهذا القول أقيم عقبات في طريق مستقبل شخص آخر!".

"**جوجندرا**": "هل صارحت "**همناليني**" بكل شيء؟".

"**رامش**": "لا، وإنما سأنبئها بعد زواجنا، ولو أنها شاءت فإني على استعداد لأن انبئها الآن!".

"**جوجندرا**": "حسنا، هل أستطيع ان أوجه إلى "**كمالا**" بعض أسئلة في هذا الصدد؟".

"**رامش**": "كلا بكل تأكيد!.. إذا اعتبرتَني مذنبا، فاحكم عليَّ بما تراه. أما "**كمالا**" فبريئة كل البراءة، ولن أعرضها للتحقيق الذي تريد إجراءه!".

"**جوجندرا**": "لا داعي لسؤال أحد على الإطلاق، فقد تبينتُ كل ما ينبغي أن يُعرف. لقد زودتني بالدليل الكافي، وأحبُّ أن أقول لك بكل وضوح: إنك ستتعرض للإهانة إذا أنت وطئت أرض دارنا بقدمك!".

وشحب وجه "**رامش**". بيد أنه لم ينبس ببنت شفة.. بينما استطرد "**جوجندرا**" قائلا: "وهناك شيء آخر أود أن أقوله.. ليس لك أن تكتب إلى "**همناليني**"، أو أن تحاول أن تتصل بها، أبسط اتصال، في العلن أو في السر. ولو كتبتَ إليها، فسأعلن للملأ سرَّك الذي تحرص على التستر عليه، مع الأدلة المثبتة له. وإذا سألنا أحد عن سبب فصْم خطبتك لـ"**همناليني**"، فسأقول إن السبب يرجع إلى أنني رفضت الموافقة على الزواج، ولن أذكر السبب الحقيقي. أما إذا لم تلزم جانب الحذر، فسأذيع القصة كلها. وقد يدهشك أن أبدي كل هذا التسامح إزاء تصرفك الجاحد.. ولكن لا تظن أن أتفه عطف عليك يحدوني إلى ذلك، وإنما أتساهل لأن هذه المسألة تمس أختي "**همناليني**". وكلمتي الأخيرة إليك هي أنه ليس لك أن تبين بالقول أو الإشارة أنك قد عرفت يوماً "**همناليني**" أقل معرفة. ولا قيمة لأن أنتزع منك وعداً، فلست أتوقع منك أي وفاء بعد هذه الخدعة، ولكن.. إذا كانت لديك بقية من الحياء، أو من خشية الفضيحة، فلا ينبغي أن تستهين بهذا الإنذار!".

"**أكشاي**": "حقا يا "**جوجن**"!.. ألست آسفا من أجل "**رامش بابو**" بعد كل هذا؟... ألا انظر كيف يتلقى الأمرَ بهدوء!.. خليق بنا أن ننصرف الآن!.. لا تبتئس يا "**رامش بابو**". فنحن خارجان!".

*****

- وانصرف "**جوجندرا**" و"**أكشاي**" تاركيْن "**رامش**" في حالة من الذهول، أفقدته القدرة على التحرك! وعندما بدأت حواسّه تفيق من الصدمة، كان أول ما خَالجَه، شعور بالرغبة في أن ينطلق على قدميه، وأن يسير طويلا، ليستعرض الموقف في الهواء الطلق. بيد أنه تذكر أن ليس بوسعه أن يترك، "**كمالا**" وحيدة في مكان غريب بالنسبة لها. ومالبث أن سعى إلى الغرفة المجاورة، فإذا الفتاة جالسة إلى جوار النافذة، تطل على الطريق، خلال مصراع مفتوح من المصراعين الخشبيين. وأغلقت المصراع حين سمعت خطوات "**رامش**"

والتفتتْ إليه، فجلس القرفصاء على الأرض.

وسألته "**كمالا**": "من يكون هذان الرجلان؟.. لقد وفدا على مدرستنا في هذا الصباح!"، فهتف في دهشة: "ذهبا إلى المدرسة؟".. قالت: "أجل.. ما الذي قالاه لك؟".

– سألاني عن صلة القربى التي تربطك بي!

ومع أنه لم يقدر لـ"**كمالا**" قط أن تجلس عند قدميْ حماة تتلقى عنها درسا في المناسبات التي يجدر بالزوجة الشابة فيها أن تخجل أمام زوجها، إلا أن غريزتها دفعت حمرة الخجل إلى وجنتيْها عندما سمعتْ كلمات "**رامش**"، بينما كان يمضي في حديثه قائلا: "وقد أخبرتهما بأن ليست بيننا أية صلة!". وبدا قوله –في رأيها– دعابة ممجوجة، فاشاحت في غضب قائلة: "لا تكن سخيفا!".. وساءل "**رامش**" نفسه عما إذا كان يجسر على أن يروي لها الحقيقة بحذافيرها!

وقفزت "**كمالا**" فجأة وهي تصيح جزعة: "انظر.. ها هو ذا غُراب يختطف فاكهتك!"، وهُرعتْ إلى الغرفة الأخرى، فطردت الغراب، ثم عادت بصفحة الفواكه، وسألته وهي تضع أمامه طبقا: "ألن تتناول شيئا منها؟".. وهزته هذه الرعاية.. ورغم أن شهيته كانت قد ولّت، إلا أنه سألها: "وأنت، ألن تتناولي شيئا يا "**كمالا**"؟".. فأجابت في لهجة الزوجة التي تأبى أن تأكل شيئا قبل أن يُشبع زوجها جوعه: "بل كل أنت أولا!".. وكان الأمر بسيطا، ولكن أعصاب "**رامش**" كانت مرهفة، فكادت رعاية الفتاة الساذجة أن تدفع الدمع إلى عينيه. وعجز عن أن يجد قولا مناسبا، ولكنه سيطر على نفسه، وتناول بعض الفاكهة، ثم قال عندما فرغ: "يجب أن نرحل الليلة إلى بلدتنا يا "**كمالا**"!".. وإذا الأسى يتبدّى على وجه الفتاة، وهي تُبادر قائلةً: "لا أريد أن أذهب إلى هناك!". فسألها: "وهل تحبين أن تواصلي الدراسة؟".

"**كمالا**: "لا، لا ترسلني إلى المدرسة ثانية، فإن الفتيات لا يفتأن يَسْأَلْنني عنك، ويثرْن خجلي!".

"**رامش**": "وما الذي تقولينه لهن؟".

"**كمالا**": "لا أقول شيئا.. لقد رُحْنَ يسألنني عن سرّ رغبتك في أن تتركني في المدرسة أثناء العطلة، و..."، ولم تقو على إتمام عبارتها، فإن الذكرى نكأت جرح فؤادها، فقال "**رامش**": "لم لم تقولي لهن أنني لا أمت إليك بصلة؟". فرمقته "**كمالا**" بنظرة لوم ونفاد صبر، وعادت تكرّر: "لا تكن سخيفا!".

– وساءل "**رامش**" نفسَه: "ترى ما الذي أفعله؟". كان سرّه كالدودة التي تنخر حيويته ونشاطه!.. وكانت هذه الدودة –في دأبها– موجعَة مؤلمة. وراحت الأسئلة تعذبه وتُضْني باله: "ترى ما الذي يحتمل أن يكون "**جوجندرا**" قد قاله لـ"**همناليني**" في هذه الأثناء؟.. وكيف تلقت "**همناليني**" النبأ؟.. وكيف يستطيع أن يشرح لها حقيقة الأمر؟.. وكيف يطيق أن يعيش العمرَ بعيدا عن "**همناليني**"؟".. ولكن فكره المشتت عجز عن أن يوافيه بإجابات لهذه الأسئلة.. كل ما كان يدركه هو أن علاقته بـ"**كمالا**" غَدَتْ موضعَ اهتمام أصدقائه وأعدائه في "**كلكتا**"، ولن يؤدي زعمه بأن "**كمالا**" زوجته إلا إلى استفحال

الشائعات حوله. ومن ثَمَّ فلا سبيل للبقاء معها يوما آخر في هذه المدينة!

ولم يغب انشغال باله عن "**كمالا**"، فرمقته في تساؤل، وقالتْ: "ما الذي يُشغلك؟.. إذا شئتَ أن تعود إلى بلدتك وتقيم فيها، فسوف أرافقك!".. ووخز فؤاده مرة أخرى هذا الانصياعُ من الفتاة لرغباته. وراح يسائل نفسه من جديد عن خير مسلك يسلكه. وتاه فكره وهو يتأمل "**كمالا**" دون أن يُعقّب على قولها بشيء. وشعرتْ هي بأن الأمر أخطر من أن تسكت عليه، فقالت: "أرجو ألا يكون قد أغضبك عدم انصياعي للبقاء في المدرسة خلال العطلة.. صارحْني، هل غضبت؟".. فقال "**رامش**": "الحق أني غضبت من نفسي وليس منك!".

وحرَّرَ نفسه في جَهْد من أفكاره المتداخلة، المضْطَربة وتحوّل يجاذب "**كمالا**" الحديث. فقال لها بغتة: "ألا حدثيني يا "**كمالا**" عما تعلمته في المدرسة طيلة هذه الفترة".. فشرعت تعرض عليه ما تعلمتْ، وهي مغتبطة. وحاولت أن تثير دهشته بما حصلته من معرفة عن الأرض وكرويتها! وتظاهر "**رامش**" من ناحيته بأنه يجهل هذا الموضوع ولا يصدقه، فراح يتساءل: "كيف يمكن أن تكون الأرض كروية؟ وحملقت فيه "**كمالا**" في دهشة، وهي تقول: "إن هذا موجود في كتابنا، وقد درسناه!".. فقال "**رامش**" متظاهرا بالعجب: "ما أراك جادّة في قولك. أيوجد هذا في كتاب حقا؟.. أي كتاب هذا؟".. وخُدعتْ "**كمالا**" بتظاهره، فقالت: "إنه كتاب غير ضخم، ولكنه مطبوع.. ويتضمَّن صورا أيضا!".. وكأنما كان هذا دليلا كافيا أفحم "**رامش**"!.

وإذ فرغت "**كمالا**" من سرْد ما تعلّمته، استطردتْ مُتحدّثةً عن زميلاتها، ومدرساتها، والمدرسة ونظمها وشرد ذهن "**رامش**" مرة أخرى، بيد أنه ظل يتمتم ببضع كلمات من آن لآخر، ليوحي إليها بأنه يتتبع حديثها. وكان أحيانا يفطن إلى بعض عباراتها، فيكررها في تساؤل، وكأنه يستزيدها إيضاحا. على أن "**كمالا** لم تلبث أن هتفتْ: "إنك لا تُصْغي إليّ!".. ونهضت واقفة في استياء، فبادر قائلا: "مهلا يا "**كمالا**"، لا تغضبي.. إنني لا أكاد أتمالك نفسي اليوم!"، فسألته وهي ترتد إليه: "أتشعر بتوعك؟.. ماذا بك؟".

– لست متوعّكا بما في الكلمة من معنى.. بل إنني لا أشعر بألم ذي بال، وإنما هي حال تعاودني في بعض الأحيان. هلا استرسلت في حديثك من جديد؟

فقالت "**كمالا**" وقد عادت تحاول أن تدهشَه بمعرفتها: "أتحب أن ترى الصور التي في كتاب مبادئ الجغرافيا؟".. فتصنع اللهفة في طلب الكتاب، وإذا ذاك أسرعت "**كمالا**" إلى إحضاره، وفتحته أمامه، قائلة: "هاتان الكرتان اللتان تراهما، ليستا سوى كرة واحدة في الحقيقة، إذ إن المرء لا يستطيع –كما تعرف– أن يرى جانبيْ أية كرة، في وقت واحد!".. وتظاهر "**رامش**" بأنه يتأمل الصورة في إمعان، ثم قال: "وهكذا الأمر أيضا في أي جسم مسطح".. وقالت "**كمالا**" وهي ماضية في حديثها: "ولهذا السبب رُسمَ شقا الكرة الأرضية منفصلين في هذه الصورة!".

على هذا النسق قضيا أول أيام العطلة!

الفصل العشرون

– كان "**أنادابابو**" يتمنى من صميم فؤاده أن يعود إليه "**جوجندرا**" بأنباء طيبة، وأن يتبدد سوءُ التفاهم كله. فلما دخل عليه "**جوجندرا**" و"**أكشاي**" الحجرة، تطلع إليهما في قلق.. وشرع ابنه يقول: "ما كنت لأصدق قط يا أبت أنك تسمح لـ"**رامش**" بأن يتمادى إلى هذا الحد، ولو أنني كنت أحدس أنه يفعل ما فعل، لما قدمتُه إليك ولا عرفتُك به!".

"**أنادابابو**": "ما أكثر ما عبرت لي بنفسك عما يتولاك من سعادة لو أن "**رامش**" تزوج من "**همناليني**".. فإذا كان قد خطر لك أن تحول دون ذلك...".

"**جوجندرا**": "ما كنت لأفكر قط – الواقع– في أن اقف ضد هذا الزواج، لولا..".

"**أنادابابو**": "لست أرى مجالا للاستدراك هنا.. فإما أن يدع المرء الأمر يمضي إلى نهايته، وإما أن يوقفه، ولا سبيل لمسلك وسط في هذا الموضوع!".

"**جوجندرا**": "ومع ذلك، فإن ترك "**رامش**" يتمادى...".

وهنا تدخَّل "**أكشاي**" في الحديث، قائلا في خبث: "هناك أمور تسير من تلقاء نفسها إلى أقصى مداها، دون أن يكون للمرء يد في تطورها. ومع ذلك، فلا جدوَى من البكاء على ما فات، بل يحسُن بنا أن نقرر ما ينبغي أن نفعل الآن!".. فتساءل "**أنادابابو**" في لهفة: "وهل رأيتما "**رامش**"؟".

"**جوجندرا**": "رأيناه حقا.. رأيناه في أسرته، وتعرفنا إلى زوجته".

وصعق "**أنادابابو**"!.. وعندما استطاع أن يتكلم أخيرا، راح يردّد: "تعرفتما إلى زوجته؟".. فقال "**جوجندرا**": "أجل.. زوجة "**رامش**"!".

"**أنادابابو**": "لست أفقه ما تقول.. أية "زوجة "**رامش**"" هذه؟".

"**جوجندرا**": زوجة "**رامش**".. صديقنا العزيز!.. فهو لم يعُدْ إلى بلدته عقب الامتحان إلا ليتزوج!".

"**أنادابابو**": "ظننتُ أن موتَ أبيه قضى على مشروع الزواج!".

"**جوجندرا**": "لقد تزوَّج قبيل وفاة أبيه".

وجلس "**أنادابابو**" يتحسَّسُ رأسه، مبهوتاً، ثم قال بعد هُنيْهة: "إذن، فلن يكون له أن يتزوج من عزيزتنا "**هيم**"؟".. فأجاب "**جوجندرا**": "هذا ما أردنا قوله!"، فصاح "**أنادابابو**": "قُولا ما شئتما، فإن قولكما لن يمنع الأمرَ الواقع.. إن الاستعدادات للزواج قد استُكملتْ تقريبا، وقد كتبْنا لجميع أقاربنا قائلين: إن الزواج لن يتم في يوم الأحد من هذا الأسبوع، وأنه أرجئ إلى يوم الأحد التالي. وما أرى إلا أننا مضطرون إلى أن نكتب إليهم ثانية لنقول إن الزواج قد أُلغيَ تماما!".

فقال "**جوجندرا**": "لا داعي للإلغاء.. كل ما نحتاج إليه هو إجراء تعديل واحد، لتبقى كل تدابيرنا كما هي!".. فسأله "**أنادابابو**" في دهشة: "وأي تعديل هذا؟".

"**جوجندرا**" : "إنه واضح جليّ. يجب أن نَحلَّ رجلا آخر مَحَل "**رامش**"، ونمضي في الاحتفال يوم الأحد المقبل، وإلا فلن يكون بوسعنا أن نظهر أمام الناس!" .. وألقى "**جوجندرا**" نظرة نحو "**أكشاي**"، فغض هذا بصره استحياء، بينما قال "**أنادابابو**" : "وكيف نعثر على رجل آخر نرشحه للزواج من "**هيم**" بهذه السرعة؟" . فأجاب "**جوجندرا**" : "لا داعي للقلق" .

"**أنادابابو**" : "سيكون عليك أن تحصل على موافقة "**هيم**" أولا!" .

"**جوجندرا**" : "إنها ستوافق حتما، إذا ما عرفتْ مسلك "**رامش**"!" .

"**أنادابابو**" : "حسنا، افعل ما تراه صالحا، ولكن هذا لا يمنع أسفي على "**رامش**"، فقد كان ميسور الحال، عاقلاً، متعلما... ولقد اتفقنا بالأمس فقط على أن ينزح إلى "**إيتاواه**" لممارسة المحاماة هناك، بعد أن يتم الزواج.. فانظر إلى ما جرى!" .

"**جوجندرا**" : "ما ينبغي لك أن تأسى على ما فات يا أبت، ليذهبْ "**رامش**" فيمارس المحاماة في "**إيتاواه**" إذا شاء.. أما الآن، فيحسن بي أن أدعو "**هيم**" فورا... فليس لدينا وقت نبدده" .

*****

– وخرج، ثم عاد بـ"**همناليني**" بعد دقيقة أو اثنتين. وتوارى "**أكشاي**" خلف صوان للكتب في أحد الأركان، وقال "**جوجندرا**" . "اجلسي يا "**هيم**"، فإن لدينا حديثا يهمك" . فجلستْ "**هيم**" دون أن تنبس ببنت شفة، وقد تأهّبتْ لكل ما يُرتقَبُ سماعُه. وشرَعَ "**جوجندرا**" يتحايل على مفاتحتها في الأمر برفق، فقال: "ألم تلاحظي في مسلك "**رامش**" ما يريب؟" .. فاكتفت بأن هزّت رأسها نافية.. وإذ ذاك قال: "لقد أرجأ الزواج أسبوعا، فأي سبب يمكن أن يحمله على ذلك، ولا يملك أن يصارحَنا به؟" .. فأجابتْ دون أن ترفع بصرها نحوه: "لابد أن لديه سببا" .

– أصبْت.. هناك سبب بالفعل، ولكن ألا ترين في هذا ما يريب؟ وهزَّت "**همناليني**" رأسها إشارة إلى أنها لم تكن ترى داعيا للشك!.. وضاق "**جوجندرا**" بما ألفى لدى أبيه وأخته من ثقة لا تهن بـ"**رامش**"، ومن ثمّ لم يحاول المضي في التلطف، بل أنهى إلى "**همناليني**" النبأَ في قسوة، قائلا: "هل تذكرين عودة "**رامش**" مع أبيه إلي بلدتهما؟ لقد ظللنا مدة طويلة –بعد ذلك– لم نتلق خلالها نبأ منه، فكان من الطبيعي أن نستغرب تصرّفه. كذلك تعرفين أنه كان فيما مضى يقيم في البيت المجاور، ويتردد على دارنا مرتين في اليوم، في حين أنه عندما عاد إلى "**كلكتا**" حَرِصَ على أن يقطن في مكان يبعد عنا أمْيَالا، ولم يزرنا قط. ومع ذلك، فقد لبثت وأبوك تؤمنان به، وتثقان فيه، ومن ثمّ دعوتماه، وعاملتماه كما كنتما تعاملانه في الماضي. وما كان هذا ليحدث لو أنني كنت هنا!" .. وأنصتت "**همناليني**"، ولكنها لم تنبس ببنت شفة.

"**جوجندرا**" : "هل عمد أحد كما إلى أية محاولة ليتبين ما وراء هذا المسلك الشاذ

منه؟.. ألم تشعرا قط بأن فيه ما يثير فضولكما؟.. يبدو أنكما كنتما شديديْ الثقة به!".

ومع ذلك، فلم تنبس **"همناليني"** ببنت شفة!

"جـــوجـنـدرا: "جميل جدا.. إن المرء ليجدُ نفسَه مَسُوقاً إلى أن يعتقد أنكما لا تميلان بطبعكما إلى الارتياب في الناس!.. على أنني أرجو أن تصدّقا ما سوف أنبئكما به الآن. لقد ذهبتُ بنفسي إلى مدرسة البنات، فوجدت أن لـ"**رامـش**" زوجة ألحقها بالقسم الداخلي منها، وكان قد رغب في أن يتركها هناك إبان العطلة، لولا أن أشفقت عليها السماء، فهبط عليه – منذ يومين أو ثلاثة– خطاب من ناظرة المدرسة تقول له فيه: إنها لا تستطيع أن تستبقيَ "**كـمـالا**" -زوجة "**رامش**"– في المدرسة أثناء العطلة. ولقد أغلقت المدرسة أبوابها اليوم، فحملتْ عربتُها "**كمالا**" إلى المسكن الذي كان لـ"**رامش**" في "**دار دجيبارا**".. وقد ذهبت إلى هناك بنفسي، فرأيتُ "**كمالا**" تقشرّ تفاحة، بينما جلس "**رامش**" على الأرض أمامها، يتلقّى الشرائح منها، ويضعها في فمه. وسالتُ "**رامش**" أن يشرح لي الموقف، فقال إنه لا يود أن يُفْضي بشيء. ولو أنه حاول –أقل محاولة– أن ينكر أن "**كمالا**" زوجته، لصدقناه، ولعملنا على أن نبدد وساوسنا. ولكنه أبي أن ينكر أو يؤكد، فهل في وسعكما بعد هذا أن تمضيا في الثقة به؟!".

*****

– وانتظر "**جوجندرا**" الجواب، وعيناه لا تتحولان عن وجه أخته. فإذا بلونه يمتقع إلى درجة غريبة، وإذا يداها تشدان على مسْندي المقعد بكل ما كان فيهما من قوة. وفي اللحظة التالية، انحنى رأسُها على صدرها، ثم هَوَتْ إلى الأرض مغشيا عليها!.. وكان جزع "**أنادابابو**" مثيرا للإشفاق. ورفع رأس ابنته عن الأرض، فأسندها إلى صدره وهو يصيح: "ماذا جرى يا عزيزتي؟.. ماذا جرى؟.. لا تصدقي كلمة مما يقولان؟.. إنهما يكذبان!"، فبادر "**جوجندرا**" ونحّى أباه جانبا، ثم رفع "**همناليني**" إلى الأريكة. وألفى بجواره إناء ماء، فنثر منه قطرات على وجه الفتاة، بينما أخذ "**أكشاي**" يستجلب الهواء إلى وجهها بمروحة مضى يحركها جاهدا. وما لبث "**همناليني**" أن فتحتْ عينيها، فاستوتْ جالسةً في إعياء والتفتت إلى أبيها باكية: "يا أبت... ألا سل "**أكشاي بابو**" أن يخرج!".. وترك "**أكشاي**" المروحة لفوره، وخرج إلى البهو.. وجلس "**أنادابابو**" على الأريكة بجوار ابنته، يربّت رأسها، ويتحسّس عنقها، دون أن يقوى على شيء سوى التنهد وترديد: "يا حبيبتي! يا عزيزتي!".

وفجأة، فاضتْ عينا "**همناليني**" بالدموع، وبدأ صدرُها يتهدّج ومالت بصدرها على ركبتي أبيها، تحاول أن تكتم أساها. فغمغم "**أنادابابو**" بصوت متهدج: «لا بأس يا عزيزتي لا تحفلي.. إنني أعرف "**رامش**" معرفة وثيقة، وأوقن أنه لا يمكن أن يغرر بنا ألبتة. لابد أن "**جوجن**" أخطأ!".. ونفد صبر "**جوجندرا**" فصاح: "لا تمنيها بآمال زائفة يا أبت.. لو أنك حاولت أن تشفق عليها الآن بالأكاذيب، فسوف تكون العاقبة وخيمة. دَعْ لها فرصة كي تفكر في الأمر كله!".. فرفعتْ "**همناليني**" رأسها عن ركبتيْ أبيها، واستوت جالسة ثم تفرّست في وجه

"**جـــوجندرا**" قائلة: "أصارحك بأنني لن أصدق قط شيئا، ما لم أسمعْه من فم "**رامـــش**" نفسه!" .. ونَهضَتْ على قدميْها مترنحَة، فقفز "**أنادابابو**" صائحا في إشفاق، وأنقذها من السقوط. وتشبثتْ "**همناليني**" بذراعه، فاعانها على بلوغ غرفتها. وهناك، قالت وهي تستلقي على فراشها: "أرجو أن تدعني أخلو قليلا إلى نفسي يا أبت، ولن ألبث أن أنام" .. فسألها: "أأرسل إليك مربيتك العجوز لتُروِّح لك استجلابا للهواء؟" .

– لا، شكرا لك، بل أوثرُ أن أنْفرد بنفسي!

وانتقل "**أنادابابو**" إلى الغرفة المجاورة لمخدعها، وقد عادت إليه ذكريات أم "**هيم**" التي ماتت والفتاة في الثالثة من عمرها، فذكر وفاءها، وصبرَها، وبشاشتها التي لم تكن تفارقها: وشعر كأن قلبه يتمزق لوعة من أجل الابنة التي كرّس لها ما فات من السنين، كيما يعدها لتَحُل محل أمها من حياته.. الابنة التي كبرت فصارت صورة حية للمرأة الغالية التي ماتت!.. واخترقتْ أفكارُه الجدار الذي كان يفصل بينه وبين الفتاة فألفى نفسه يخاطبها في وحدته:

"أرجو أن تزيل السماء من طريقك كل عقبة يا حبيبتي، وأن تَسعدي ما حَييت.. أرجو أن أراك -قبل أن ألحق بأمك- هانئة، ناعمة، مستقرة في أمان إلى جوار رجل يحبك وتحبينه!" .. ومسح بطرف سترته الدموع التي ترقرقت في عينيه!

*****

– كان "**جوجندرا**" يؤمن دائما بأن عقول النساء ناقصةٌ، وقد عززتْ أحداثُ ذلك اليوم رأيه وتقديره. كيف يتفاهم المرء مع جنس يغض النظر عن الحقيقة الواقعة، الواضحة؟!.. إن المرأة لتنكر بكل بساطة أن اثنين واثنين يصيران أربعة، إذا ما تمشى ذلك الإنكار للحقيقة مع سعادتها الفردية!.. وإذا قال لها العقل إن الأسود أسود، ثم جاء الحب فقال إن الأسود أبيض، فلن تصغي للعقل المسكين!.. ولم يستطع "**جوجندرا**" أن يفقه كيف تسير الدنيا في طريقها، وتلك هي آراء المرأة!.. ونادى "**أكشاي**"، فاقبل هذا إلى الغرفة مُتَسللا. وسأله "**جوجندرا**" : "أما وقد سمعت كل شيء، فما العمل الآن؟" .

– لماذا تزج بي في الأمر يا صديقي؟ إنه ليس من شأني. لقد ظللْتُ طيلة الأيام الماضية صامتا في أمان، فلم يكن من الإنصاف أن تَزُجَّ بي في هذا المأزق!

"**جوجندرا**" : "حسنا، سننظر في احتجاجك هذا فيما بعد. أما الآن فلست أجد حيلة إلا إذا استطعنا أن نقنع "**رامش**" بأن يعترف بنفسه لـ"**همناليني**" اعترافا كاملا!" .

"**أكشاي**" : "أمجنون أنت؟ وهل تتوقع من رجل...؟"

"**جـــوجندرا**" : "ربما كان من الأفضل أن نحمله على الكتابة إليها. وهذه مهمتك.. فعليك أن تشرع في العمل فورا!" .

"**أكشاي**" : "سأرى ما الذي أستطيع أن أفعله" .

الفصل الحادي والعشرون

- اصطحب "رامش" "كمالا" في الساعة التاسعة من ذلك المساء إلى محطة "سيلداه"، في عربة أمر حوذيها بأن يسلك طريقا دائريا، خلال حارات "كالوتولا". وإذ مرت العربة بدار معيّنة في ذلك الحي، أطلَّ "رامش" من نافذة العربة في لهفة، فلم يتبين ما ينم عن أي تغيرّ طرأ على المعالم المألوفة للدار. وأرسل زفرة حَرَّى، نبهت "كمالا" من إغفاءة كانت قد استغرقتْ فيها، فسألته عما به، ولكنه قال وهو يتهالك في مقعده: "لا شيء!". وظل جالسا في مكانه بلا حراك، حتى بلغت العربة غايتَها. وكانت "كمالا" طيلة الوقت مستسلمة للإغماء في الركن الذي جلستْ فيه. ولم يتمالك "رامش" نفسه من الشعور بإحساس طارئ جعله يكره مجرد وجودها!

ووصلا إلى المحطة مبكريْن، فما لبثا أن استقرًّا في المقصورة التي كان "رامش" قد احتجزها في الدرجة الثانية. وأعد "رامش" فراشا لـ"كمالا" في أحد الأسرة المنخفضة في المقصورة، وخفف الضوءَ، وأغلق المصاريع الخشبية للنوافذ، ثم قال: "لقد فاتت ساعة نومك، فخير لك أن تأوي إلى الفراش!". ولكنها قالت: "ألا أستطيع أن أجلس هنا، فأنظر خلال النافذة حتى يتحرك القطار، وبعد ذلك أتهيأ للنوم!". ووافق "رامش"، فجلست "كمالا" على حافة السَّرير، ورفعت نقابها، وخفضتْ مصْراع النافذة القريبة، ثم مضت تراقب الناسَ، بينما جلس "رامش" في منتصف مقعده مُسَرّحا بصره وهو تائه الفكر. وعندما بدأ القطار يتحرك، وقع بصره فجأة على مسافر وصل متأخرا، فانطلق يجري على الرصيف.. وخُيّل إليه أن ملامح الرجل مألوفة لديه.

وقهقهت "كمالا" فجأة في اللحظة التالية، فاطل "رامش" من النافذة، ورأى المسافر المتأخر يناضل ليتخلص من قبضة موظف من موظفي المحطة كان يحاول أن يبقيه بعيدا عن القطار الذي تحرك. وأفلح الرجل أخيرا في القفز إلى القطار، وإن بقيتْ الملفعة -التي كان يلفها حول وجهه- في يد الموظف!.. وإذ مال الرجل خلال إحدى النوافذ ليتناول الملفعة من الموظف، استطاع "رامش" أن يعرفه، فإذا هو... "أكشاي"!.. وتمالكت "كمالا" نفسَها بعد قليل، فكفَّتْ عن الضحك من هذا الموقف. فقال لها "رامش": "لقد تجاوزت الساعة النصفَ بعد العاشرة، وها قد انطلق القطار، فخير لك أن تنامي الآن!".

فاندَسَّت الفتاة في سريرها منصاعة، ولكنها ظلت لا تقوى على كبت الضحك بين آن وآخر، حتى غلبها النعاس. أما "رامش"، فلمَ ير في الحادث الذي وقع على رصيف المحطة ما يدعو للضحك... كان يعرف أن ليس لـ"أكشاي" علاقة بالريف، إذ إن أسرته كانت تقيم في "كلكتا" منذ أجيال. فلم إذن كان مستميتا في محاولة اللحاق بهذا

القطار بالذات؟.. كان التفسير الوحيد لذلك، هو أنه كان يَتَعَقَّب "رامش" و"**كمالا**"!

*****

– وأحس "**رامش**" بأن اتجاه "**أكشاي**" إلى القيام ببعض تحريات عنه في بلدته، أمر من أبغض الأمور، إذ إنه يجعل سيرته وسمعته مُضغَة في أفْواه قومه، وكان هذا من شأنه أن يزيد الأمرَ بشاعة. ولم يتمالك أن راح يصور لنفسه انتشار الفضيحة في البلدة. والمرء في مدينة كبيرة مثل "**كلكتا**" يستطيع أن يجد مكانا مَغْمورا يتوارى فيه، في مثل هذه الظروف. أما في بلدة ريفية صغيرة، فإن أتفه الأمور كفيل بأن يُثير ضجة لا مهْرَب منها!.. وأخذ "**رامش**" يرتجف إشفاقا من العاقبة كلما ازداد استرسالا في تصوّر الموقف!

وعندما وقف القطار في "**باراكبور**"، أطل "**رامش**"، فلم ير "**أكشاي**" يغادر القطار. وفي "**نايهاتي**" صعد إلى القطار عدد من الركاب، وهبط عدد آخر، ولكن "**أكشاي**" لم يكن بينهم. وعاد "**رامش**" يطل في "**باجولا**"، ولكنه لم يلمح لـ"**أكشاي**" أثرا، ولم يبرح الرجل القطار في أي من المحطات التي تلت ذلك. وعلى الرغم مما كان قد حلّ بـ"**رامش**" من تعب، فإنه لم يَسْتَسْلم للنعاس إلا في ساعة متأخرة.

وفي باكورة الصباح التالي، بلغ القطار محطة "**جوالوندو**" حيث يهبط الذاهبون إلى شرقي "**البنغال**"، ليجتازوا النهر. ولمح "**رامش**" "**أكشاي**" يسرع نحو البواخر النهرية، وقد لفَّ وجهه في المِلْفَعَة، وأمسك بحقيبة صغيرة. ولم تكن الباخرة الراحلة إلى بلدة "**رامش**" لتغادر الميناء قبل ساعات، ولكن كانت ثمة باخرة أخرى على وشك الإقلاع وقد تصاعد البخار منها، وأخذت ترسل صفيرا قلقا، متعجلا.. فسأل "**رامش**" أحد رجالها: "إلى أين تذهب هذه الباخرة؟".. فكان الجواب: "إلى الغرب".. وعاد يسأل: "وأين تنتهي رحلتها؟"، فقيل له: "في "**بنارس**"، إذا كانت المياه على ارتفاع كاف في النهر".

وعمد "**رامش**" في الحال إلى حجْز قمرة، حتى إذا استَقرت "**كمالا**" بها، هبط إلى البر، فابتاع كمّيّات من الأُرز، والقطاني "البقول"، وطلح الموز، واللبن كمؤونة للرحلة. أما "**أكشاي**" فكان في تلك الأثناء قد سبق غيره إلى الباخرة الأخرى، وجثم في مكان على سطحها يمكنه من أن يرى كل صاعد وكل هابط. ولم يكن يبدو على المسافرين على تلك الباخرة أي تعجّل، إذ لم يكن موعدها قد حان بعد، فراحوا يقضون وقتهم في غَسْل ثيابهم، أو الاستحمام.. بل إن بعضاً منهم راحوا يطهون طعامَهم ويتناولونه على ضفة النهر. وظن "**أكشاي**" أن "**رامش**" قد اصطحب "**كمالا**" إلى أحد المطاعم المجاورة ليتناولا

الفطور. ولما لم يكن على دراية بالمدينة، فقد رأى من الأسلم أن يبقى على الباخرة. وأخيرا، انبعث صفير الباخرة، ولمّا يبد أثر لـ"**رامش**"! وشرع المسافرون يتقاطرون إلى سطح الباخرة، على ألواح من الخشب استُخدمت كمعْبرة. وإذ اشتد الصفير وتتابع، أسرع المتلكئُون من المسافرين، ولكن "**رامـــش**" لم يظهر بين المتأخرين، ولا بين المتقدمين!.. ورُفعَتْ المعبرة، وأمر ربان السفينة برفع المرساة، إذ ذاك صاح "**أكشاي**": "مهلا، أريد أن أهبط!" ولكن الملاحين لم يعبئوا به، فلم يسعه سوى أن يقفز إلى الرصيف...

ولم يَلُح لـ"**رامش**" أثر في المرفأ!.. ولمح "**أكشاي**" قطار الصباح الذاهب إلى "**كلكتا**"، وقد بارح المحطة، فانتهى به تفكيره إلى أن "**رامـــش**" لابد قد فطن إليه -أثناء محاولته اللحاق بالقطار- وحدس نواياه، فعَدل عن رحْلته إلى بلدته، وارتد عائدا إلى "**كلكتا**" في قطار الصباح. ومن الصعوبة بمكان أن تعثر على شخص في مدينة كبيرة مثل "**كلكتا**"!

الفصل الثاني والعشرون

- قضى "**أكشاي**" يومَه كلَّه مُتسكّعا في "**جوالوندو**"، حتى إذا حلّ المساء، استقل القطار الذاهب إلى "**كلكتا**". وعندما وصل إليها -في الصباح الباكر من النهار التالي- يمم أولا شطْر مَسْكن "**رامش**" في حيّ "**داردجيبارا**"، ولكنه ألفى الباب مغلقا، وقيل له إن الدار خالية، فتحول متجها إلى حي "**كالوتولا**"، فإذا مسْكن "**رامش**" هناك خال، ومن ثم أوى إلى دار "**أنادا بابو**" المجاورة، وقال لـ"**جوجندرا**": لقد أفلت مني! لم أستطع العثور عليه!"، فهتف "**جوجندرا**": ماذا تعني؟". وانطلق "**أكشاي**" يروي له ما حدث بالتفصيل، فإذا شكوك "**جوجندرا**" في أمر "**رامش**" تتحول إلى يقين، لاسيَّما حين علم أن "**رامش**" بادر إلى الفرار مع "**كمالا**" عندما رأى "**أكشاي**". على أنه قال: "ومع ذلك، فإن هذه القرينة لن تجدينا في بلوغ غرضنا، لأن الأمر لم يعد يقتصر على "**همناليني**"، بل إن والدي أصبح هو الآخر يردد عين اللغو الفارغ عن عدم فقدان الثقة بـ"**رامش**"، حتى يسْمَع القصة بحذافيرها من "**رامش**" نفسه!.. لقد تطورتْ الأمورُ إلى درجة تجعلني أعتقد أن "**رامش**" لو جاء اليوم وقال: "ليس في وسعي بعدُ أن أذكر لكم شيئا"، لَماَ تردد أبي في أن يسمح له بالزواج من "**همناليني**". ومع ذلك، فالمرء مضطر إلى أن يتعامل مع أهل كهؤلاء!.. إن أبي لا يَحْتَمل أن يرى "**همناليني**" حزينة من أجل أي شيء، ولو أنها سعت إليه اليوم وقالت باكية: إنها تريد الزواج من "**رامش**" برغم أنه متزوج من امرأة أخرى، لوافق على ذلك!. لابد من أن ننتزع اعترافا مفصّلا من "**رامش**" بأية وسيلة، وكلما أسرعْنا كان هذا أفضَل، فلا تدعنا نفقد الأمل. سوف أعالج الأمر بنفسي، وإن كنت لا أدري كيف أتصرف!.. بل من المحتمل ألا أجد وسيلة مع "**رامش**" سوى أن أنهال عليه لكما!.. حسنا.. أعتقد أنك الآن في حاجة إلى الاغتسال، وإلى تناول بعض الشاي!".

واغتسل "**أكشاي**"، ثم جلس لتناول الشاي، وذهنه لا يكف عن العمل، حتى قطع عليه أفكاره مَقْدمُ "**أنادابابو**"، ممسكا بيد ابنته. فما إن رأت "**همناليني**" "**أكشاي**"، حتى نكصت على عقبيها وغادرت الغرفة. وإذ ذاك صاح "**جوجندرا**" محنقا: "هذا تصرف سيء منك يا "**هيم**"!.. يجب ألا تشجعها على مثل هذا المسلك النابي يا أبت، بل ينبغي أن تجبرها على العودة إجبارا!.. تعالي يا "**هيم**"!.. "**هيم**"!".. ولكن الفتاة كانت قد اندفَعتْ صاعدة السلم. وتدخل "**أكشاي**" قائلا: "أعتقد أنك تفسد قضيتي يا "**جوجن**". من الخير ألا تذكر لها شيئا عني، بل دع الزمن يُسوّي كل شيء. إنك إذا أجبرتها الآن على أمر، فلن تكون النتيجةَ سوى ضرر لا سبيل إلى إصلاحه!".. ثم غادر "**أكشاي**" الدار، بعد أن فرغ من تناول الشاي.

*****

– كان مَعِينُ هذا الشاب من الصَّبر لا يَنْضُب. وكان، حين تبدو الظواهر ضده، يدرك أن ليس ثمة ما هو أفضل من القعود والانتظار. كما كان طبعُهُ غاية في الهدو والبرود، فلو أنه أهين لما نظر في ترفّع إلى من أهانه، ولا أشاح عنه في اشمئزاز، بل إن الإهانات وأنواع الازدراء لم تكن لتنال منه!.. كان على قدر كبير من الصفاقة! ومن ناحية أخرى، لم تكن تهتز في بدنه جارحة إذا عامله أصدقاؤه بكل لطف وشهامة!

وما إن انصرف الشاب، حتى أعاد "**أنادابابو**" ابنته إلى مائدة الشاي. وكانت الحُمْرة قد غاضَتْ من وجهها، وطوّقت عينيْها هالاتٌ سمراء. ولم ترفع بصرَها إلى أخيها حين ولَجَتْ الغرفة، إذ كانت تعرف أن صبْره قد نفذ إزاء "**رامش**" وإزاءها، وانه قد أصدر حكمه بقسوة في أمرهما، ومن ثَمّ كانت تجفل من أن يلتقي بصرها ببصره!.. ومع أن "الحب" صان إيمان "**همناليني**" بـ"**رامش**" من أي فتور، إلا أنه لم يقو على كتم صوت العقل. وإذا كانت الفتاة قد أكدت لـ"**جوجندرا**" –وهي تبرح الغرفة منذ يومين– أنها لن تفقد ثقتها في "**رامش**"، إلا أنها –في وحدتها في جوف الليل– شعرت بهذه الثقة تتململ في أعماقها!.. فالواقع أنها لم تر أي تفسير معقول يبرر المسلك الشاذ الذي أقدم عليه "**رامش**". ولقد ناضلت جاهدة لتصدّ الشك عن حصن إيمانها، بيد أن الريَب راحت تتساقط كالمطر على ذلك الإيمان. وكما تضم الأمُ طفلها إلى صدرها لتحميَهُ، فإن "**همناليني**" راحت تضُم ثقتَها في "**رامش**" إلى فؤادها، كلما هاجمتها قرينة من القرائن الباعثة للشك. ولكن.. ترى هل ستظل من القوة دائما، بحيث تَذُودُ عن تلك الثقة؟!

وفي تلك الليلة، اتخذ "**أناداباب**و" مخدعه في الغرفة المجاورة لغرفة "**همناليني**"، فعَرف كيف قضَتْ ليلتهَا مُؤَرّقة. وكثيرا ما سعى إلى مخدعها، فوجدها مُسْهَدَة. وكان الجواب الدائم الذي ترد به على أسئلته القلقة: "ولماذا لم تنم أنت يا أبت؟.. إنني أشعر بالنوم يراود عيني.. بل ها قد بدأت أغفو!"..

واستيقظت مبكرة، فصعدت تمشي على سطح الدار. كانت جميع الأبواب والنوافذ في مسكن "**رامش**" موصَدة، ومحْكمة الرتاج. ولم تلبث الشمسُ أن بزغت رويدا من وراء السقوف القائمة في الناحية الشرقية. ولكن اليوم الوليدَ بدا في عينيْ "**همناليني**" كئيبا، راكدا، خاليا من البهجة، بل باعثا للانقباض. فلم تتمالك أن ركعت في ركن من السطح، ودفنتْ وجهَهَا في راحتيْها، ثم طَفقَتْ تبكي!.. ومرّ اليوم دون أن تحظى بزيارة من حبيبها. وحانت ساعة الشاي في الأصيل فلم يكن مَقْدمُه مُرْتقبا لتنعم بلذة انتظاره.. والأنكَى من هذا، انها حُرِمَتْ من تلك السلوى التي كانت تنشأ عن شعورها بأنه قريب منها، في البيت المجاور!

*****

– وأجفلتْ إذ انبعث صوت أبيها يناديها: "**هيم**"!.. "**هيم**!"، فأسرعتْ تمسح آثار

حزنها، وأجابت: "نعم يا أبت؟" .... وقال "**أناباباـبو**" وهو يظهر على السطح ويقبل عليها يربّت منكبيها: "لقد استيقظت اليوم متأخرا".. كان قلقه على ابنته قد أقض مضجَعَه، فلم يواته النعاس إلا عند اقتراب الفجر، ولم يستيقظ إلا حين داعبت أشعةُ الشمس عينيه، فاغتسل في عجلة، وأسرع ليطمَئن على ابنته، ولكنه وجد غرفتها خالية.. وذاب قلبُه أسى وهو يراها في لوعتها، فقال: "هيا انزلي وتناولي الشاي يا عزيزتي". وكرهتْ "**همناليني**" أن تواجه "**جوجندرا**" حول مائدة الشاي، ولكنها أيقنت أن أي تحول عن عاداتها المألوفة كفيل بأن يضاعف من كدر أبيها، لاسيّما وقد اعتادت أن تَصُبَّ له الشاي بنفسها، فلم تشأ أن تهمل هذه الرعاية البسيطة.

وحين اقتربا من باب الغرفة، سمعت "**همناليني**" صوت "**جوجندرا**" وهو يتحدث مع شخص ما، فخفق قلبها إذ خطر لها أن "**رامش**" قد يكون في الغرفة، فما كان سواه يُرْتَقب في مثل هذه الساعة المبكرة. ودخلت الحجرة وكل جارحة في جسمها تختلج، ولكنها صُدمَتْ إذ رأت... "**أكشاي**"! ولم تعد تقوى على تمالك نفسها، فلاذت بالفرار. فلما أعادها أبوها ثانية إلى الغرفة، جلست لصْق مقعده، وانصرفَتْ بكليتها إلى إعداد الشاي. واشتد حنقُ "**جوجندرا**" لتصرفها، فما كان تعلق "**هيم**" بـ"**رامش**" إلى هذا الحد بالأمر الذي يطيقه. وزاد من امتعاضه ما رآه من مشاطرة "**أناداباـبو**" لأساها، ومن محاولتها اتخاذ حب أبيها لها حجابا بينها وبين الدنيا. وراح يقول لنفسه: "إننا جميعا مذنبون!.. عندما يحملنا حبنا لها على أن نؤدي واجبنا وأن نعمل لسعادتها الحقيقية، فإننا لا نحظى منها بكلمة شكر.. بل إنها تعتبرنا في قرارة نفسها مذنبين! إن أبي لا يعرف مطلقا كيف يعالج هذا الموقف، فخليق به في هذه المرحلة أن يَعْمَدَ إلى الشدة بدلا من أن يدلّلها. إنه يؤخر مواجهتها بالحقيقة القاسية خوفا من إيلامها، ومن ثمّ فسوف تكون صدمتها أعنف!".

وقال أخيرا بصوت مرتفع: "أتعرف ما الذي حدث يا أبي؟".. فأجاب "**أناداباـبو**" في لهفة:

– لا.. ماذا جرى؟

– لقد رحل "**رامش**" في طريقه إلى بلدته بقطار "**جوالوندو**" في الليلة السالفة، مصطحبا زوجته. فلما رأى "**أكشاي**" يستقل القطار، عدل عن خطته، وعاد إلى "**كلكتا**".

وارتعشت يد "**همناليني**"، فتناثر الشايُ وهي تصبّه. وأسرعتْ تتهالك في مقعدها، بينما رمقها "**جوجندرا**" من ركن عينه وهو يمضي قائلا: "لستُ أفقه الحافز الذي دفعه إلى الفرار. مع أن "**أكشاي**" عرف كل شيء عنه. لقد كان مسْلكه السابق وضيعا في حد ذاته، ولكن الأنكى منه أن يتولاه الخوف وأن يُبادر هكذا إلى الفرار!... إن مسلكه في رأيي لا يستحق سوى الاشمئزاز. لست أعرف رأي "**هيم**" في ذلك، ولكنني أعتبر فراره دليلا كافيا على جرمه!".. فنهضت "**همناليني**" وكل جسمها يرتجف، وقالت لأخيها: "لست راغبة

في دليلك هذا، فشكرا لك.. بوسْعك أن تدينه كما تشاء، اما انا فلا أجد من حقي أن أحكم عليه!".

"جوجندرا": "اليس هناك ما يجعل من حقنا ان نهتم بالرجل الذي كان موشكا ان يتزوج منك؟".

"همناليني": "لم اقل شيئا عن الزواج. افصم الخطبة أو لا تفصمها، كما يحلو لك.. ولكن، لا تحاول ان تحطم إصراري على موقفي!".. واختنق صوتها بالبكاء، فلم تقو على المضيّ في الحديث. ونهض "أنادابابو" فضم وجهها المندى بالدموع إلى صدره، واكتفى بأن قال: "هيا يا عزيزتي.. لنصعد إلى الطابق العلوي".

الفصل الثالث والعشرون

- أقلعتْ الباخرة التي استقلها "رامش" و"كمالا" -من ميناء "جوالوندو"- في الموعد المحدد لها. ولم يكن ثمّة ركاب في الدرجتين الأولى والثانية غيرهما، ومن ثم استأجر "رامش" قمرة أخرى متصلة بالقمرة التي احتجزها من قبل. واحتسَت "كمالا" قدحا من اللبن، ثم جلست تتأمل مناظر النهر خلال باب القمرة المفتوح، وقد تملكها الإعجاب. فسألها "رامش". "أتدرين إلى أين نحن ذاهبان يا "كمالا"؟" .. قالت:

- "إلى البلدة".

"رامش": "إنكِ لم تكوني راغبة في الذهاب إليها، ولذلك فلن نذهب!".

"كمالا": "هل عدلت من أجلي؟".

رامش": "نعم.. من أجلك!".

فعضت شفَتها وقالت: "لمَ فعلت هذا؟ ما كان لك أن تُعْنَى بكلمة عابرة لم أكن أعنيها.. إنك سريع الاستياء!". فابتسم "رامش" وقال: "بل إنني لم أستأ مطلقا، ولكنني لم أكن راغبا أنا الآخر في الرحيل إلى البلدة!". وهنا سألته "كمالا" في لهفة: "إذن، فإلى أين تذهب؟".. فقال:

- إننا ذاهبان إلى ريف الغرب". وفتَحت "كمالا" إذ ذاك عينيها على سعتهما.. أي معنى حافل يتمثل في كلمة "الغرب"، فيخلب الباب أولئك الذين لم يغادروا من قبل مواطنَهم!.. معنى حافل بصور الأضرحة المقدّسة، والجو المنعش، والأماكن غير المألوفة، والمناظر الجديدة، والأمجاد الغابرة للملوك والأباطرة، والمعابد الرائعة، وأساطير الماضي، وحكايات عصر البطولة!

وتساءلت "كمالا" وقد استخفَّها الطرب: "وإلى أي مكان من الغرب نذهب؟". فقال: "إنني لم أقرر بعد. سنمر بـ"مونفير"، و"باتنا"، و"دينابور"، و"بوكسار"، و"غازيبور"، و"بنارس".. وسنهبط في أحد هذه الأماكن". وكان بعض هذه الأسماء مألوفا لدى "كمالا"، والبعض غريبا عنها، ولكن ذكرها أذكى خيالها، فصفَّقَتْ هاتفة: "ما أبدع هذا!"، فقال "رامش":

- "ومابعد ذلك أبدع!.. على أننا يجب أن ندبر الآن أمر غذائنا أثناء الرحلة، فما أحسبك راغبة في أن تتناولي وجباتك من مطبخ الملاحين!"، فابتسمت صائحة: ؛لتحفظنا السماء! لا، بالطبع!".

"رامش": "إذن، فماذا نفعل؟"

"كمالا": "سأتولى طهو وجباتنا بنفسي!".

"رامش": "وهل لك دراية بالطهو؟".

فقهقهت "كمالا" قائلة:

– لست أدري ما الذي تظنه بي؟.. هل لي دراية بالطهو! أتظنني بلهاء؟ لقد كنت أقوم بالطهو دائما في بيت خالي. وإذ ذاك قال "رامش" معْتذرا:

– ما كان ينبغي ان أوجّه إليك هذا السؤال. ولكن، يحسن بنا أن نبدأ استعدادنا من الآن اليس كذلك؟" .. وأسرع فغاب عنها برهة، ثم عاد يحمل موْقدا حديديا (من النوع المعروف بالكانون). على ان هذا لم يكن كل ما في الأمر من تدبير.. إذ كان على الباخرة غلام يدعى "**أومش**"، ينتمي إلى طائفة "**الكاياستا**" أو "الكتاب" – (وهي طبقة لايعلو عليها في البنغال سوى البراهمة)– فاستأجره "**رامش**" ليساعد "**كمالا**" مقابل تكلفه بأجر سفره إلى "**بنارس**" ومبلغ زهيد يدفعه إليه كل يوم . ثم سأل "**كاملا**" :" ما الذي نتناوله في الفطور يا "**كمالا**" ؟" .

– وماذا نرجو إذا كنت لم تُحْضر لي سوى أرز وعدس؟..

سنأكل (كشري) اليوم!

وحصل "**رامش**" على بعض التوابل من بحارة السفينة ، بتوجيه من "**كمالا**" ، فسألته وقد استخفها جهله بشؤون المطبخ:" ما الذي تتوقع أن أفعله بهذه التوابل الآن ؟ ليس بوسعي أن أصحنها بغير هاون ومدق كما تعلم!" . وابتلع "**رامش**" هذا التأنيب، وأسرع باحثا عن مطلبها . ولم يجد ما أرادته تماما ، ولكنه استطاع أن يستعير من البحارة مدقاً حديديا ، وجرْنا ، ومع أن "**كمالا**" كانت قد اعتادت صحن التوابل والبهارات في الهاون الخاص بها ، إلا أنها كانت مضطرة لمسايرة الظروف ، واقترح "**رامش**" أن يكل هذه المهمة إلى شخص آخر، ولكنها استبعدت هذا الرأي ، وأقبلت على العمل بنشاط وتحمّس .

ووجدت في العمل بأداة لم تألفها متعة، فكانت تضحك إذا ما تطايرت التوابل وتناثرت في كل صوْب . وسرت عدْوَى الطرب والمرح منها إلى "**رامش**" ، فحذا حذوها ، ولما انتهتْ مرحلة صحن البهارات ، شمرت "**كمالا**" ذيل ثوبها . واختارت ركنا أحاطته بسياج ليكون مطبخا لها ، وكان ثمة وعاء كبير من الفخار، لاختزان الحلوى ، فاستخدمته كآنية للطهو . وإذ وضعت فيه ماء وتركته يغلي على النار ، اقترحت على "**رامش**" أن يذهب فيغتسل ، بينما تعد له فطوره ، فاستجاب لها .

ووجد الطعام قد طهي بالفعل عندما عاد . وإذ ذاك ، كان السؤال:

ما الذي يمكن استخدامه كطبق؟.. وأبدى "**رامش**" اقتراحا وهو موجس.. اقترح أن يستعير طبقا من أحد الملاحين المسلمين ، بيد أن "**كمالا**" ارتاعت لهذه الفكرة ، وإن اعترف لها "**رامش**" – بصوت خفيض– بأن هذه لن تكون المرة الأولى التي يخرق فيها تقاليد الديانة الهندوكية فيما تعتقده طهرا ؟.. وقالت "**كمالا**" معقبة :" ليس لك أن تتحلّل من هذه التعاليم الآن، كما ينبغي الا تعود إلى ذلك، فإني لا أتسامح في تلك الأمور !" .. ثم تناولت الغطاء المسطح الذي كان يعلو الوعاء ، فنظّفته بعناية، ثم وضعته أمامه قائلة:" استعمل اليوم هذا ، على أن نستبدله متى استطعنا بشيء أفضل منه ! " .

وجلب "رامش" ماء فغسل بقعة من سطح المركب ، وجلس يتناول طعامه ، وهو مرتاح إلى أنه لم يتجاوز التزاماته الدينية ، وعندما تناول حفنة أو اثنتين. هتف : " لعمري !.. ما أبدع طهوك!" .. فصاحت مستاءة: "لا داعي لأن تسخرا" .. قال: "لسْت أسخر، بل سترين بنفسك عندما تتناولين نصيبك من هذا الطعام" .. وسرعان ما أتى على ما كان في الطبق، وطلب مزيدا، فاعطته "كمالا" أكثر من النَّصيب الأول.. وهَتَفَ بها: "ما هذا الذي تفعلين؟.. هل أبقيْت لنفسك؟"... قالت وقد سرها أن ترى "رامش" يستطيب الطعام: "آه.. لا باس!.. لايزال في الآنية كثيرا" .. فسألها: "وفيم ستأكلين؟"، وأجابت، وهي لا تجد باسا في أن تستعمل طبقه مادامت زوجة له: "سأستعمل غطاء الآنية طبعا!" .. واستنكر "رامش" هذا، فمن تقاليد الهندوكيين ألا يستعمل امرُؤ متاع امرئ آخر، ولكن "كمالا" صاحتْ: "ولماذا؟" .. قال:

"لأنه لا يجوز"

– بل يجوز.. إنني أدرك صحته.. ولكن، فيم تاكل يا "أومش"؟

قال الصبي: "هناك رجل يبيع الحلوى في السفينة، وسأحصل منه على بعض أوراق الشجر فأستخدمها كطبق!" .

وقال "رامش" لـ"كمالا" : "إذا كنت سَتَسْتخدمين هذا الغطاء، فهاته أغسله لك غسيلا جيدا!"... ولكنها أجابته في استهجان: "فيم اهتمامك بامر لا يستحق كل هذا العناء؟" .. ومالبثت بعد دقائق أن هتفتْ: "لقد نسيتَ أن تحضر لي بعض نبات الفوفل، ومن ثم فلن أملك أن اقدم لك ما تمضغه منه!"، فأجاب:

–في السطح الأسفل من الباخرة رجل يبيعه" . وسرعان ما جاءها بعدد من هذه الأوراق.

على أن "رامش" كان مضطرب البال، لا يفتأ يسائل نفسه: "كيف يمكن أن أنتزع من ذهنها ما تعتقده من أننا زوجان؟" .. كانت "كمالا" منساقة إلى أن تقوم باعباء الزوجة، دون ما معونة أو تدريب، إذ كانت حياتها في دار خالها –من قبل– سلسلة من الطهو، وتربية الأطفال، والتدبير المنزلي. ولقد بَهَرت "رامش" بعنايتها، ومهارتها والنشاط المرح الذي راحتْ تؤدي به اعمالها. ولكنه كان لا يلبثُ أن يرتد إلى السؤال الذي كان يُضنيه: ما الذي ستصير إليه علاقتهما في المستقبل؟.. لم يكن ليتصور أن يستبقيها معه، لا ولا أن يقصيها عنه!. ثم أين يجب أن يقوم الحدّ الفاصل بين ما ينبغي ومالا ينبغي في اتصالاتهما اليومية؟.. وتمنّى لو أن "همناليني" كانت معهما!.. ولكن هذه غدت أمنية مستحيلة، لا ينبغي أن يفكر فيها وهو يتدبر حلا للموقف الراهن!.. وأخيرا، انتهى تفكيره إلى أن التكتم لا ينبغي أن يمضي إلى أبعد من هذا الحد، بل لابد من أن تعرف "كمالا" الحقيقة كلها!

الفصل الرابع والعشرون

– بلغتْ الباخرة –بعد الظهر– منطقة ضحلة من النهر، أخفقتْ كل الجهود في تعويمها فيها، ومالبث أن اقترب اللّيل وهي ماتزال معطلة عن السير. وفوق الحافة العليا للضفة –وكانت بارتفاع أعلى منسوب تصل إليه مياه النهر إذا ما حان مَوْسم الفيضان– بدت الأرض مسطّحا من الرمال ينحدر إلى حافة الماء، تظهر عليه آثار أقدام الطيور المائية، كما لو كانت نقوشا دقيقة. وأقبلتْ القروياتُ يَحملْن الجرار ليملأنها للمرة الأخيرة قبل هبوط الظلام، فتطلعن بأعين فضولية إلى الباخرة.. وكانت المتمسّكات بالحياء منهن يرسلن النظرات من وراء أقنعتهنّ المسْدلة على وجوههن.. أما ذوات النفوس الجريئة، فقد تخلصْن من هذه الحُجُب!.. وراح الصبية يرقصون ويصيحون على الضفة، ساخرين من الباخرة وهي في مأزقها، بعد أن كانت تمر بهم من قبل، شامخة بأنفها في الهواء!

وانحدرت الشمس للمغيب وراء الرمال. وكان "**رامش**" يقف عند حاجز السفينة، مُسَرّحا بصره عبْر النهر إلى سماء الغرب وهي تتوهج بآخر أشعة الشمس الآفلة، حين خطت "**كمالا**" من وراء سياج المطبخ ووقفت لدى باب القمرة، ثم سعلت في صوت خافت لتنبه "**رامش**". فلما لم يلتفت، تناولت حزمة المفاتيح، وأخذت تهزها وتتعمد ارتطامها بالباب!. واضْطُرت إلى أن تعنف في الهزّ، قبل أن يلتفت "**رامش**"، حتى إذا رآها، اجتاز سطح السفينة إليها، وقال:

– إذن فهذه طريقتك في ندائي؟".

– لم تخطر ببالي طريقة أخرى!

– وكيف؟.. لماذا تظنين أن أهلي أطلقوا عليّ اسما، إذا لم يكن هذا الاسم للنداء؟.. لمَ لا تصيحين عاليا: "يا "**رامش بابو**"!"، إذا أردتني لأي أمر؟.

واستنكرت منه –مرة أخرى– هذا اللون غير المستساغ من الدعابة.. أفيليق بالزوجة الهندوكية أن تخاطب زوجها باسمه؟.. وضارعتْ حمرة خديْ "**كمالا**" حمرة الشمس الآفلة، وصاحت وهي تشيح بوجهها:

– لستُ أفقه ما تقول.. ألا اسمع، إن عشاءك معد، فيحسن بك أن تُقبل لتناوله، فإنك لم تحظ بفطور طيب اليوم!"... وكانت نسمات النهر قد أيقظت شهية "رامش"، وإن لم يقل لـ"**كمالا**" شيئا بهذا الصدد، خشية أن تظلم نفسها بإيثاره بالقسط الأوفر من الطعام. على أن رضاءه تضاعف حين دعتْه للعشاء دون أن ينبهها إلى جوعه. ومن الصحيح أن هذا الرضا كان راجعا –في أحد عناصره– إلى توقع إشباع الجوع المادي، ولكن كان هناك عنصر آخر، تمثل في لذة الشعور بأن ثمّة من كانت تفكر فيه، وتعمل من أجله!.. ولم يستطع أن يخفي عن نفسه إدراك هذا العنصر، ولكنه برغم ذلك كان مُضْطَرا إلى أن يواجه الحقيقة الممضّة، التي كانت تذكّرُه بأنه لم يكن صاحبَ الحق الشرعيّ في هذه الرعاية التي

قدرها أعظم تقدير، والتي قامت على أساس من وهم زائف!.. وتنهدَ في أسى، وهو يلج القمرة مثْقل القلب. وما كان وجومه ليخفَي على "**كمالا**"، فقالت في دهشة: "لا يبدو عليك أنك راغب في العشاء.. لقد توقعت أن تكون جائعا... إني آسفة إذا كنت قد تعجلتك دون رغبة منك!".. فسارع "رامش" إلى التظاهر بالسرور، وقال:

–ما تعجلتني أنت، وإنما جوعي هو الذي جاءني.

ثم تلفّت حوله هاتفا: "عجبا!.. ولكني لا أرى شيئا يؤكل. صحيح أنني جائع، ولكني لا أحسب معدتي تقوى على هضم شيء كهذا!.. وأشار إلى أغطية الفراش وأثاث القمرة، وهو مسترسل في القول:

– لم أتعود منذ نشأتي مثل هذا الغذاء!

وانفجرت "**كمالا**" ضاحكة، حتى إذا تمالكت نفسَها قالت: "عجيبٌ منك ألاّ تصبر الآن قليلا، في حين أنك كنت في شغل عن الأكل والشرب وأنت تسَرح ببصرك نحو الشمس الغاربة!.. فهل استيقظت شهيتك فجأة عندما ناديتك؟.. حسنا.. انتظر دقيقة واحدة، ريثما أحضر لك الطعام.. فقال: ألا فاسرعي، وإلا فلا تلومي غير نفسك إذا أنا التهَمْتُ أغطية الفراش!.. ولم يخفف التكرار من تأثير النكتة. فانطلقَتْ "**كمالا**" مقهقهة، وأخذ جرس ضحكتها الفضّي يجلجل في القمرة بعد أن بارحتها لتحضر الطعام.. بينما غاض مرح "**رامش**" بمجرد أن أولتْهُ ظهرها!.. وسرعان ما عادت "**كمالا**" تحمل الطعام، فمسحت الأرض بطرف ثوبها، ووضعته عليها. وهتف "**رامش**":

– ماذا تفعلين؟. فقالت وهي تكشف عن بعض الكعك المقليّ، والخضر:

– لا بأس، فإنني سأغير الثوب حالا". وصاح "**رامش**":

– مرحى!.. من أين حصلت على الكعك المقليّ؟.. ولم تبد رغْبة في أن تطلعه على السر في الحال، إذ أجابت في تكتم:

– احدس!.. واندفع "**رامش**" يذكر عددا من الافتراضات الخيالية التي كانت "**كمالا**" ترفضها في استنكار، ومالبثَ في النهاية أن قال:

–لابد أن "**علاء الدين**" – صاحب المصباح السّحْري في "**ألف ليلة وليلة**"– قد أرسل ماردَه فاحضرها لك ساخنة من "**بلوخستان**"!.

وإذ ذاك نَفذَ صبرُها، فتحولتْ مستاءة منه، قائلة: إنها لن تصارحه بالحقيقة حتى يكف عن هذا المزاح. وهنا قال في رجاء:

–لقد عجزتُ عن التخمين، فانبئيني.. الحق أنني لا أدري كيف استطعت أن تحصلي على كعك مقليّ، ونحن في عُرض النهر.. على أنه كعك لذيذ، على أية حال؟.. وأبدى عمليا مدى إعجابه الذي جعل شهيته تتغلّب على فضوله!

*****

– وكانت الحقيقة تتمثل في أن "**كمالا**" انتهزت فرصة وقوف السفينة لانخفاض مياه النهر، فأوفدت "**أومش**" إلى أقرب قرية ليبْتاع ما يعوّض القدر الذي استهلك من المؤونة. إذ كان قد تبقى معها عدد من الروبيات التي نالتها –كمصروف لها– من "**رامش**"، حين ذهبت إلى المدرسة: ومن ثم طلبت بعض الدقيق والمسلي، ثم سألت "**أومش**"، عندما جاءها بما طلبت: وماذا تبتغي لنفسك؟... فقال:

– لقد لمحت بعض اللبن الخثر "الرايب" عند لبّان في القرية، ولدينا كثير من الموز الأخضر في القمرة، فإذا ابتعت مع اللبن بعض الأرز المسحوق، صنعت لنفسي عصيدة رائعة!..

وأشفقت "**كمالا**" على الصغير، فسألته:

– هل تبقت معك نقود؟.. ولكنه أجاب:

– لم يبق شيء!

وكانت هذه هي المشكلة!..

فقد كانت "**كمالا**" تأبى أن تطلب من "**رامش**" نقودا. ومالبثت بعد قليل من التفكير أن قالت: "حسنا، إذا لم تستطعْ أن تنال عصيدتك اليوم، فعليك بالكعك المقليّ: هيا وساعدني في إعداد العجينة. ولكنه عاد يسألها: "واللبن الخثر يا أماه؟". فقالت: "اسمع يا "**أومش**"... انتظر حتى يتناول سيّدك العشاء، فانبئه بأنك تريد نقودا لشراء بعض لوازم لنا".

وفيما كان "**رامش**" في منتصف وجبته، ظهر "**أومش**"، ووقف يحُكّ رأسه في ذلة، فلما تطلّع إليه "**رامش**"، تمتم: "جئتُ بشأن نقود لشراء اللوازم يا أماه".. وفطن "**رامش**" فجأة إلى أن المرء لن يجد قوتا ما لم ينفقُ من ماله، وأنه لا يملك "**مصْباح علاء الدين**" حتى يغنيه عن الإنفاق، فهتف: "حقا يا "**كمالا**".. ما أظن أن لديك نقودا!"... فتعللت "**كمالا**" بأنها نسيت أن تطلب. وحين فرغ "**رامش**" من عشائه، أسلمها خزانة صغيرة بها نقود، وقال:

–يحْسُنُ بك أن تحفظي نقودنا ونفائسنا في هذه الخزانة إبانَ رحلتنا".

وإذ تبينّ "**رامش**" أن منطق الظروف أصبح يقتضي إلقاء اعباء تدبير حاجات الأسرة على "**كمالا**"، عاد إلى موقفه لدى سياج السفينة، ووقف يتأمل آخر فلول النور وهو يخبو في الناحية الغربية من السماء، بينما أسرع "**أومش**" إلى القرية، وعاد فقام بإعداد "العصيدة" التي كان يشتهيها، وانكبّ عليها يلتهمها. وفي خلال ذلك، وقفتْ "**كمالا**" تسْتَدْرجُه حتى ألمت بطرف عن حياته.. كان ابنا غير مرغوب فيه، في بيت تسيطر عليه زوجة أب، فهرب من الدار، وكان في طريقه إلى "**بنارس**" حيث يقيم أحد أقارب أمه.. وقال الغلام: "لو سمَحْت لي بالمقام معك يا أماه، فلن أفكّر في الذهاب إلى أي مكان آخر!"..

وحرّك قوله –في نفس "**كمالا**"– غريزةَ الأمومَة الكامنَة في أعماق قلب كُل فتاة، لاسيما حين راح يخاطبها بلقب "أماه" في سذاجة بريئة، فقالت تطمئنه:

–حسنا يا "**أومش**" ستصحبنا!

الفصل الخامس والعشرون

- لاحتْ الشجيْرات التي كانت متناثرة على ضفّة النهر كسياج معتم أحاط بالسماء التي اصْطَبغَتْ بالوان الشفَق. وأقبل البط -في أسراب تُحلّق خلال الظلمة التي كانت تجمع أطرافها- عائدا من رحلته اليومية في موارد قوته، إلى مواطنه الليلية في البرك والبحيرات المنعزلة وسط الضفاف الرملية، كما عادت الغربان إلى أوكارها، وهي تُرسل صياحَها في الجوّ. وجنحت كل القوارب إلى البرّ، عدا مركب كبير شُدّ إلى الشاطئ في صمت، فبدتْ كلطخة سمراء على صفحة الخضرة الذهبية التي استحال إليها النهْرُ الساكن. وسحب "رامش" مقعدا من الخيزران إلى مقدمة الباخرة، وجلس في الضوء الخافت المنساب من الهلال الجديد. وابتلعتْ ظلال الليل آخر خيوط الشفق في الغرب، وبَدَا وجه الأرض وكأنه يذوب في ضباب شفاف ينيره ضوء القمر الواهن. وتمتم "**رامش**":

- "**هيم**"!، فإذا الاسم الحبيب يَلتفّ حول قلبه في حنان ناعم. وتجسم لفظ الاسم في صورة لعيني الحبيبة المفقودة وقد تألقتا بحنان ملائكي، وأخذتا ترمقانه خلال ضباب حالم، وهما تسْكبان ما كان يكمُنُ فيهما من أسى، فَسرتْ رجْفة في جسد "**رامش**" وترقرق الدمع في عينيه.

وانبَسَطَتْ حياته خلال العامين الماضيين أمام عينيه. تَذكّر أوّل لقاء له بـ"**همناليني**".. ما خطر له ببال في تلك المناسبة، أن ذلك اليوم سيكون من الأيام الحاسمة في حياته!.. كان "**جوجندرا**" قد اصطحبه إلى داره، فارتبك الشاب الخجول حين رأى "**همناليني**" على رأس مائدة الشاي. مالَبثَ الحياء أن فارقه رويدا، فبدأ يرتاح إلى صحبتها. وعندما أخذت الألفة بينهما تزداد وتنْمو، خُيّل إليه أنّ كل ما قرأ من أشعار الحُبّ والهوَى، إنما نُظمَ من أجل "**همناليني**" وحدَها. وبدأ يزهُو -في قرارة نفسه- حين أحسّ بأنه صريع الغرام، وراح يرْثي لزملائه الذين كانوا مضطرين إلى استذكار قصائد الحب ليؤدوا امتحاناتهم، في حين أن الحب غدا بالنسبة له حقيقة واقعة، حيّة!

وتبين إذ ذكر هذا، أنه كان في تلك الأيام يقف على عتبات الحب!.. ولم يتّخذْ غرامه بـ"**همناليني**" شكلا حقيقيا، ولا غدا نابضا حيا، إلا عندما ظهرت "**كمالا**" فجأة على مَسْرح حياته، فجعلت هذه الحياة لغزا لا سبيل إلى حله!.. وأسند "**رامش**" رأسه إلى يده، وهو مستغرق في التفكير، وامتدّتْ صفحة الحياة أمامه.. حياة حافلة بجوع القلب.. جوع لم يحظ قط بالشبع!.. حياة مخلوق هوَى في شباك يحاول جاهدا أن يُحَرر نفسَه منها!... أليس بوسعه أن يمزق هذه الشّباك، إذا هو استجمع قواه؟.. ورفع رأسه في أوج الحماس، وإذ ذاك لمح "**كمالا**" تقف جد قريبة منه، وقد استندت بذراعيها إلى ظهر مقعد آخر. وأجفلتْ إذ رفع رأسه، وهتفتْ: "لابد أنك كنت نائما، وهانت ذا قد استيقظتَ!..وهمّتْ بان تتحول عنه وقد نَفِذَ صبرُها، لولا أن ناداها: "لا بأس يا "**كمالا**"،

لم أكن نائما.. تعالي فاجلسي، وسأروي لك قصة!" .. واستهواها ذكر القصة، فقرّبت مقعدها من مقعده، واستقرّت إلي جواره. وكان "رامش" قد عَقَد العزم على أن ينبئها بالحقيقة كلها، ولكنه خشي أن تكون الصدمة أقسى من أن تحتملها إذا ما أَزْجَى إليها باعترافه دون تمهيد.. ومن ثمّ كانت فكرة القصة التي منّاها بها!

*****

– شرع "رامش" يروي القصة قائلا: "كانت هناك ذات مرة قبيلة تُسمّى قبيلة "**الراجبوت**" ..، وهنا سألته "**كمالا**" : "متى كان ذلك؟.. في سالف الأوان؟.. قال:

– أجل، منذ زمن بعيد.. لم تكوني قد ولدتُ بعد!.. فقالت ساخرة:

– أما أنت فكُنتَ قد وَلدتَ طبعا، فأنت كهْل كبير. أليس كذلك؟.. وبعد؟.. فاستأنف الحديث:

– وكان لهؤلاء "**الراجبوت**" عادة خاصة.. فعندما يُقْدم أحدهم على الزواج، لا يذهب بنفسه إلى دار عروسه، وإنما يرسل إليها سيفه. وكانت العروس تمضي في طقوس الزفاف مع السيف، ثم تنتقل إلى بيت الزوج وتُزف إليه شخصيا!.

"**كمالا**" : آه!... لعمري!.. ما أغربها من طريقة للزواج!"

"**رامش**" : "إنني شخصيا لا أكاد أتصورها، ولكن هذا ما كان يحدث!.. هكذا جاء في القصة.. والظاهر أن أولئك "**الراجبوت**" كانوا يروْن أن الذهاب بأنفسهم إلى العروس أمرٌ لا يليق بهم!... وكان الملك الذي تدور حوله هذه القصة ينتمي إلى هذه القبيلة، ففي ذات يوم..."

"**كمالا**" : "ولكنك لم تذكر لي في أي بلد كان هذا الملك؟.

"**رامش**" : "كان ملك "**مادورا**"... ففي ذات يوم...

قالت "**كمالا**"، في إصرار على أن تعرف كلّ شيء بدقة وإيضاح:

– يجب أن تَذْكر اسمه أولا!" .. ولو أن "**رامش**" فطن إلى هذا الاتجاه منها، لاستعدّ للأمر قبل أن يقدم عليه. وأدرك أنها رغم تلهفها على سماع القصة، لن تفلت أية صغيرة ولا كبيرة، مالم تكن واضحة.. وعاد يواصل رواية القصة بعد تَردّد وجيز: "كان اسمه "**رانجيت سينغ**" .. فردّدت "**كمالا**" :

–"**رانجيت سينغ**"، ملكُ "**مادورا**" .. وبعد؟.

"**رامش**" : في ذات يوم، سمع الملك من شاعر رحّالة، أن لملك آخر من نفس جنسه، ابنة رائعة الجمال..

"**كمالا**" : وفي أي بلد كان ذلك الملك؟!

"**رامش**" : لنفترض أنه كان ملك "كونجفرام!

"**كمالا**" : ولماذا نفترض؟.. ألم يكن ملك "كونجفرام" بالفعل؟.

"**رامش**" : بلاشك!.. أتُحبّين أن تعرفي اسمه أيضا؟... كان اسمه "**آمار سينغ**" !

"**كمالا**" : ولكنك لم تنبئني باسم الفتاة.. الابنة الرائعة الجمال.

"**رامش**" : "آسف، إذ نسيتُ ذلك.. كان اسمُها.. كان اسمها.. آه، أجل.. كان اسمها "**تشاندرا**" !

"**كمالا**" : إن نسيانك للأمور عجيب!.. ولكن، ألم تنس اسمي من قبل؟!

"**رامش**" : حسنا.. عندما سمع مَلِكُ "**أود**" هذا من الشاعر...

"**كمالا**" : أي ملك "**أود**" هذا؟.. ألمْ تَقُلْ أنه كان ملك "**مادورا**" ؟

"**رامش**" : ما أظنك تحسبين أنه كان ملكا لبلد واحد!.. كان ملك "**أود**" و"**مادورا**" معا!

"**كمالا**" : لعلهما كانا متجاورين، إذن!

"**رامش**" : أجل. كانَا متلاصقين!.. وراحت "**كمالا**" -خلال القصة- تلتقط النقاط المتعارضة، وتكشفُ نواحي النقص. على أنه ما لبث في النهاية أن استكمل كلّ شيء، فمَضَى يروي لها هذه الخرافة: أوفد "**رانجيت سينغ**"، ملك "**مادورا**"، رسولا إلى ملك "**كونجفرام**" يطلب إليه يد ابنته الأميرة. فبادر "**آمار سينغ**" إلى الموافقة.. وإذ ذاك، سار "**أندراجيت سينغ**" -شقيق "**رانجيت**" الأصغر- على رأس جنوده إلى مملكة "**آمار سينغ**"، رافعا الأعلام، مَحُوطا بضجّة الطّبول والمزامير، وضَرَبَ خيامه في ساحة قصر الملك. وأقامت مدينة "**كونجفرام**" الأفراح احتفالا بهذه المناسبة السعيدة. ورصد الفلكيون التابعون للملك كواكبهم، وحددوا يوما وساعة محفوفين بالسعد، ليتم فيهما الزواج. وكان الموعد هو الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الثانية عشرة من النصف المظلم من الشهر. وفي تلك الليلة، ازدانت كل الدور بأكاليل الزهور، وتلألأت الأنوار في المدينة، احتفالا بزواج الأميرة "**تشاندرا**"...

ومع ذلك فإن الأميرة لم تعرف من هو الزوج الذي قُدّر لها، إذ كان الحكيم "**برامننندا سوامي**" قد أعلن لأبيها عند مولدها نبوءة قال فيها: "إن أحد الكواكب يُنذر بشرّ يَحيقُ بابنتك. فعندما يَحينُ لها أن تتزوج. حَذَار من أن تكشف لها عن اسم الرجل الذي ستقترن به!".. ومن ثمّ، تمتْ مراسمُ الزفاف مع السيف، وقدّم "**أندراجيت سينغ**" الهدايا التقليدية نيابة عن الزوج، وقدّم آيات الولاء لزوجة أخيه. وكان "**أندراجيت**" عظيمَ الوفاء لأخيه، فلم يرفع طرفه إلى وجه الحسناء النبيلة التي كانت حُمْرة الخجل تكسو أساريرَهَا وراء قناعها، وإنما ثبت عينيه على قدميها البديعتين المخضّبتين بالحنّاء!.. حتى إذا كان اليوم التالي للاحتفال، رفع "**أندراجيت**" الأميرة إلى محَفّة وثيرة مرصعة باللآلئ، وانطلق بها إلي بلده. ووضع ملك "**كونجفرام**" يَده على رأسها يباركها مودّعا، وقلبه منقبض إذ تَذكّر كوكب النحس الذي يتهدد طالع ابنته. ولم تتمالك الملكة دموعَها وهي تُقَبّل شفتيْ ابنتها. واجتمع ألْفُ كاهن في المعابد، يرددون الصلوات لدفع المصير المنحوس عن العروس.

وكانت "**كونجفرام**" جد بعيدة عن "**مادورا**" .. كانت الرحلة بينهما تستغرق شهرا تقريبا. فلما كانت الليلة الثانية، ضرب "**الراجبوت**" خيامهم على ضفاف نهر "**فيتشا**". وكانوا يتأهبون للنوم، عندما بَدتْ أضواء مشاعل في غابة مجاورة، فأوفد "**أندراجيت**" أحد حُرّاسه يَسْتَطلعُ الخبر، فعاد الرجل يقول: "مولاي، إن الأنوار لجماعة مثلنا عائدة من زفاف، وهم من أبناء قبيلتنا "**الرجبوت**"، يرافقون عروسا يقلونها إلى بيت زوجها، ويَصْطحبون حُرّاسا مسلحين. ولما كانت الطريق غير مأمونة، فإنهم يلتمسون من سموكم أن تبسطوا عليهم حمايتكم، ويرجون أن تسمحوا لهم بمرافقتنا في جزء من الطريق" .. فأجاب الأمير:

– إن الشهامة تجعل نجدة أولئك الذين ينْشُدون الحماية واجبا مقدسا. فلندافع عنهم بكل ما أوتينا من قوة.. وهكذا، اتّحد الفريقان..

وكانت الليلة الثالثة هي آخر ليالي النصف المظلم من الشهر. وبلغ الفريقان بقعة تحفّ بها سلسلة من التلال –من الأمام– وغابة كثيفة من الخلف. وما إن ضُربت الخيام، حتى استغرق الجنودُ المنهوكو القوى في النّعاس، بين زَقْزَقة العصافير الصدّاحة، وخرير المياه. وفجأة، انبعثت جلبة أيقظت الجميع من سُباتهم، واندفعت الجياد تجري وهي جامحة، خلال معسكر "**مادورا**"، إذ سرحتها أيد خفية من عقالها. وشبّتْ النيران في بعض الخيام، فارتفعت ألسنتُها تضيء صفحة السماء المعتمة. وسرعان ما أدرك الجنودُ أن عصابةً من الأشقياء هاجمَتْهُم. ودار قتال مستميت. وكان من المتعذّر في الظلام أن يميز أحد عدوه من صديقه، الأمر الذي مَكّن للفوضى من أن تضرب أَطْنَابَهَا. وفي غمرة الاضطراب والفوضى، حمل قُطّاع الطريق كلّ ما كان في المعسكر، وانطلقوا فاختفوا بأسلابهم في التلال..

وعندما انتهى القتال، لم يعثر أحد للأميرة على أثر، فقد هَربتْ في ذعرها من المعسكر، وانضمّت إلى جماعة من الهاربين ظنتهم قومَها. ولكنهم كانوا في الواقع من الجماعة التي كانت ترافق العروس الأخرى. وكان قطاع الطريق قد اختطفوا هذه العروس في غَمْرة الفوضى، فظنّت الجماعة أن الأميرة "**تشاندرا**" هي عروسهم، وانطلقوا بها إلى بلدهم بأقصى سرعة في وسعهم. وكانوا ينتمون إلى عشيرة مغمورة من قبيلة "**الراجبوت**"، تقيم على ساحل "**كارناتيك**". وما لبثت الأميرة أن التقت بزعيم العشيرة، وكان اسمه "**تشيت سينغ**" .. وهو الزوج الذي كان يَرْتَقبُ العروس الأخرى. ورحبت أُمّ "**تشيت سينغ**" بالفتاة، ورافقتها إلى مخدعها، بينما كان القوم يردّدون فيما بينهم: "ما رأينا قط مثل هذا الحُسْن!".

ووجد "**تشيت سينغ**" أن عروسه كانت منحة من السماء، فأحبّها من أعماق قلبه، وتَدلّه في هواها. وكانت الأميرة من ناحيتها تعرف ما يجب على الزوجة الفاضلة، فعزمت على أن تكرس حياتها لخدمة "**تشيت سينغ**" ظنا منها أنه زوجها. وإنْ هي إلا أيام، حتى ارتفع عنهما الحياء والخجل والكلفة.. وإذا "**تشيت سينغ**" يستبين خلال أحاديثهما أن الفتاة التي أخذها في داره كزوجة، لم تكن سوى الأميرة "**تشاندرا**".

الفصل السادس والعشرون

- قَالَتْ "**كمالا**" ملهوفَةً: وبعد؟، كانت القصة قد مَلَكَتْ عليها حواسها. وأجاب "**رامش**":
-الواقع أنّي أجهل نهاية القصة، فلست أعرف منها شيئا بعد. نبئيني أنت، ما الذي تظنينه حدث في النهاية؟.. قالت:
- لا، لا.. ليس هذا من الإنصاف في شيء.. لابد لَكَ أَنْ تروي لي ما بقي... فهتف:
- عجبا يا "**كمالا**"!.. إنما أصدقك القول!.. لم يُنْشَر من الكتاب الذي أخذتُ عنه القصة، سوى جزئه الأول، ولا أدري متى يُنْشَرُ الجزء الثاني!.. فصاحتْ في استياء: "ما أشدّ لؤمك!.. ماكان أسوأ هذا!".
"**رامش**": خليق بك أَنْ تحنقي على المؤلف.. على أنني لا أريد سوى أن أوجه إليك هذا السؤال: ما الذي يجدر بـ"**تشيت سينغ**" أن يفعله بـ"**تشاندرا**"؟.
وفكرتْ "**كمالا**" طويلا، وقد سرّحتْ بصرَها في النهر، ثم قالت في النهاية:
-لستُ أدري ما الذي يخلق به أن يفعله.. لا أستطيع أن أهتدي إلى رأي.. فتردد "**رامش**" لحظة، ثم قال:
- هل يصارح "**تشيت سينغ**" الأميرة بكل شيء؟
- ما أعجب ما تقول!.. إذا لم ينبئها، فسوف تترتب على الصمت ورطة فظيعة.. ستكون العاقبة بشعة!.. لذلك فمن الخير أن يخبرها بالحقيقة!
وردَّد "**رامش**" عبارتها وقد شَرَد ذهنه:
- من الخير!
وصَمَتَ برهة، ثم قال:
- حسنا يا "**كمالا**".. لنفرض...
"**كمالا**": ما الذي نفترضه؟
"**رامش**": هَبي أنني كنت "**تشي سينغ**"، وانك "**تشاندرا**"!.
"**كمالا**": أرجو ألا تقول لي مثل هذا الكلام، فلستُ أحبه!
"**رامش**": ولكن لابد لي من قوله!.. ما واجبي في هذه الحال، وما واجبك؟
ولم تجبه "**كمالا**"، بل نهضتْ بغتة عن مقعدها وغادرته. وألفت "**أومش**" جالسا لدى باب القمرة، يتأمل النهر في صمت، فسألته:
- هل قُدّر لكَ يوما يا "**أومش**" أن ترى شبحا؟.. قال: أجل يا "أماه"، رأيتُ شبحا!..فقالت وهي تجرّ مقعدا منخفضا من الخيزران وتجلس إلى جواره:
- وماذا كان شكل هذا الشبح؟.. حدّثني عنه.

*****

– وإذ خلا "**رامش**" إلى نفسه، قرر الا يدعو "**كمالا**" لتعود، إذ لم يخامره شك في أنها غضبت أشد الغضب، فايقن انه لن يسْتطيع استرْضاءها في اللحظة الراهنة!

ومالبثتْ الرقعة الضئيلة من الهلال الوليد أن تَوَارَتْ خلف عيدان من الغاب على البر. وكانت أضواء الباخرة قد أطفئت، وأوى الملاحون إلى مخادعهم، ولم يكن ثمَّة ركاب آخرون في القمرات. أما ركاب الدرجة الثالثة، فقد هبطوا إلى الشاطئ ليطهوا عشاءهم. وعلى بعد، كانت أضواء شارع القرية تبدو هنا وهناك، خلال الشجيرات والعيدان. وأخذ تيار الماء يداعب سلسلة المرساة "الهلب"، وكان يعنف –بين وقت وآخر– فيهز السفينة باسرها. ومَضَى "**رامش**" في هذا الوسط الغريب –تحت قبة الليل المترامية– يجاهد في عناء، ليحل عقدة المشكلة العويصة التي واجهه بها ضميره. كان من الواضح أن لابد له من أن يتخلى عن إحدى الفتاتين: إما "**كمالا**"، وإما "**همناليني**"، فما كان ثمَّة حلّ ممكن يستبقيهما معا في حياته.. لا، وما كان ثمَّة شك في الطريق التي يدعو الواجب إلى اتباعها. وكان لـ"**همناليني**" الخيار: فلها أن تقصيه عن ذهنها وتمنح يدها لخطيب آخر.. أما أن يتخلى عن "**كمالا**"، فقد كان معنى هذا أن يُلْقي بها في الدنيا وهي عارية، عَزْلاء!.. ومع ذلك، فما أشد أنانيّة الرجل!.. فإن "**رامش**" لم يجدْ عزاءً في احتمال نسيان "**همناليني**" إياه، وفي أن لها من الموارد ما لا يجعل حياتها متوقفة عليه!.. بل إن هذه الفكرة أهاجتْ حنينه إليها. وخُيّل إليه أن طيفها راح يحوم أمام بصره، ولكن غيرَ بعيد عن متناوله بحيث لم يكن عليه سوى أن يميل إلى الأمام، باسطا ذراعيه، ليُمْسك بصاحبته!

وأسلم رأسه إلى راحتيْه وهو مستغرق في التفكير، وانبعث على البعد عواء ذئب أيقظ كلاب القرية، فارتفع نباحها بغير انقطاع. وإذ ذاك رفع "**رامش**" رأسَه، فإذا "**كمالا**" تقف على مقربة منه، مستندة إلى سياج الباخرة في جنح الظلام، فنهض عن مقْعَده قائلا: "أو لم تَلُوذي بعد بمخدعك يا "**كمالا**"؟.. فسالته بدورها: "ألن تذهب أنت إلى الفراش؟

– إنني ذاهب لتوي.. سابسط فراشي في القمرة التي في الجانب الأيمن من سطح السفينة، فلا تنتظريني. وجرّتْ "**كمالا**" قدميها في صمت إلى القمرة التي خُصِّصتْ لها. ولم تطاوعها نفسها على أن تذكر لـ"**رامش**" أنها قد استمَعَتْ إلى قصة عن الأشباح، فاصبحت تخاف الوحدة. وخفق قلب "**رامش**" إشفاقا حين رأى ما في خطواتها من تلكؤ، فصاح بها: "لا تخافي يا "**كمالا**".. ساحتل القمرة الملاصقة لقمرتك، وسأترك الباب الذي بينهما مفتوحا.. فرفَعَتْ "**كمالا**" رأسها في شَمَم وقالت:

–وما الذي يحملني على الخوف؟.. على أن "**رامش**" احتل القمرة المجاورة، وما لبث أن أطفأ المصباح، واسْتلقَى على فراشه وأخذ يقول لنفسه: "ليس بوسعي قط أن أهجر "**كمالا**"، ومن ثَمّ فوداعا يا "**همناليني**"!.. هذا قراري النهائي، ولن أحيد عنه!.. ولكنه في رقدته –في الظلام– راح يتحسر على ما كان يخسره بهجران "**همناليني**". ومالبث أنْ عجز عن احتمال افكاره، فوثَبَ من فراشه، وغادر قمرته. وأوحى إليه الظلام الدامس المخيّم،

بأن أساه وعذاب قلبه ليسا بلا نهاية، وليسا في امتداد الزمن والفضاء!.. وتَطَلّع إلى السماء المعتمة.. إن النجوم اللامعة أشياء بعيدة، ولن تصل إليها قط قصة حب "رامش" و"همناليني"، إذ إن هذه القصة على مافيها من أسى، تضاءل بالنسبة إلى النجوم ولا تتطاول إليها!.. وكم من ليال خريفية، سيظل النهر ينساب فيها خلال المجرى المحوط بالرمال، تحت ضياء النجوم، وبين أعواد الغاب المترنّحة، على مقربة من القرية التي تحفّ بها الشجيراتُ.. بعد أن تكونَ أنفاسُ "رامش" قد خمدت، وجسده الفاني قد أحرق وتحول إلى رماد يختلط بالثرى الدائم!

الفصل السابع والعشرون

- استيقَظَتْ "كمالا" في جوف الليل، فلما تلفتت حولها تبينت أنها كانت وحيدة. ومرت دقيقة أو اثنتان، قبل أن تذكر أين كانت، ثم انسحبت من فراشها، وفتحت باب القمرة وأطلت خلاله. كانت تخيّم على الماء الساكن غلالة من ضباب أبيض، وشاب الظلامَ طيفٌ من بياض مغبر، إذ بدأ الفجر يبتسم في السماء خلال الأشجار التي حفّت بالضفة الشرقية. وفيما كانت في تأملها، لاحت أشرعة مراكب الصّيد، وقد بدأت تُوشّي صفحة النهر. وشعرت "كمالا" بانقباض يغزو قلبها، دون أن تدرك مبعثه.. لمَ كان منظر صباح الخريف بضبابه يثير الأسى في فؤَادها؟.. ومن أين كانت تلك العَبَرَات التي تزاحمتْ في صدرها، وتدافعت إلى حلقها، وأوشكت أن تجتلب الدّموع إلى عينيها؟.. ولماذا أصبحت تَأسَى على حياتها الماضية؟.. كانت قد نسيت منذ أربع وعشرين ساعة أنها وزوجها يتيمان، وأن ليس لها من أقارب أو معارف، فما الذي جعلها الآن تشعر بالوحدة؟.. ألم يك "رامش" كافيا لأن يملأ عليها حياتها؟.. لماذا يمضّها الشعور بعظم الكون وبضآلتها هي؟!

وفيما كانت في وقفتها الشاردة على عتبة الباب المفتوح، بدا سطح النهر يتألق كصفحة متارجحة من ذهب. واستأنف الملاحون أعمالهم، وأخذت محرّكات الباخرة تدور، وأيقظت جلجلة السلاسل وضجيج الآلات صبية القرية، فاقبلوا إلى الشاطئ. واستيقظ "رامش" كذلك، فأسرع إلى باب قمرته ليَطْمئنّ على "كمالا". وأجفلتْ مأخوذة حين رأته. ومع أنها كانت تبسط قناعها على وجهها، إلا أنها حاولتْ أن تُخْفيَ عنه محيّاها تماما، فسألها: "هل اغتسلت يا "كمالا"؟.. وبدا السؤال بريئا، خاليا من كل تأنيب، ومع ذلك فإنها استاءت منه، وهزّت رأسها وهي تَنْأى بنفسها.. فعاد "رامش" يقول:

- لن يلبث القوم أن يصعدوا إلى السطح، فيحسن أَنْ تُسْرعي!.. ولم تُجبْ "كمالا" بشيء، بل تناولت الثوب الذي اعتادت أن ترتديه في النهار، وسارتْ إلى الحـمّام، وهي مغضبة.. فإن استيقاظ "رامش" مبكرا ليرشدها إلى نظافتها، أمر بَدَا لها غير ضروريّ.. بل إنها رأت فيه شيئا من مجافاة الذوق!.. وكانت -منذ البداية- قد فطنتْ إلى أنه رسم لنفسه في معاملته إياها حدًا لا يتجاوزه، ولا يُمْعنُ في رفع الكُلْفَة بعده.. وما كان من حظّها يوما أن جلست عند قدمي حماة تلقنها أصول السّلوك، ومتى يقتضي الأدب والحياء أن تخفض حجابها.. ومع ذلك، فقد غالبها الخجل في حضور "رامش" في ذلك الصباح!

وعندما عادت "كمالا" إلى قمرتها بعد الاغتسال، وجدتْ عملها اليومي في انتظارها، فتناولت حزمة المفاتيح من طرف مئزرها الملقى على كتفها، وأقبلتْ تفتح الحقيبة التي كانت تحتوي على ثيابها، فإذا بها تلمح الخزانة الصغيرة التي كان "رامش" قد عهد بها إليها. لقد بدتْ لها هذه الخزانة بالأمس مبعث سرور جديد، فإن وجودها في حوزتها بعث

في نفسها شعورا بالسلطان والاستقلال، وقد غَيّبَتْها في الحقيبة بحرص، وكأنها تُخْفي كنزا ثمينا. ولكن السرور الذي كانت تبعثه الخزانة في نفسها، نضب في ذلك الصباح!.. وحدثتها نفسُها بأن هذه الخزانة ملك لـ"رامش" -وليستْ لها هي- رغم كل شيء.. فهي ليست حرة التصرف فيها، وليس بوسعها أن ترى فيها أكثر من مسؤولية ملقاة على عاتقها!.. ودخل "رامش" القمرة في تلك الأثناء، فقال لها في عجب: "إنك بادية الوجوم اليوم، فهل وجدت في الحقيبة شبحا، حين فتحتها؟.. ولكنّها مَدّتْ إليه يدها بالخزانة قائلة: "هذه خزانتك!. فسألها: وماذا أفعل بها؟.

– ليس عليك إذا احتجتَ إلى شيء سوى أن تأمرني فآتيك به!

– ولكن.. ألن تحتاجي أنت الأخرى إلى نقود؟

فهزت رأسها في كبرياء وهي تقول:

–لست بحاجة إلى نقود.

وابتسم "رامش" قائلا: ما أندر من يقولون قولك!.. ومع ذلك، فإذا كنت لا ترين للنقود قيمة، فلماذا لا تمنحينها لأي غريب؟.. لماذا تعطينيها من دون جميع الناس؟..

فوضعتْ "كمالا" الصندوق على الأرض في صمت. وعندئذ قال:

– ألا صارحيني بالحقيقة يا "كمالا".. أأنت مغضبة لأنني لم أرو لك نهاية القصة؟..

أجابت وقد غضّتْ بصرها:

– لسَتُ غاضبة!

"رامش": إذن فاحتفظي بهذا الصندوق فلن أوقن من أنك صادقة، إلا إذا فعلت ذلك!

"كمالا": لست أرى بين الأمرين علاقة. إنه ملك لك، فخليق بك أن تحتفظ به!

"رامش": ولكنه ليس ملكا لي!.. إن الذين يستردون هباتهم، يصبحون أشباحا إذا ما ماتوا. فهل تريدين أن أكون شبحا؟

ولم تستطع أن تكبح الضحك لهذه الفكرة، وقالت:

– لا، بالتأكيد!.. ولكن، أحقا يصبح الذين يستردون الهدايا أشباحا؟ ما سمعت بهذا من قبل".

وقضى ضحكها على الخصام!.. وقال "رامش":

– لا يمكن التأكد من صحة ذلك إلا بطريقة واحدة.. هي أن تسألي أحد الأشباح بنفسك إذا ما صادفته!. وأثار قوله فضولها، فسألته:

– أحقا يرى الناس الأشباح.. هل رأيت شبحا حقيقيا يوما ما؟.

– لم أر شبحا حقيقيا، ولكنني رأيت كثيرا من الأشباح الزائفة. فإن الشيء الحقيقي نادر!

"كمالا": ولكن "أومش" يقول...

"رامش": "أومش".. ومن يكون "أومش"؟

"كمالا" : "عجبا! .. الصبي الذي يرافقنا. لقد رأى شبحا!.
"رامش" : "إذن، فإني أعترف بأنه قد تفوّق عليّ بهذه الميزة.

*****

– وكان الملاحون قد وُفّقوا بعد جهود كبيرة إلى تعويم السفينة، في تلك الأثناء. ولكنها لم تكن قد بعدتْ عن الشاطئ مسافة تُذْكَر، حين بدا على الشاطئ صبيّ يحمل سلة في إحدى يديه، وقد أخذ يعدو بأقصى سرعته، ويُلوّح بذراعه الأخرى للباخرة كي تقف، ولكن الربّان لم يعبأ. وإذ رأى الصبيُ "رامش" راح يصيح به: "بابو! .. بابو!". فقال "رامش":

– لعله يظنني محصّل التذاكر! .. وأشار إليه بأن لا سلطان له على الباخرة. ولكن "كمالا" هتفتْ: عجبا، إنه "أومش"! لا ينبغي أن نتركه.. يجب أن تأمر بإحضاره إلى السطح". فقال:

– ولكنهم لن يقبلوا أن يوقفوا الباخرة من أجلي".. وصاحت "كمالا" في أسى صادق: بل يجب أن تأمرهم بالوقوف! .. ألا قل لهم!. إننا جد قريبين من الشاطئ. ومن ثم أسرع "رامش" إلى الربان يرجوه، فكان الجواب الذي تلقاه: إن القانون يمنعنا يا سيدي. وكانت "كمالا" قد لحقت به، فانضمت إليه في الرجاء، قائلة:

–ما ينبغي أن نتركه! .. ألا قفوا لحظة! .. يا لولدي "أومش" البائس!.

على أن "رامش" لم يلبث أن جنح إلى أسلوب بسيط في مغالبة رفض الربان. وبعد منحة طيبة، أوقف الرجل المركب، وسَمح للصبي بأن يصعد إلى سطحها ثم أقبل يُهيل عليه اللوم والتأنيب، ولكن "أومش" لم يتأثر بشيء، وإنما وضع السلة عند قدمي "كمالا" وهو يبتسم، وكأن لم يحدث شيء. وإذ ذاك قالت "كمالا"، ولم تكن قد تمالكت بعدُ نفسها من الإشفاق الذي غشيها من أجله:

–ليس في هذا ما يضحك. ما الذي كان يحدث لك لو أن الرجل رفض الوقوف؟.
وبدلا من أن يجيب "أومش"، أفرغ محتويات السلة على سطح السفينة، فإذا بها حزمة من نبات الطلح، وكمية من "السبانخ"، وعدد من القرع والباذنجان. وسألته "كمالا": من أين أتيت بكل هذا؟.. ولم يكن ردّه من النوع الذي يَرضَى عنه الشرطة. فلقد لاحظ عندما ذهب إلى القرية لإحضار اللبن الخثر والأشياء الأخرى –في اليوم السابق– أن هذه الخضر كانت موفورة في كثير من الحدائق وعلى كثير من أسطح الدور، ومن ثم هبط مبكرا إلى البر في ذلك الصباح، منتهزا فرصة وقوف السفينة، وأخذ ينتقي ما أعجبه دون إذن من أحد!

وصاح "رامش" في غضب:
–كيف تسوّل لكَ نفسك السرقة من حدائق الناس؟
– ماهذه بالسرقة.. إنما أخذتُ قسطا ضئيلا من كل حديقة ولن يُضَار أحد من ذلك!

– إذن فاقتصارك على أخذ مقادير ضئيلة لا يعد سرقة!.. يا لك من أفّاق! اغرب عن وجهي، وخُذ معك هذه الأشياء!

وتطلع "**أومش**" إلى "**كمالا**" في ضراعة، وهتف:

– إن هذا النوع من السبانخ يا أماه ينمو في بلدي، وهو من أشهى الأنواع..، ولكن "**رامش**" صاح فيه وقد اشتدّ غضبه:

–امش من هنا أنت وسبانخك، وإلا ركلتُ كل شيء فالقيتُ به في النهرَ.. وعاد "**أومش**" يتطلع إلى "**كمالا**" يرتقب منها إرشادا، فأشارت إليه بأن يجمع الخضر ويحملها من المكان. وفهم من مسلكها أنها لا تزال تحتفظ له بركن شفوق من قلبها، فجمع الخضر وردها إلى السلة، ثم سار مبتعدا عن المكان بينما قال "**رامش**" لـ"**كمالا**" وهو يسير إلى قمرته ليكتب رسالة: "كان هذا المسلك خطأ منه، وما يجب أن ترضي عن مثل هذا العمل!.. وتلفتتْ "**كمالا**"، فرأتْ "**أومش**" يجلس في مؤخرة السفينة، خلف سطح الدرجة الثانية، وبالقرب من مطبخها. ولما لم يكن يشغل الدرجة الثانية راكب، فقد سعتْ "**كمالا**" إلى حيث كان الصبي يُجلس، بعد أن أسدلت قناعها، وسألته: "هل رميت الأشياء في البحر. قال:

– لا بل هي هنا. فقالت محاولة أن تُبدي شيئا من الحزم والصرامة:

– كان هذا العمل منك ذنبا كبيرا، كما ترى، فلا تعد إليه ثانية. فكّر فيما كان يجري لو أنك تُركتَ على الشاطئ!. وسارت إلى مطبخها، ثم صاحتْ:

– ناولني سكينا!، فلبّى "**أومش**" طلبها، وانهمكت "**كمالا**" في تقشير الخضر وتقطيعها. وقال الصبي:

– إن الخردل المسحوق "المستردة" يزيد من لذة طعم هذا السبانخ يا أماه.. فقالت:

–حسنا.. اصحن قدرا من الخردل إذن!

وحرصت على ألا تُبدي تلطفا لتشعره بذنبه، ومن ثَمّ راحتْ تُقطع السبانخ والقرع والباذنجان، وهي عابسة. وماذا كانت تملك سوى أن تعبس لهذا الصبي البائس!.. والواقع أنها كانت ترى سرقة الخضر أمرا تافها، لا سيما والغلام شريد، بلا أهل، فهو يصبو إلى الرعاية!... ثم إن في ذنبه ناحية هفتْ بقلبها، فما أقدم التعس على الإغارة على الحدائق، مُعرّضا نفسه للتّخلف عن الباخرة، إلا لكي يُرضيها.. لذلك لم تلبث أن قالت:

– هناك بعض اللبن الخثر المتخلّف من الأمس يا "**أومش**"، فعليك به. ولكن، تذكر أنك يجب ألا تعود قط إلى مثل الذنب الذي ارتكبته!.. فسألها في تقرُّب يمحو به أثر إثمه:

– ألم تتناولي من ذلك اللبن أمس يا أماه!

– لست أحبه كثيرا مثلك. ألا اسمع، إن لدينا كل شيء، إلا السمك. فكيف نستطيع أن نحصل على بعض السمك لفطور سيدك؟

– أستطيع أن آتيك بسمك يا أماه، على أن تدفعي هذه المرة ثمنا. والفت نفسها

مُضطرّة إلى تَقْريعه مرة أخرى، فقالت وهي مقطبة الجبين: "ما رأيتُ ولدا أغبَى منك يا "**أومش**".. كأنما طلبت منك شيئا من قبل، دون أن ادفع له ثمنا!.. والواقع أن ما جرى في اليوم السابق كان قد أوحى إلى "**أومش**" بان "**كمالا**" كانت تجد أن الحصول على نقود من "**رامش**" مهمة عسيرة، ومن أجل هذا، أحسّ في سريرته بنفور من مخدومه. ولم يزده هذا إلا قُربى من "**كمالا**" وانسجاما معها، فلم يكن لـ"**رامش**" مكان بينهما، في رأيه!

*****

– إذا كانت الظروف قد أثبتتْ أن الحصول على الخضر أمر سهل، فإن الحصول على السمك لم يكن بهذه السهولة. ولاح للصبيّ المولع بـ"**كمالا**"، أن هذه الدنيا لا تستحق من الإنسان عطفا، لأنها قامتْ على نُظم لا تمكن المرء من الحصول على قدر صغير من السمك أو من اللبن الخثر لإرضاء عزيز يحبه، إلا بالمال!..

وقال يهون على "**كمالا**": لو استطعت ان تحصلي من السيد على خمس "**آنات**" "عملة هندية" فقط، لاستطعتُ ان آتيك بحزمة كبيرة من السمك!. ولكن "**كمالا**" أجابته مؤنبة: "لا ينبغي أن أسمح لك بمغادرة الباخرة مرة أخرى. فلو أنك تأخرتَ لما سمحوا لك في هذه المرة باللحاق بنا!.. فهتف: ولكنني لن أهبط إلى البر. لقد اصطاد الملاحون بشباكهم قدرا كبيرا من السمك في هذا الصباح، وفي وسعهم أن يبيعونا بعضا منه. وإذ ذاك، ناولته "**كمالا**" "روبية"، وقالت: إذن ادفع الثمن من هذه، وأعد إليّ الباقي. وسرعان ما رجع "**أومش**"، بالسمك، دون بقية من النقود، قائلا:

– لقد أبوا أن يتقاضوا ثمنا أقل من روبية..

وادركت "**كمالا**" أنه لم يكن صادقا، فقالت مبتسمة: "سنعمل –حين تقف الباخرة في المرة القادمة– على أن نستبدل بعض العملات الصغيرة بعدد من الروبيات. وتصنع الصبيّ الجد، قائلا: "هذا ما ينبغي فعله. فإنك ما تكادين تُظهرين روبية أمام هؤلاء القوم، حتى يضعوا نصب أعينهم أن يفوزوا بها كاملة!".

وبعد قليل، جلس "**رامش**" إلى فطوره، فما كاد بصره يقع على الطعام، حتى صاح: "مرحى!.. هذا بديع!.. ولكن، من أين جئت به؟.. عجبا، ها هو ذا رأس سمكة.. لا، ما هذا بحلم، ولا هو من خداع البصر في شيء، بل ليس من مداعبات الخيال، وإنما هذا رأس سمكة بالتأكيد!".. وكان الفطور في ذلك اليوم رائعا حقا. فلما استلقى "**رامش**" –بعد أن انتهى منه– في مقعد طويل على ظهر السفينة، ليُتيح لمعدته أن تتولى هضم الطعام في هدوء، حان دور "**أومش**"، فإذا هو يستمرئ طاجن السمك إلى درجة عظيمة، حتى إنه راح يأكل في نهم، فخشيتْ عليه "**كمالا**" أن يتخم، وصاحت به: "لا تزد على ما أكلت الآن يا "**أومش**".. لقد أبقيتَ قسطا منه لتتناوله في العشاء!".. وسرعان ما انتزعها نشاطها، ومرحها الذي لا ينضب، من غمرة الاكتئاب الذي غَشيَها في الصباح. وانصرم

اليوم، وأخذت الشمس تنحدر إلى المغيب. وفي الدروب الضيقة التي كانت تتخلل الخضرة النامية على ضفّتي النهر، أخذتْ الريفيات يتقاطرن إلى المجرى، مسندات جرارهن إلى أردافهن. وقضت "**كمالا**" فترة الأصيل في إعداد طعام من طلح الموز، ثم اغتسلتْ، وعقصت شعرها، وارتدت ثيابا نظيفة.

واختفتْ الشمس وراء أحراش الغاب التي تقوم كمعالم تُرشد إلى القرى الواقعة على الضفتين، ورسَتْ الباخرة في إحدى المرافئ التي اعتادتْ أن تجنح إليها في الليل. وكانت "**كمالا**" قد تفقدتْ ما بقي من الخضر وألفته كافيا للعشاء -دون ما حاجة إلى طهو جديد- حين أقبل "**رامش**" معلنا أنه قد أسرف في الأكل أثناء الغداء، فلم يعد في حاجة إلى عشاء. وسألته في أسف: "ألن تتناول شيئا على الإطلاق.. ولا سمكة صغيرة، مقليَّة؟". فأجابها في اقتضاب: "لا، شكرا لك". ثم انصرف مبتعدا، فعمدت "**كمالا**" إلى وضع كل ما تبقى من الطعام في طبق "**أومش**"، فسألها الصبي: "ألم تستبقي لنفسك شيئا؟.. فكان ردّها: "لقد تناولتْ عشائي".. وبهذا انتهى عملها في ذلك اليوم، في مطبخها العائم!

*****

- وكان قمر الشهر الجديد قد أسْبغ ضياءه على النهر والبر. ولم تكن ثمَّة قرية قريبة من محطة الباخرة. وبدا الليل الصامت. المتألق السنا، كحارس ساهر، أو كسيدة لم يوافها حبيبها في موعد اللقاء، على خضرة حقول الأرز المترامية!.. وعلى مقعد بسيط، في كوخ ذي سقف من الصفيح على الضفة، جلس كاتب كهل، ضئيل الجسم، يجمع أرقاما على ضوء مصباح بتروليّ. وكان "**رامش**" يراه خلال الباب، فتنهد قائلا لنفسه: "ليت القدر يضعني في مثل كوخ هذا الكاتب.. كوخ ضيق ولكن الحياة فيه واضحة المعالم!.. أي ضرر يحيق بالمرء في حياة كهذه: أقضي اليوم كله في تسجيل الحسابات، وأتلقى لوم المخدوم إذا ما ارتكبتُ أخطاء، ثم أعود إلى البيت في الليل، وقد أديتُ عمل يومي؟!..
وكانت "**كمالا**" تقف وراءه -بجوار السياج- منذ فترة، ولكن "**رامش**" لم يك شاعرا بوجودها. كانت قد توقعت أن يناديَها ليسمر معها بعد الغروب، وقد فرغت من عملها، ولكنها لم تتلق نداء ما، ومن ثم تسللتْ من قمرتها إلى سطح الباخرة في هدوء، حتى إذا شاهدتْه، جمدتْ في مكانها فجأة، وأبت أوصالها أن تحملها خطوة أخرى!.. وكان القمر يرسل أشعته على وجهه، فأظهرت أساريره أن ذهنه كان بعيدا.. بعيدا عنها!.. وخُيِّل إليها أن بين "**رامش**" -وهو مستغرق في أحلامه- وبين نفسها، يقوم شبح الليل كديدبان جبّار، ملتف من رأسه إلى قدمه في غِلالة من ضوء القمر، وقد رفع أصبعا إلى شفتيه!

وعندما دفن "**رامش**" وجهة في راحتيه، وترك رأسَه يستند إلى المنضدة التي أمامه،

تسـلـك "**كـمـالا**" عائدة إلى قمرتها، دون أن تجرؤ على إصدار أي صوت، حتى لا يسمعه ويتبين أنها جاءت تبحث عنه! وبدت قمرتها مظلمة، مقبضة للنفس، فارتعشت حين اجتازت عتبتها، واجتاحها شعور بأنها مهجورة، وحيدة. وخيل إليها أن جوف الغرفة الصغيرة، المظلمة، فم انفرج فكاه وكأنه وحش غريب، ولكن.. أين تجد ملجأ سواه؟.. لم تكن ثمَّة بقعة تريح فيها جسدها الضئيل، وتغمض عينيها، وهي تشعر أن هذه البقعة ملك لها، ومن حقها وحدها!.. وحدّقتْ في القمرة المظلمة، ثم تراجعتْ. وفيما هي تتجاوز العتبة، وقعت مظلة "**رامـش**"، فارتطمت بحقيبة من الصاج. وأفزع الصوت "**رامش**"، فوثب عن مقعده، ثم هتف حين رأى "**كمالا**" واقفة في مدخل قمرتها: "أهذه أنت يا "**كمالا**"؟.. ظننتك قد أويت لمخدعك منذ زمن. أخشى أن تكوني قد تأخرت عن موعد نومك، بل يُخيَّل إليّ أنك منفعلة.. لن أمكث على السطح طويلا، وإنما سآوي سريعا إلى القمرة الملاصقة لقمرتك، وسأترك الباب مفتوحا بيننا".. فقالت "**كـمـالا**" في ترفّع: "لست خائفة!". وخطتْ في عجلة إلى داخل قمرتها، وأغلقت الباب الذي كان يربط بين القمرتين، ثم ألقتْ بنفسها على السرير، ولفّتْ وجهها في "شال". واشتد شعورها بوحدتها، وببعدها المطلق عن كل أنيس، فإذا كل كيانها يهب ثائرا!.. إذا كان قد قدر عليها ألا تحظى بالرجل الذي يحميها من كل ما يخيفها، وألا تكون -من ناحية أخرى- سيدة نفسها، فأية حياة هذه؟.. إنها حياة لا تطاق!

*****

– ومرّ الوقت. واستغرق "**رامش**" في النوم، في القمرة المجاورة، ولم تعد "**كمالا**" تقوى على مغالبة خوفها، فنهضتْ ببطء، ثم سارتْ إلى سياج السفينة، وراحت تتأمل شاطئ النهر، فلم تر أو تسمع ما ينمّ عن وجود مخلوق حيّ. وكان القمر يوشك على الغروب، ولم يعد في الوسع تبيّن الدروب الضيقة المتغلغلة خلال الحقول. وحدثت نفسها قائلة: "كم من نساء حملن الماء خلال هذه الدروب، وقد سعت كل منهن إلى بيتها؟!.. البيت!.. وقفز قلبها للفكرة!.. آه، لو كان لها بيت في أي مكان!... ولكن، أين؟... ولاحت ضفتا النهر وكأنهما تمتدان في الفضاء إلى مالا نهاية. وفوق رأسها، كانت القبة الهائلة -قبة السماء- تمتد بلا حدود. ولكن، ما قيمة الأرض والسماء على سعتهما!.. كل هذا الكون الشاسع لم يكن -بالنسبة لهذه الذرة الآدمية!- ذا نفع.. فما كانت تصبو إلا إلى.. بيت صغير!

وجـزعت "**كـمـالا**" إذ فطنتْ إلى شخص بجوارها. وإذا صوت "**أومـش**" يقـول: "لا تخشي يا أماه.. هذا أنا!"، فقالت:

– إننا في ساعة متأخرة، فلماذا لم تَنَم؟... ومالبثت الدموع أن انسابت من مقلتيها..

ولم يكن ثمة داع لقمعها، فتساقطت في قطرات كبيرة. وأشاحتْ "**كمالا**" بوجهها، لتخفيَ دموعَها عن "**أومش**". وكما أن السحابة المثقلة بالماء تهيم في السماء، حتى إذا التقت بزميلة هائمة -تتمثل في نسمة باردة- عجزتْ عن أن تستبقي حملها ، فترسله مطرا.. كذلك كانت حال "**كمالا**"!.. فما إن سمعتْ رنّة العطف في لهجة الصبي المشرَّد، حتى عجزت عن قمع دموعها التي انبثقت من فؤادها. وحاولت أن تتكلم، ولكن الشهقات خنقت صوتها. وتلفت "**أومش**" حوله يبحث في حيرة عن وسيلة لمواساتها.. وظل صامتا فترة، ثم قال في استحياء: "لقد نسيتُ أن أقول لك يا أماه إن ثمة سبع "**أنات**" تبقت من الروبية"!

وجففتْ "**كمالا**" دموعها، وابتسمتْ وقد خفق قلبُها لسذاجة الطفل، ثم قالت: ابقها معك!.. ثم أردفت: والآن، اجر إلى فراشك!

وغاص القمر خلف الأشجار. وفي تلك الليلة، أغمض النعاس عيني "**كمالا**" بمجرد أن أسلمتْ رأسها إلى الوسادة. وعندما أرسلت الشمس أشعتها الحامية في الصباح، تأمر الأرض باليقظة، كانت "**كمالا**" مستغرقة في سبات عميق!

الفصل الثامن والعشرون

- بدأتْ "**كمالا**" يومها التالي متثاقلة، تشعر بالخور، وقد خُيِّل إليها أن الشمس فقدت إشراقها، وأن النهر كان ينساب آسيا والأشجار على الضفة تتهالك على نفسها!.. فلما أقبل "**أومش**" ليساعدها في عملها، قالت له في إعياء: لا يا "**أومش**"، لا تشغل بالك اليوم بعمل!.. ولكن "**أومش**" لم يكن سهل الانصياع، إذ قال: "لن أزعجك يا أماه.. إنما جئتُ لأصحن لك التوابل.. ومالبثت نظرتُها الحزينة أن اجتذبتْ انتباه "**رامش**" حين أقبل، فسألها: هل تحسين بتوعّك يا "**كمالا**"؟.. ولكنه لم يتلق جوابا، بل ندتْ عن "**كمالا**" إشارة من رأسها نَمّتْ عن اعتقادها بأن سؤاله مُصطنَع، ومُستهجَن، ثم تحولت عنه إلى المطبخ. وتبين "**رامش**" أن كل يوم يزيد مشكلته تعقيدا، وأن من الواجب ألا يتأخر في حلها أكثر من ذلك. وانتهى إلى أنه لو استطاع أن يُفضي إلى "**همناليني**" بما في نفسه لسهُل عليه أن يقرر الواجب الذي ينبغي عليه أداؤه. ومن ثمّ جلس -بعد تفكير طويل- يكتب للفتاة. وقضى وقتا يكتب، ثم يمحو ما يكتبه!.. ومالبث أن سمع صوتا غريبا يسأله: "هل لي أن أسالك اسمك يا سيدي؟".. فالتفت مأخوذا، وإذا به يرى سيدا متقدما في السن، ذا شاربيْن أشْيبيْن، وشعر خَفّ نموه عند الجبين. وكان ذهن "**رامش**" مركزا في الخطاب، فلم يستطع أن يستجمع قريحته فورا. وقال الغريب: إنك براهميا.. ألست كذلك؟... صباح الخير. إنك تُدعى "**رامش بابو**" وهذا جُلّ ما عرفت عنك. إن سؤال المرء عن اسمه هو أولى خطوات التعارف في بلادنا، فهو في الواقع لون من المجاملة، ولكن الناس يستاءون من ذلك في هذه الأيام، فإذا كنتُ قد أسأتُ إليك، فأرجو أن تردّ عليّ الإساءة، مع الفوائد!.. سلني أجبك ذاكرا اسمي، واسم أبي أيضا.. بل إنني لا أجد مانعا -في الواقع- من ذكر اسم جدي كذلك!

وضحك "**رامش**" قائلا: "إنني لم أستأ إلى هذه الدرجة!.. يكفيني أن تذكر لي اسمك"، فقال الرجل: اسمي "**ترايلاكيا تشاكرا بارتي**" وكل امرئ على امتداد النهر يلقبني بـ"العم". وما أظنك إلا قد درستَ التاريخ، وعرفت أن "**بهاراتا**" كان الملك "**تشاكرا بارتي**"، أي الملك الأعظم.. إمبراطور "**هندوستان**". وكذلك "**العم تشاكرا بارتي**" -أي أنا- في كل الريف الغربي، ولابد أن تسمع عني كلما أوغلت في الغرب. وبهذه المناسبة يا سيدي، إلى أين أنت راحل؟".. فقال "**رامش**": "لم أقرر بعد أين أبرح الباخرة"، فقال "**ترايلاكيا**": "لا حاجة تدعوك إلى الإسراع في مبارحة الباخرة!"... وعاد "**رامش**" يقول: "لقد سمعتُ الباخرة ترسل صفيرها وأنا أبرح القطار في "**جوالوندو**"، ثم تحققتُ أنها لن تنتظر حتى أقرر وجهتي، ومن ثم عمدتُ إلى العجلة، حيثما تستحب العجلة!". قال "**ترايلاكيا**": "إنني أرفع قبعتي احتراما لك يا سيدي، فأنت من النوع الذي أعجب به. إنك على النقيض مني. كان لابد من أن أقرر قبل أن أصعد إلى الباخرة، لأنني

شخص غير سريع البتّ، ومن ثمّ فإنني أحترم الرجل الذي يستطيع أن يقرر الصعود إلى الباخرة قبل أن يعرف وجهته. هل زوجتكَ على الباخرة يا سيدي؟... وشعر "**رامش**" بتردد طارئ قبل أن يجيب. ولاحظ "**تشاكرا بارتي**" تردّده، فقال: "يجب أن تغفر لي، ولكنني علمتُ -من أوثق مصدرا- أنها على الباخرة. فقد كانت زوجتُك الطيبة تطهو، حين جرني جوعي إلى مطبخها، فقلت لها: "لا تخجلي مني يا سيدتي، فأنا العم "**تكرا بارتي**" من ريف الغرب".. ويالها من زوجة شابة، كاملة!.. واستطرد قائلا: "أرى أن لديك مطبخا، ولما كنت لا أجد من يُعنَى بي. فأرجو ألا تضني علي بنصيب من خيراتك".. فابتسمت ابتسامة عذبة أكدت لي أنها ستكون حفيّة بي، وإن متاعبي قد انتهت. ولعلك تعرف أنني دائما أبحث عن يوم سعيد، في التقاويم الفلكية، قبل أن أبدأ أية رحلة. ولكنني لم أصب قط ما أصبتُ في هذه الرحلة من حظ!.. أرى أنك مشغول، لذلك لن أعطلك أكثر مما عطلتك. فإذا سمحت لي، ذهبت فساعدت زوجتك الصغيرة، إذ يجب ألا تتلف يديها الجميلتين بمحرك النار وأنا هنا. أرجو ألا تنهض من مكانك بل امض فيما تكتب، فأنا أعرف كيف أقدم نفسي". ثم سار العم "**تشاكرا بارتي**" إلى المطبخ!

وقال وهو يَلِجُ المطبخ: "هناك رائحة زكية تنبعث من هذا المكان وفي وسع المرء أن يقول إنها لطاجن أرز بالسمك، قبل أن يتذوقه!.. على أنني أرى واجبا عليّ أن أصنع لك "سلطة لبن"، فليس مثل الذين يعيشون في حرّ الشمال الغربي من يجيد صنع هذه السلطة!.. أعرف ما يدور بخلدك، فإنك تعجبين من حديث هذا الكهل، ومن زعمه أنه يستطيع أن يصنع "سلطة لبن" بدون تمر هندي!.. حسنا، لا تشغلي بالك بشأن "التمر هندي"، فهو معي هنا.. اصبري لحظة ريثما أتخذ استعداداتي!.

وأحضر الكهل جرة صغيرة ملفوفة بالورق، ثم قال: "إذا ما صنعت "سلطة اللبن" فخذي منها ما تحتاجين إليه في يومك، واحتفظي بالباقي لأربعة أيام، ثم تذوقيه، وسوف ترين أن العم"**تشاكرا بارتي**" لا يغالي في الزهو، حين يقول إنه يستطيع أن يعد "سلطة اللبن"!.. والآن، اجري فاغسلي يديك، فقد حان وقت الفطور، وسأتولى عنك ما بقي من مستلزمات الطهو.. ولا تقلقي، فإني واسع التجربة، إذ إن زوجتي ضعيفه الشهية. ومن ثم تعلمت صنع "سلطة اللبن" لأحاول أن أثير شهيتها. إنك تضحكين من الشيخ المسن، ولكنني لا أمزح، بل هذا هو الحق!".. فقالت "**كمالا**" مبتسمة: "إذن فعليك أن تعلمني صنعها!".. وإذ ذاك هتف الشيخ: "مهلا!.. إنني لا أنزل عن معرفتي بهذه السهولة!.. إن ربّة المعرفة ستغضب مني إذا بددتُ كرامة المعرفة بالنزول عنها في أول أيام تعارفنا، بل لابد أولا من أن تتملقي الشيخ لثلاثة أيام أو أربعة. ولا تشغلي بالك في البحث عن طريقة لإرضائي، فسوف أرشدك إلى هذا. القاعدة رقم ١: أنا مشغوف بطلح الموز، ولكنني لا أحب أن أمضغ كل ورقة. وليس من السهل على امرئ أن يغزو قلبي، ولكنك مضيْت بعيدا في هذا

الغزو يا عزيزتي، بفضل وجهك المليح. أهلا بك، ما اسمك يا صبي؟"

ولم يجب "أومش"، إذ لم ترق له ألفة الشيخ، وما كان ليتقبل فكرة وجود من يزاحمه في عواطف "كمالا". على أن الشيخ مضى قائلا: "إنه ولد لطيف!<.. إنه لا يُطلعك فورا على ما يجول بخاطره ولكنني أؤكد لك أننا لن نلبث أن ننسجم معا. والآن، ينبغي ألا نضيّع مزيدا من الوقت، بل لابد من أن أسرع في استكمال الطهْو!".. وهكذا ملأتْ صحبة الشيخ الفراغ الذي كان قائما في وجود "كمالا"، كما كان ظهوره مبعث ارتياح لـ"رامش". فمن المؤكد أن الفارق بين مسلك "رامش" الراهن، وبين الألفة المطلقة التي سادت علاقته بـ"كمالا" في الأشهر القلائل الأولى –حين كان يعتقد أنها زوجته– قد جرح شعور الفتاة، ومن ثمّ كان خليقا به أن يرحب بكل ما يحوّل فكر الفتاة عنه، لا سيما وأن هذا يُتيح له أن ينصرف إلى التفكير في علاج لآلام قلبه!

وفيما كان "رامش" منفردا بنفسه، وهو يجتر أفكاره، ظهرت "كمالا" لدى باب قمرتها. كانت تعتزم أن تستأثر بصحبة "تشاكرا بارتي" خلال فترة الأصيل الطويلة، التي لم يكن لديها ما يشغلها فيها. ولكن، ما إن رآها الشيخ، حتى هتف: "هذا لا يليق يا عزيزتي. إنه لا يكفي!".. وأجْفلت لقوله، وأدهشتْها لهجتُه. وإذ ذاك قال الشيخ مجيبا عن التساؤل الذي بدا في عينيها: "إنما أعني حذاءيك بالطبع.. هذا ذنبك يا "رامش بابو". قُل ما شئتَ، ولكن هذا ضلال!.. إن الذي يضع حائلا بين قدميه وأرض بلاده المقدسة، إنما يزدري بلاده!.. قد تضحك من قولي يا "رامش بابو"، فأنت لا تقتنع به، وهذا لا يدهشني، فكل شيء يُرتقَب من أولئك الذين يقفزون إلى سطح باخرة وهي تتهيأ للإقلاع، دون أن يحفلوا بتعرف وجهتها!".. وقال "رامش" إذ ذاك: "يحسن بك أيها العمّ، أن تقرر بنفسك أين تبرح الباخرة، فلسوف يكون لرأيك أثر يفوق صفير أية باخرة!".. فقال الشيخ: "عجبا، إننا لم نتعارف إلا منذ ساعات قلائل!.. حسنا، خليق بكم أن تهبطوا في "غازيبور". هل تأتين إلى "غازيبور" يا عزيزتي؟.. إنهم يزرعون هناك وردا جميلا.. وبها يعيش هذا الكهل المعجب بك!".. وتطلع "رامش" إلى "كمالا"، فهزتْ رأسها فورا، إعلانا لموافقتها!

ولزم "تشاكرا بارتي" و"أومش" قمرة "كمالا" خلال فترة الأصيل، بينما بقي "رامش" وحيدا في الخارج، مما جعل الشابة تشعر بالحرج!.. ومضتْ الباخرة تشقّ طريقها قدُما، والمناظر على الضفتين تتراجع مسرعة في وهج شمس الخريف، بعضها يمثّل حقول الأرز، وبعضها يمثّل مرافئ الشحن، ومنها المنحدرات الرملية، والأراضي الزراعية، ومنها الأسواق ذات السقوف المصنوعة من الصفيح.. وقد تناثر المسافرون –هنا وهناك– في جماعات صغيرة، تحت الأشجار الظليلة، في انتظار القوارب التي تنقلهم من ضفة إلى أخرى. وكانت قهقهة "كمالا" تنبعث من القمرة أحيانا، فتتناهىَ إلى أُذن "رامش" خلال السّكينَة الناعمة التي تسود أصيل الخريف، فيخفق قلبه، ويهمس لنفسه: "ما أجمل كل هذا. وما أبعده عن متناولي!".

الفصل التاسع والعشرون

– لا تجد المخاوف والشكوك والقلق، مكامن في القلب تترسَّب فيها، في مثل السن التي كانت فيها "**كمالا**". إذ سُرعان ما شعرتْ بالوقت يتخلّى عن تثاقله وينصرم سراعا، ولم تَعُد تجد ما يدفعها إلى أن تشغل بالها –في أسى– بمسلك "**رامش**" نحوها. وكان ضوء شمس الخريف يكشف البر بمختلف نواحيه ومناظره، والنهر يتخللها كشريط ذهبي متألّق. وأصبحت "**كمالا**" تجد في دورها –كربة بيت– متعة تسرها وأضحتْ الأيام في تواليها أشبه بصفحات جديدة في ديوان شعري من وحي السليقة، دون ما صنعة أو تنميق!.. وغدتْ تُقبل على عملها اليومي –في كل صباح– مُتحمّسة. ولم يعد "**أومش**" يتأخر عن موعد إقلاع الباخرة. وكان يعود من بعثاته دائما بسلة مفعمة، لم تعجز محتوياتها في أية مرة عن إثارة العجب في نفوس أعضاء الجماعة الصغيرة: "يا عجبا... انظروا القرع اليابس!.. ومن أين استطاع أن ياتي بهذا الفول؟.. انظر يا عماه، لقد أحضر لفتا مملحا! ما كنت أعرف أن المرء يستطيع أن يحصل على مثل هذا في البقاع الريفية!".

وهكذا كانت تتعالى صيحاتهم في دهشة، وهم منكبّون على السلة، في كلِ صباح!.. ولم تكن الزمجرة تُسمَع إلا عندما يكون "**رامش**" موجودا، إذ كان يرتاب دَوْما في أن الصبيّ يسرق.. فكانت "**كمالا**" تصيح: "كيف؟.. لقد عددْت النقود بنفسي قبل أن أسلمها إليه"، فيقول "**رامش**": "إن هذا يتيح له فرصة مزدوجة للسرقة: سرقة النقود، وسرقة الخضرا".. ثم يدعو إليه "**أومش**" ويساله حسابا عما أنفقه. وما كانت أرقام الصبي لتتفق مع المعقول بطبيعة الأمر، فلو أن المرء صدّق بياناته، لوجد أنه كان ينفق دائما أكثر من المبلغ الذي عهد إليه به. ولكن هذا لم يكن يزعج الصبي في شيء، بل كان موقفه كما عبّر عنه مرة لـ"**تشاكرابارتي**": "لو كنتُ أُجيد الحساب، لما وجدتموني هنا على الإطلاق، بل لكنت وكيل ضيعة.. أليس كذلك يا جدي؟".. فكان الشيخ يشفع له قائلا: "لنرجئ القضية يا "**رامش بابو**"، ريثما نتناول الفطور، فإنك لن تملك أن تصدر حكما سليما إلا بعده، وأنا لا أستطيع في الوقت الحاضر إلا أن أقف في صف الغلام. على أن فن التدبير ونيل المطالب ليس من الفنون السهلة يا "**أومش**"، والذين يستطيعون أن يمارسوه ليسوا كثرة. حقيقة إن الذين يحاولون، كثيرون، ولكن الذين ينجحون قلّة بينهم!.. إنني لا أملك سوى أن أُطري المواهب أينما صادفتُها يا "**رامش بابو**". فنحن نعرف مثلا أن الفول لا ينمو في هذا الفصل، وما أظن أن هناك كثيرا من الصبية الذين يستطيعون أن يأتوك بقدر منه في مثل هذا الصباح المبكر، وفي مثل هذا المكان الغريب.. إن الشك ميسور لكل إنسان يا سيدي، أما التدبير ونيل كل مُشتهًى، فهبة لا يحظَى بها سوى واحد في الألف من الناس!".

ويعقّب "**رامش**" على هذا قائلا: "إنك لتعرف أن هذا ليس صحيحا يا عمّاه، فلا ينبغي

أن تناصر الغلام!" . . فيصيح الشيخ: "إنه لم يؤتَ مواهب كثيرة، فإذا تركناه يتخلى عن هذه الموهبة، نتيجة الضنّ بالتشجيع، فسنندم على ضياعها قبل أن نبرح هذه الباخرة. اسمع يا "**أومش**"، ساحتاج غدا إلى بعض أوراق الّلبخ، ويحسن أن تجمعها من الأشجار العالية. إنني في حاجة إليها يا عزيزي، فهم يعتقدون أنني أجيد العلاج والتطبيب. ولكن، تعساً للطب. . إنني لا أفعل أكثر من التحايل على شغل الوقت! . . احرص على أن تغسل الورق جيدا يا "**أومش**".

وكان الصبي يزداد تعلقا بـ"**كمالا**"، كلما أسرف "**رامش**" في الارتياب فيه وتأنيبه. . وبمقدم "**تشاكرابارتي**"، أصبح فريق "**كمالا**" مستقلا عن "**رامش**"، إذ كان ثلاثتهم يعملون ويلعبون معا، في تعاطف يربط بينهم. ولقد سَرَتْ بعض عَدْوَى ولاء "**تشاكرابارتي**" لـ"**كمالا**" إلي نفس "**رامش**"، ولكنها لم تذهب به إلى درجة الاندماج في فريقها. كان كسفينة كبيرة، لا تستطيع أن ترسو على الشاطئ وإنما تضطر إلى أن تلقي مراسيها في عُرض الماء، ثم ترقب البر عن بعد، بينما تجنح القوارب والزوارق الخفيفة إلى الشاطئ بسهولة!

*****

– وأوشك القمر أن يكتمل بدرا، والباخرة ماضية في رحلتها. وفي ذات صباح، استيقظ ركابها ليجدوا السماء فوقهم مُدلهِمّة، مُثقلة بالغيوم، والريح شديدة الهبوب. وأخذ المطر ينهمر، والشمس تشرق في توال وتناوب. ولم يكن في عرض النهر من سفينة أخرى، وإن بدتْ بعض قوارب صغيرة جانحة إلى الشاطئ، والقلق يبدو في حركات ملاحيها. وكانت الريفيَّات اللائي هبطنَ إلى الشاطئ لملء الجرار، لا يمكثْنَ طويلا. وبين الفينة والفينة، كانت الرعشات تسْري في صفحة النهر، من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر، والباخرة ماضية تشقّ طريقها، و"**كمالا**" حريصة على ألا تدع هذه التقلبات تصرْفها عن واجبها في المطبخ. وقال لها "**تشاكرابارتي**" وهو يتأمل السماء: "قد لا تستطيعين أن تطهي الليلة شيئا، فيحسن بك أن تُعدّي طعام العشاء من الآن. ألا ضعي ""الكشري" على النار، ريثما أعد لك العجينة للخبز".

ولم يفرغوا من فطورهم–في ذلك الصباح– إلا في ساعة متأخرة وأخذت الرياح تشتد عنفا، شيئا فشيئا، والموج يعلو وينخفض. واختفت الشمس وراء جحافل السُّحُب، قبل موعد غروبها بأمد طويل، فلم ينتبه أحد إلى هذا الغروب. ثم ألقتْ السفينة مراسيها.

ومالبث الليل أن هبط، وأخذ القمر يبزغ من وقت لآخر خلال السحب المتراكمة، مرسلا إلى الكون ابتسامة واهنة! . . وهبَّتْ الريح في زوبعة، ثم انهمر المطر سيْلا دافقا. ولما كانت "**كمالا**" قد تعرضت للغرق يوما، فقد كان من الطبيعي أن يستبدّ بها الجزع، وقال "**رامش**"

يطمئنها: "لا داعي للخوف يا "**كمالا**"... إننا في أمان على سطح الباخرة، فاذهبي إلى فراشك ولا تقلقي. سأكون إلى جوارك في القمرة الملاصقة، ولن أستسلم للنوم فورا!".. وأقبل "**تشاكرابارتي**" إلى بابها قائلا: "لا ترتاعي يا عزيزتي، فلن تجسر العاصفة اللعينة على أن تمسّك بسوء!".. ولكن "**كمالا**" وثبت إلى الباب وصاحت ضارعة: "ألا ادخل واجلس بجانبي.. أرجوك يا عماه!".. وتردد "**تشاكرابارتي**"، ثم قال: لقد حان الوقت كي تستسلمي وزوجك للنعاس، فخير لي.. واجتاز العتبة وهو يتكلم، فسرعان ما تبين أن "**رامش**" لم يكن في القمرة. وإذ ذاك هتف في دهشة: "عجبا... أين "**رامش بابو**"؟.. ما أظنه ذهب ليسرق بعض الخضر في مثل هذه الليلة العاصفة!".. فواتاه صوت "**رامش**" صائحا: ؛أهلا.. أهذا أنت يا عماه!.. أنا هنا في القمرة المجاورة!".

وأطل "**تشاكرابارتي**" في القمرة الأخرى، فرأى "**رامش**" مستلقيا على الفراش، ملتفا في الأغطية، وقد انصرف إلى القراءة على ضوء المصباح، فقال له: "إن زوجتك الطيبة في قلق من وحدتها. ألا دع كتابك جانبا، فلن ترهب به العاصفة!.. تعال هنا!". واستولت على "**كمالا**" غريزة قوية سلبتْها سلطانها على نفسها، فصاحت في انفعال وبصوت مختنق، وهي تتشبث بيده: "لا، لا يا عماه!".. ولم يصل صوتُها إلى أذني "**رامش**" وسط زئير العاصفة، ولكن "**تشاكرابارتي**" سمعه، فالتفت في عجب واكتئاب. وترك "**رامش**" كتابه وأقبل على القمرة الأخرى متسائلا: "ماذا جرى يا عم "**تشاكرابارتي**"؟.. يبدو أنك و"**كمالا**".. فقاطعته "**كمالا**" وهي منفعلة، دون أن ترفع إليه بصرها: "لا، لا!.. إنما سألته أن يأتي فيؤنسني بحديثه!".. ولم تدر في الواقع ما الذي كانت تنفيه إذ صاحت: "لا، لا!"، ولكن الشعور الحقيقي الذي بعث النفي إلى لسانها كان يقصد: "تخطئ إذا ظننتَ أنني بحاجة إلى شخص يبدد خوفي.. لستُ بحاجة إلى أحد.. تخطئ إذا خلْتَ أنني أطلب رفيقا!".. وتحوّلتْ للشيخ قائلة: "إننا في ساعة متأخرة يا عماه، فخليق بك أن تأوي إلى فراشك. وأرجو أن ترى ما إذا كان "**أومش**" بخير، إذ أخشى أن يكون مرتاعا بسبب العاصفة". وواتاها صوْت الصغير من جوف الظلام في خارج القمرة: "لا شيء يروعني يا أماه!".. وظهر أن "**أومش**" كان يجلس خارج باب "مولاته" وهو يرتجف، فمسّ ولاؤه قلبها، وجعلها تخف إليه صائحة: "لسوف تبتلّ بالمطر يا "**أومش**"... أسرع فنم في قمرة العم، أيها الولد الشقي!". وأسرع الغلام طائعا، يصحب العم "**تشاكرابارتي**"، وقد أثقل قلبه أن وصفته "**كمالا**" بالولد الشقي، رغم لهجتها الرقيقة!

*****

– وسألها "**رامش**": "هل أُونسُكِ إلى أن تنامي؟".. فقالت "**كمالا**": "لا، اشكرك.. إن النعاس يثقل جفني". وأدرك الشابّ حقيقة ما كان يجول بخاطر الشابة، ولكنه لم يحاول أن يلحّ عليها، إذ رأى على محياها أمارات الكبرياء الجريحة، ومن ثمّ عاد في تثاقل

إلى قمرته. والواقع أن "كمالا" كانتْ في ذعر وانفعال يمنعانها من النوم، ولكنها أجْبرت نفسها على الاستلقاء في فراشها!

واشتدّت الأنواء باشْتداد العاصفة، فسهر الملاحون، وتوالت تعليمات الربان إلى غرفة المحركات، إذ إن المرساة لم تعد كافية لأن تشد الباخرة إلى مرساها، فأُديرت المحرّكات ببطء. ومالبثت "كمالا" أن نضتْ عنها الأغطية، وخرجتْ إلى السطح. وكانت الأمطار قد توقفت هنيْهة، ولكن الرياح كانت تعوي كمخلوق تنهال عليه السّيَاط!.. وكان البدر يُطلّ شاحبا من بين السحب التي كانت تجري أمام العاصفة كأشباح تنذر بالويل. وكانت ضفتا النّهر لا تكادان تظهران، بل إن النهر نفسه لم يكد يظهر للبصر!.. واختلطت السماء والأرض، والقريب والبعيد، والمرئي وغير المرئي، في كتلة هوجاء مالبثت أن اتخذت رويدا شكل الجاموسة السوداء التي يركبها مَلَك الموت.. تلك الجاموسة الرهيبة التي تشهر قرنيها في هياج!

وعجزت "كمالا" أن تحدد كنه الشعور الذي جاش في صدرها وهي تتأمّل السماء المعتمة، والليل الهائج. ربما كان ذلك الشعور هو الخوف.. وربما كان الفرح كذلك!.. كانت في ثورة الطبيعة قوة وحشيّة.. انطلاق جامح مسّ وترا خاملا في نفسها!.. لقد بهرها عنف ثورة الطبيعة. تُرَى، ضد مَنْ كانت تلك الثورة؟!.. ولم تسمع "كمالا" -في زئير العاصفة- جوابا واضحا. كان الجواب مُبهَما، كتلك الزوبعة التي هبّتْ في صدرها!.. كانت ثورة الطبيعة مجهودا لا شك فيه لتمزيق رباط غير مرئي، لا شكل له ولا حدود.. رباط من الخداع، والوهم، والغموض، يهزّ الأرض -من أسسها- مع صراخ العاصفة الرهيبة: "لا، لا!".. هذا الرفض البسيط، الصّريح، هو الذي كانت الزوبعة تصرخه وهي تندفع من أقصى الفضاء اللانهائي إلى جوف الليل البهيم!.. تُرَى ما الذي كانت ترفضه؟.. ولم تجد "كمالا" ردا ولا جوابا، وإنما ظل الصراخ يدوّي في سمعها: "لا، لا... أبدا.. لا، لا، لا!".

الفصل الثلاثون

- خَفّتْ وطأة الأنواء في اليوم التالي، وإن ظلت الريح محتفظة بقوتها، وأخذ الربان يُجيل بصره في السماء، وهو غير مستقر على رأي. وقام "**تشاكرابارتي**" بزيارة لـ"**رامش**" في القمرة المجاورة لقمرة "**كمالا**" في الصّباح الباكر، وكان "**رامش**" لايزال في فراشه، ولكنه لم يكد يراه حتى استوى جالسا. وإذ لاحظ الشيخ أن الشاب قضى ليلته في تلك القمرة، وتذكر ما حدث في الليلة الماضية، بدأ يشعر بأن في الأمر ما يريب، فقال متسائلا: "لعلك نمتَ هذه الليلة الماضية؟" .. وتفادى "**رامش**" الإجابة"، قائلا: "ياله من صباح عاصف!.. كيف قضيت ليلتك يا عماه؟"، فقال "**تشاكرابارتي**": "لعلك تظنني أحمق يا "**رامش بابو**"؟ فالواقع أن كلامي يوحي بذلك، بيد أني لم أصل إلى هذه السن، دون أن أتعرّض لكثير من المشكلات. ولقد استطعتُ أن أحل معظمها، ولكنك أصعب معضلة قابلتُها!" .. فتضرج وجه "**رامش**" على الرغم منه، ولكنه أسرع يتمالك نفسَه وابتسم قائلا: "هل من الجُرْم أن أكون مستعصي الحل يا عماه؟.. يبدو أنك تتعجل الحكم على ما لا تفهم. فعندما يلتقي المرء برموز غريبة، لا ينبغي له أن ينظر إليها قانطا، وأن ييأس من إمكان حلها؟.. فقال الشيخ: "اغفر لي يا "**رامش بابو**". قد يكون من الغرور الباطل أن أحاول فهم رجل لا أحظى بثقته... ولكن الحياة أحيانا تجمع المرء بأخ يميل إليه ويألفه من النظرة الأولى. إنني أستشهد بذلك الرجل ذي اللحية.. ربان باخرتنا فهو لابد يعترف أنه يعتبر زوجتك الشابة صديقة عزيزة. سَلْه، وإذا لم يعترف فلن يكون مسلما صادقا. وعندما تكون الأمور على هذا النسق، فمن المؤلم جدا أن تجد نفسك فجأة أمام لغز من الألغاز التي لا سبيل إلى فهمها. ولو أنك أطلتَ التفكير في الأمر، لما رأيت فيه ما يؤلمك!" .. فتنهد "**رامش**" قائلا: "لقد أطلتَ التفكير بالفعل، ولهذا لم أتألم. ولكن.. سواء تألمت أو لم أتألم وسواء جرحت شعورك أو لم أجرحه، فإن الرموز المستعصية ستظل مستعصية.. إنها من الشّيم القاسية للطبيعة!".

وبدأ "**رامش**" يسائل نفسه هل كان من الصواب أن يستقرّ في "**غازيبور**". وكان أول ما جال بخاطره، أن صداقته و"**كمالا**" للشيخ قد تفيّدهما، إذا آن لهما أن يتخذا مقرا في بلد غريب عنهما. ولكنه مالبث أن شعر بأن للصداقة مع أحد من أهل ذلك البلد بعض المضار! فلو أن علاقته بـ"**كمالا**" صارت موضع نقاش، لكان الأمر شاقّا على الفتاة. ومن الأسلم له ولها، أن يعيشا مغمورَيْن في بلد كل أهله أغراب عنهما، فلا يجد أي شخص من الألفة ما يُبيح أن يوجه إليهما أسئلة ما. ومن ثمّ فقد قال لـ"**تشاكرابارتي**" في اليوم السابق على وصول الباخرة إلي "**غازيبور**": "ما أظن "**غازيبور**" تناسبني -من ناحية مهنتي- يا عماه، ومن ثم قررت أن أذهب إلى "**بنارس**"!. وعجب الشيخ لرنّة البتّ التي بدتْ في لهجة "**رامش**"، وقال: "ليس من الحزم أن تغيّر خططك باستمرار!.. ومع ذلك، فهل استقرّ رأيك الآن على الذهاب إلى "**بنارس**"؟" .. فأجاب باقتضاب: "نعم... وسار الشيخ في صمت إلى قمرته ليحزم متاعه، فسألته "**كمالا**" في

تخابث: "هل كرهتني اليوم يا عماه؟" .. وبادر قائلا في مداعبة: "وما الذي تنتظرينه إذا كنا نتشاجر من الصباح إلى المساء؟.. إنك لتعلمين أنني لم أسامك بعد!" .. قالت: "ولكنك تحاشيتَني منذ الصباح"، فقال **"تشاكرابارتي"**: "أتجسرين على أن تتهميني بتحاشيك؟" .. بل أنت التي توشكين أن تهربي مني!" .. فحملقتْ **"كمالا"** فيه وهي لا تكاد تفقه. وإذ ذاك قال لها: "ألم ينبئك **"رامش بابو"**؟.. لقد قرّر أن تذهبا إلى **"بنارس"**. ولم تؤيّد **"كمالا"** النبأ، ولم تنفه. ولكنها قالت بعد فترة: "لن تستطيع أن تحزم متاعك يا عماه، فدعني أحزمه لك!"

– وتألم **"تشاكرابارتي"** كثيرا، لعدم اكتراث **"كمالا"** بالعدول عن مشروع **"غازيبور"**، وإن كان قد قال لنفسه: "لعل هذا أفضل.. ما قيمة تكوين روابط جديدة في حياتي؟".

وإذ ذاك ظهر **"رامش"** ليعلن **"كمالا"** بتعديل خطته، قائلا وهو يراها ترتب ثياب **"تشاكرابارتي"**: "كنت أبحث عنك.. لن نذهب إلى **"غازيبور"** في الوقت الحاضر يا **"كمالا"**، فقد قررتُ أن أمارس مهنتي في **"بنارس"**.. هل توافقين؟" .. فأجابت دون أن تحوّل بصرها عن متاع **"تشاكرابارتي"**: "لا، بل سأذهب إلى **"غازيبور"**!" .. وبهت **"رامش"** لرفضها الحاسم، فسألها: "وهل ستذهبين وحدك؟". فقالت وهي ترمق الشيخ في ودّ: "لا.. بل سأصحب العم!". ولم يستسغ الشيخ هذا الموقف، ولكنه قال: "إنك بإبداء مثل هذا التحيّز يا عزيزتي، تثيرين غيرة **"رامش بابو"**!.. غير أن **"كمالا"** اكتفتْ بأن ردّدتْ: "سأذهب إلى **"غازيبور"**!.. وبدا من لهجتها أنها اعتبرت نفسها حرة في أن تفعل ما تشاء، فقال **"رامش"**: "حسنا يا عماه.. لنهبط في **"غازيبور"**!.

وصَفَتْ السماء في المساء، بعد مطر طويل، وظل "رامش" جالسا يفكر في ضوء القمر إلى ساعة متأخرة: "لن نستطيع أن نمضي هكذا مدة أخرى.. لسوف يستعصي الموقف إذا تمردت **"كمالا"**، ولستُ أدري كيف سأقيم معها، ملتزما الحدود التي رسمتها لعلاقتي بها!.. لم أعد أحتمل، إنها –رغم كل شيء– زوجتي في الواقع والحقيقة. لقد اعتبرتها زوجتي منذ البداية، ويجب ألا يصدني عنها عدم تلاوتي الصيغة الدينية المعهودة، فإن الموت نفسه هو الذي منحني إياها، ووحد بيننا في تلك الليلة التي قضيناها معا على الشاطئ الرملي!.. وفي الحق أنه أقوى نفوذا من أي كاهن دنيوي!

كان يقف بينه وبين **"كمالا"** جيش بكامل عُدّته: فلابد له من أن يقهر العقبات والشكوك، والخجل، والخزْي، قبل أن يقف أمامها رافع الرأس! ،أجفل إذ تصور المعارك التي كان عليه أن يخوضها. أي أمل لديه في الانتصار؟.. كيف يثبت براءته وطهر غايته، إذ يكفل **"كمالا"**، مع أنها ليست زوجتَه شرعا؟!.. وحتى لو استطاع فسوف يشيح المجتمع عنه، ويعرض عن الاتصال به، فتكون النتيجة وبالا على **"كمالا"**!.. ولكن، بُعدا للجبْن والتردد!.. لا حلّ للموضوع سوى أن يتخذ **"كمالا"** زوجة بالفعل!.. لابد أن **"همناليني"** تذكره الآن في ازورار وإعراض، وسيكون لهذا الإعراض فضل حملها على أن تقبل أي خطيب آخر!.. وتنهّد **"رامش"** في أسى، وهو يُلقي بآماله في **"همناليني"** إلى الرياح!

الفصل الحادي والثلاثون

– صاح "**رامش**" : "إلى أين تزمع الذهاب يا "**أومش**"؟" ، فأجاب الصبي : "**سأذهب مع أمي!**" . قال "**رامش**" : "ولكنني دفعت أجرا لرحيلك حتى "**بنارس**" ، وهذه "**غازيبور**" .. فقال "**أومش**" : "ولكنني لن أذهب إلى "**بنارس**" . ولم يكن "**رامش**" يتوقع أن يغدو الصبي عضوا دائما في أسرته، ومن ثم استولت عليه الدهشة لثقة الصبي من موقفه... فسأل "**كمالا**" : "هل سنصطحب "**أومش**"؟" .. وكان جوابها: "ليس له سوانا" ! " .. قال: "بل له أقارب في "**بنارس**"، فأجابت: "ولكنه يؤثر أن يأتي معنا. والآن، تذكّر أنك في بلد غريب يا "**أومش**"، فاتبع العم وإلا فقدناك في الزحام!" .. وبدا أن "**كمالا**" أصبحتْ تتولّى وحدها القيادة، وتحمل عبءْ تقرير وجهة الجماعة ومقرّها. لقد انتهت –فجأة الفترة التي كانت تتقبل فيها ما يمليه عليها "**رامش**" في خضوع. وهكذا رافقهما "**أومش**" دون ماجدال، وقد تأبّط حزمة صغيرة تضم ملابسه.

وكان العم يقيم في دار صغيرة من طابق واحد، بين المدينة والحي الأوروبي، تقع أمامها بئر ذات فوهة مشيدة بالحجر، وخلفها بستان من أشجار "المانجو" . ويفصل الجميعَ عن الطريق سياجٌ منخفض زُرِعَتْ بينه وبين الدار حديقةٌ صغيرة للخضر، تُرْوَى من البئر. ودُعِيَ "**رامش**" و"**كمالا**" إلى أن ينزلا ضيفين على أهل تلك الدار، حتى يعثرا على دار يستقران فيها. ومع أن العم كان يصف زوجته –"**هاريبابيني**"– دائما بأنها ضعيفة الجسم والصحة، إلا أنها لم تكشف عن شيء من هذا الضعف في مظهرها. فقد كان وجهها يطفح قوة ونشاطا –رغم تجاوزها أوسط العمر– ولم يدب الشيب إلا إلى شعيرات قليلة فوق صدغيها، كان من الواضح أن الشيخوخة أصْدرت أمرا بضمها إلى رعاياها، ولكنها لم تنفذه بعد! .. أما ما كان زوجها يبني عليه وصفه إياها بالضعف، فكان كله راجعا إلى أنها بمجرد زواجها من "تشكارابارتي" وقعت صريعة للملاريا، ولم يكن من علاج –في رأي زوجها– سوى أن تنتقل من الجو الذي اعتادت العيش فيه، ومن ثمّ سَعَى للحصول على منصب مدرّس في "**غازيبور**" ، ثم نزح وأسرته إلى هناك. وكانت "**هاريبابيني**" قد استردّت صحتها منذ أمد طويل، ولكن زوجها لم يكف عن العناية بها ورعايتها!

ورحّب "**تشاكرابارتي**" بضيفيه في حجرة تقع في مقدمة الدار، ثم غاب داخل الدار يبحث عن زوجته، حتى وجدها في ساحة محاطة بسياج، تعرض آنيتها الفخارية للشمس، وتطحن القمح، فصاح بها: "ما هذا؟ إن اليوم يميل إلى البرودة، أفما كان يحسن بك أن تأتزري بشال؟" .. فأجابت: "ما هذا الذي تقول؟ بردا! .. إن الشمس تكاد تشوي ظهري!" .. وإذ ذاك تحول "**تشاكرابارتي**" قائلا: "ما ينبغي هذا. إن علينا أن نقيم لك مظلة تقيك من الشمس!" .. فقالت "**هاريبابيني**" : "فليكن، ولكن، قُلْ لي الآن.. أين كنت طيلة هذه المدة؟" ، فأجاب: "هذه قصة طويلة.. لقد اصطحبت ضيفين، يجب أن

نكرمهما قبل أن نفعل أي شيء آخرا" .. ووصف لها ضيفيه بإيجاز. وما كانت هذه أول مرة يستضيف فيها أغرابا، ولكن "**هاريبابيني**" لم تكن ترتقب أن تستضيف زوجين فهتفت: "عفوا، ولكنا لا نملك مكانا يليق بهما!" .. فقال زوجها: "خليق بك أن ترحّبي بهما أولا، ثم نتدبر أمر مقامهما. أين "**سايلا**"؟"، فأجابت: "إنها تغسل جسم طفلها".

ومالبث "**تشاكرابارتي**" أن صحب "**كمالا**" إلى حيث كانت زوجته، فقدمت الشابة لـ"**هاريبابيني**" التحية التي تليق بسنها، ومسَّت العجوز بدورها ذقن "**كمالا**" بإحدى أصابعها، ثم قبلت تلك الأصبع، وقالت لزوجها: "ألا تراها شديدة الشبه بعزيزتنا "**بيدو**"؟" .. وكانت "**بيدو**" ابنتهما الكبرى، وتعيش مع زوجها في مدينة "**الله أباد**". وعجب "**تشاكرابارتي**" في نفسه من هذه المقارنة، فما كان ثمّة أتفه شبه بين "**بيدو**" و"**كمالا**"، ولكن "**هاريبابيني**" لم تكن تُقرّ مطلقا بتفوق أية فتاة عن ابنتها في الجمال أو الشكل!.. أما ابنتهما الأخرى "**سايلاجا**" فكانت تقيم معهما. وكان وجودها هذا كفيلا بأن يُدحض زعم أمها، إذا ما قارنت جمالها بجمال أية فتاة، ومن ثم كانت الأم تقصر المقارنة على الابنة الغائبة!

وقالت "**هاريبابيني**": "يسرنا أن نَحْظَى بكما، وأن كنت أخشى ألا نستطيع أن نوفر لكما الراحة الكافية، فإن أعمال الإصلاح في بيتنا الجديد لم تستكمل بعد. ومن ثمّ فنحن مضطرون إلى أن نحشر أنفسنا ومتاعنا هنا!". والواقع أن "**تشاكرابارتي**" كان قد اشترى بيتا في سوق المدينة، وأخذ يُجْري فيه بعض الإصلاحات، ولكنه لم يكن من السعة بحيث يصلح لسكناهم، ولا خطر ببالهم أن يتخذوه مسكنا!. لذلك ضحك "**تشاكرابارتي**" من فرية زوجته، ولكنه لم يشأ أن يفضحها، بل قال لـ"**كمالا**": "لو أنك عارضت في التعرض لأي تعب. لما أحضرتك إلى هنا"، والتفت إلى زوجته قائلا: "يحسُن بك ألا تبقى بعد الآن في الساحة، فإن شمس الخريف غير مأمونة!".

*****

– وإذ خلت "**هاريبابيني**" إلى "**كمالا**"، راحتْ تمطرها بالأسئلة: "إن زوجك محام، أليس كذلك؟.. كم مضى عليه في المهنة؟ وما دخله؟ آه، ألم يبدأ بعد في ممارسة مهنته؟ إذن، فكيف تظفران بعيشكما؟ هل ترك له حماك ثروة كبيرة؟ ألا تعرفين؟ يالك من فتاة عجيبة! ألا تعرفين شيئا عن أهل زوجك؟ كم يغطيك زوجك لنفقات البيت في كل شهر؟ إن فتاة في مثل سنك يجب أن تشرف بنفسها على كل شيء، مادامت حماتها قد فارقت الحياة!.. إن زوج ابنتي "**بيدو**" يسلمها كل ما يكسب!" .. بمثل هذه القذائف من الأسئلة والتعليقات، أظهرتْ السيدة العجوز "**كمالا**" عجزها وجهلها بشؤون زوجها وأسرته. ففطنت إلى أنها لم تحظ قط بفرصة تتحدث فيها مع "**رامش**" عن شؤونه.. بل تبينت أنها لا تكاد تعرف شيئا عن الرجل الذي صار زوجا لها!.. وللمرة الأولى، انتبهتْ إلى غرابة

هذا الوضع، فغشيَها شعور بالأسى لتفاهة شأنها. وعادت **"هاريبابيني"** تقول: "أريني أساورك يا عزيزتي؟.. إن ذهبها ليس جيدا جدا.. ألم يمنحك أبوك حُليًا عند زواجك؟ آه، إنه ميت!.. يجب أن تقتني بعض الحلي على أية حال.. ألم يقدّم إليك زوجك شيئا منها؟.. إن زوج **"بيدو"** يعمل على أن يقدّم إليها سوارا عريضا في كل شهرين تقريبا!".

وقطع عليها هذا التحقيق دخول **"سايلاجا"**، تجرّ ابنتها **"أومي"** التي كانت في الثانية من عمرها، كانت **"سايلاجا"** سمراء، دقيقة القسمات، عريضة الجبين، ينمّ محياها عن حيوية وخفة دم، وعن تعقل واتزان.. وتأملتْ **"أومي"** الضيفة لحظة، ثم هتفت: "خالتي!".. ومع أن **"كمالا"** لم تكن تُشبه **"بيدو"**، إلا أن الطفلة، كانت تضع في مرتبة خالتها كل أنثى تميل إليها!.. ورفعت **"كمالا"** الطفلة إلى ركبتيها، بينما قدمت **"هاريبابيني"** ضيفتها إلى ابنتها قائلة: "زَوْجُ هذه السيدة محام، وقد وفد علي بلدتنا ليمارس مهنته، والتقيا بأبيك وهو في طريقه عائدا فاستضافهما". وتقابلت أعين الفتاتين، فكانت النظرة عربون صداقة وثيقة. وذهبت ربّة البيت تستعد لإكرام الضيفين.، فأمسكت **"سايلاجا"** بيد **"كمالا"**، ودعتها إلى غرفتها الخاصة. ولم يمض وقت يُذكَر، حتى كانتا تتحدثان في ود وألفة، إذ كان الفارق بين عمريهما لا يكاد يكون ملحوظا. وكانت **"كمالا"** تفوق سنها في سعة الأفق ورجاحة الفكر، ولعلّ ذلك كان راجعا إلى أن روحها الفردية لم تتعرض لسيْطرة حماة، فلم تخرق أذنها يوما عبارات مثل: "اعقلي لسانك!".. "افعلي ما آمرك به!".. "ما ينبغي للصغيرات أن يكثرن من قول "لا" لمن يكبرنهن!". ومن ثم واجهت الحياة بقامة منتصبة، وبرأس مرفوع، كنبات قامت ساقه معتدلة، صلبة!

وسرعان ما اندمجت الصديقتان الجديدتان في الحديث، رغم أن الصغيرة **"أومي"** لم تكف عن محاولة الاستئثار باهتمامهما. على أن **"كمالا"** مالبثت أن فطنت إلى أنها -على الرغم من رجاحة فكرها- لم تكن تعادل **"سايلاجا"** لباقة!.. ولم تستطعْ بحديثها عن حياتها الزوجيّة إلا أن ترسم صورة سريعة، ناقصة، خالية من الألوان. لم تفطن قط قبل اليوم إلى حقيقة هذه الحياة الزوجية، وإن كانت قد أحسّتْ -بغزيرتها- أنها كانت تفتقد شيئا، طالما أثار الجهل بكنهه فورات من التمرد في نفسها!.. وهكذا، ما إن زالت الكلفة بين الفتاتين، حتى راحت **"سايلاجا"** تتحدث عن زوجها، ولكن **"كمالا"** كانت تعلم أنها لا تحسن الضرب على هذا الوتر، فما كان لديها ما يمكن أن يقال عن زوجها!.. كانت مادتها في هذا المضمار ضئيلة!.. وعرفت أن **"بيبين"** -زوج **"سايلاجا"**- كان موظفا في مصنع للأفيون بـ**"غازيبور"**، وأن لـ**"تشاكرابارتي"** ابنتين، تُقيم كبراهما مع أهل زوجها، وأن الشيخ لم يقو على فراق ابنته الصغرى، ومن ثَمَّ اختار لها زوجها.. شابا رقيق الحال، رضي بأن يتولى المنصب الذي حصل له **"تشاكرابارتي بارتي"** عليه بالوساطة والمحسوبية، وقبل أن يعيش مع أهل زوجته. وقطعت **"تشاكرابارتي"** الحديث فجاة، لتقول: "اسمحي لي ببضع دقائق يا عزيزتي ولن أغيب عنك طويلا". وشرعت تذكر في اعتداد أن زوجها قد

انتهى من استحمامه، ولابد لها من أن تقدم له الفطور قبل أن يخرج إلى عمله. فسألتها "**كمالا**" في سذاجة: "وكيف عرفت أنه عاد من الحمام؟". فقالت "**سايلاجا**": "آه، لا تعبثي بي.. كيف تعرف المرأة شيئا كهذا؟... ألا تعرفين وقع خطوات زوجك إذا سار؟!".. وضحكت وهي تقرص خد "**كمالا**" مداعبة، ثم رفعت طرف وشاحها إلى كتفها، وجرتْ "**أومي**" مغادرة الحجرة. وما أدركت "**كمالا**" من قبل أن لوقع الأقدام لغة يمكن فهمُها!.. فسرحت بصرها خلال النافذة وهي مُستغرقة في التفكير.. كانت النافذة تشرف على شجرة "جوافة" راح النحل يحوم حول أغصانها المثقلة بالبراعم.

الفصل الثاني والثلاثون

- استأجر "**رامش**" دارا تقع في بقعة منعزلة على شاطئ نهر "**الجانجز**" وكان لابد من أن ينقل متاعه، وأن تقوم بالإجراءات الرسمية التي تمكنه من أن يمارس مهنته أمام محاكم "**غازيبور**" .. وكان الأمران يتطلبان زيارة "**كلكتا**"، في حين أنه كان يُوجس من العودة إلى المدينة، فقد كان لأحد شوارعها ذكريات تقضّ هدوء باله!... وكانت الظروف قد تجمعت بحيث لم يعد في وسعه أن يسوّف طويلا في قبول المركز الذي كانت تحتّمه عليه الأوضاع.. مركز الزوج لـ"**كمالا**"، بكل ما يتطلبه الزواج، وإن ظَلّ عجزه عن مواجهة الواقع يزيّن له إرجاء الرحلة إلى "**كلكتا**"!

وكان المكان في دار "**تشاكرابارتي**" الصغيرة مَحْدودا، وقد أفردت لـ"**كمالا**" غرفة في داخل الدار، بينما أقام "**رامش**" في الغرفة الخارجية، فلا يكاد كل منهما يرى الآخر. وأسرّتْ "**سايلاجا**" إلى "**كمالا**" بأسفها من هذه التفرقة، فسألتها "**كمالا**": "وفيم اهتمامك؟.. ليس هذا بالوضع البغيض!".. فضحكتْ "**سايلاجا**": "يالك من شابة قاسية القلب.. لن تخدعيني بهذا التظاهر! إنني أعرف ما يدور بخلدك!".. فقالت "**كمالا**": "أصدقيني القول.. هبي أن "**بيبين بابو**" لم يقترب منك يومين، فهل...؟"، فصاحت "**سايلاجا**" مزهوة: "وكيف؟.. إنه لا يحتمل البعاد عني يومين!".

ومضت تروي حكايات عن افتتان "**بيبين بابو**" بها. وقصّتْ عليها الحيل التي كان يبتكرها بعد الخطبة ليجتاز خطوط الأعداء -أي رقابة أبيها وأمها- حتى يتمكن من رؤيتها، وكيف كانت حيله تنكشف في بعض الأحيان فيخفق، وكيف أنهما وجدا -حين حُرِّمَتْ عليهما اللقاءات- عزاء في تبادل النظرات خلال مرآة قاعة الجلوس، عندما كان "**بيبين**" يفدُ لزيارة أبويها!.. وأشرق وجه "**سايلاجا**" وهي تروي البهجة التي كانت تملأ قلبيهما في تلك الأيام الخالية. ولقد اضُطر "**بيبين**" في فترة من الزمن إلى أن يلزم عمله طوال نهاره، فمضتْ "**سايلاجا**" تصف كيف كان كل منهما يشتاقُ إلى الآخر، وكيف كان الشابّ يتسلل من عمله أحيانا كي يوافيها في البيت!.. واضطُر مرة إلى أن يتغيّب في "**باتنا**" بضعة أيام لأمر يتعلق بأعمال أبيه، فقالت له زوجته: "هل ترى بوسعك أن تذهب إلى "**باتنا**" فتمكث فيها بمفردك؟".. وأجابها في زهو: "بالطبع!"، فآلمت لهجتُه شعورها وأقسمت ألا تبدي أقل أسى في الليلة السابقة على رحيله، ولكن قسمها ذاب في فيض من الدموع. فلما أعدّ كل شيء للرحيل في الصباح التالي، أصيب "**بيبين**" بصداع، وبمرض خفي استلزم إلغاء رحلته. وعاده طبيب فوصف له بعض الأدوية التي عمد "**سايلاجا**" إلى صبها في البالوعة خفية.. ولم يلبث المريض أن شُفي بمعجزة غامضة!.. وبدا على "**سايلاجا**" أن هذه الذكريات حملتها بعيدا عن العالم وهي ترويها. على أنها لم تكد تسْمع صرير الباب الخارجي بعد قليل، حتى وثبتْ من مكانها، وأعلنت أن "**بيبين**" قد عاد

من عمله.. فلقد كانت –رغم استغراقها– تُنصتُ إلى أتفه صوت ينبئ بقدوم زوجها!

ولم تكن "**كمالا**" ترى وصف "**سايلاجا**" لحياتها الزوجية ضربا من الخيال، فلقد خبرت يوما وميض هذا الشعور بالذات. وكانت تحسّ في بعض أوقات الشهور الأولى لإقامتها مع "**رامش**"، بوتر يدق في أعماقها، ويوحي إليها بلحن يجلو لغز الرابطة الزوجية. وعندما انطلقتْ من أسار المدرسة وعادت إلى "**رامش**"، كانت تمر بها لحظات من نشوة روحية، فتشعر باللحن الغريب ينبعث من أعماقها. فلمّا سمعت أقاصيص "**سايلاجا**" بدأتْ تفهم بعض معاني تلك المشاعر. على أن تجاربها هذه لم تكن من العمق أو الثبات بحيث تخلّف أثرا باقيا. ولم يكن بينها وبين "**رامش**" ما يقاس على هذه اللهفة التي تربط بين "**سايلاجا**" و"**بيبين**".. فما أثار هذا الفراق الموقوت الذي ضُرب بينها وبين "**رامش**" أي أسى في أعماقها ولا استطاعتْ أن تتصور أن يفكر "**رامش**" في حيل للتسلل إلى "الحريم" والظفر بنظرة منها!

*****

– وشعرت "**سايلاجا**" بحرج حين أقبل يوم الأحد. فقد شقّ عليها أن تترك صديقتها الجديدة وحيدة طول يومها ذاك، ولا وجدت من القوة ما يمكنها من أن تُضحّي بهذا اليوم الوحيد في الأسبوع، فتحرم نفسها صحبة "**بيبين**". وكانت تدرك أنه لا يوجد ثمة اتصال بين "**كمالا**" و"**رامش**"، رغم أنهما يقيمان تحت سقف واحد، ومن ثمّ تمنت لو توفق إلى الجمع بينهما!.. ولم تعمد إلى استشارة والديها. ولكن "**تشاكرابارتي**" لم يكن في حاجة إلى من يستشيره، إذ أعلن عن عزمه على أن يقضي ذاك اليوم في المدينة بسبب أعمال مهمة، وقال لـ"**رامش**" –وهو موشك على الرحيل–: "إن بوسعه أن يوصد الباب الأمامي للدار. وتعمد أن يرفع صوته لتسمعه ابنته، وهو موقن من أنها لن تعمى عن غرضه!

وقالت "**سايلاجا**" لـ"**كمالا**" بعد أن اغتسلتا في النهر: "هيا يا عزيزتي، لنجفف شعرك ونسقه".. وانكبت على هذه المهمة، فنسقت شعر صديقتها بشكل أنيق. ثم دار بينهما جدال بشأن الثّوب الذي يحسن بـ"**كمالا**" أن ترتديه، إذ أصرت "**سايلاجا**" على أن يكون زاهي اللون، و"**كمالا**" في حيرة من سر هذا الإصرار، وإن انصاعت له إرضاء لصديقتها. وما إن انتهَوْا من الغداء، حتى همستْ "**سايلاجا**" في أذن زوجها بكلمات، فلم يلبث أن بارح المكان مُتعلّلاً بحجة ما. وتحولتْ "**سايلاجا**" تغري "**كمالا**" أن تزور زوجها في غرفته الخارجية. ولم تكن "**كمالا**" قد أبدتْ أي تلهف لرؤية "**رامش**"، إذ لم يعلمها أحد أن في مسلكها هذا خروجا على العرف، ولا كان في درايتها المحدودة بالمسائل الجنسية ما ينبهها إلى شذوذ تصرفها.. ومع ذلك فإنها أعرضتْ عن الانصياع لإغراء "**سايلاجا**"!.. وخُيّل إلى هذه الأخيرة أن كبرياء الفتاة تمنعها من أن تكون الساعية إلى زوجها، فانتهزتُ فرصة

استسلام أمها للقيلولة، وأوحتْ إلى "**بيبين**" بان يذهب إلى "**رامش**" فيذكر له أن "**كمالا**" تريد أن يوافيها في داخل الدار!

وكـان "**رامش**" مستلقيا على ظهره، على سجّادة في الغرفة الخارجية، وقد ثَنَى إحدى ركبتيه في وضع رأسي، وأسند إليها الساق الأخرى، ومضى يقرأ صحيفة "**البايونير**" . فلما سمع الرسالة، ذُهلَ!.. كان قد عقد العزم على أن يجعل من "**كمالا**" زوجة له اسما وفعلا، ولكن الفراق الذي حال بينهما في تلك الدار ردّه إلى تردده القديم. ولقد كانت تراوده رُؤَى السعادة التي تنتظره إذا ما غدت "**كمالا**" شريكة حقة لحياته ولكنه أحسّ في تلك اللحظة بأن تحطيم الجليد الذي اكتنف علاقتهما ليس بالأمر اليسير!.. ومع أن الرسالة التي حملها إليه "**بيبين**" أوحت إليه بان "**كمالا**" ربما رغبت في محادثته في أحد الشؤون، إلا أن موجة من الانفعال العاطفي غمرت قلبه، فطرح الصحيفة جانبا، وتبع "**بيـبين**" خـلال السكينة المخدّرة للأعصاب، التي تشُوب فترة مابعد الظهر في فصل الخريف. وأحس بذلك الانفعال الذي يغشى العاشق وهو يسعى إلى حبيبته!

وكـانت "**كـمـالا**" قـد اطمـأنت إلى أن "**سايلاجا**" عدلت عن إلحاحـهـا، وخلت إلى زوجها، فجلست على عتبة باب غرفتها تتأمل الحديقة. وكانت أحاديث "**سايلاجا**" قـد فتحت قلبها للحب دون أن تفطن، فأخذت تتصاعد من صدرها -بين الحين والحين- زفرة تُثير أشجانها، كما تهز النسْمة الدافئة أوراق الشجر!.. وفجأة أقبل "**رامش**"!.. وأجـفلت إذ أخرجتها صيحته الخافتة من استغراقها: "**كـمـالا**"!..وجرى الدم في عروقها، وهي التي لم يعترها الخجل مرة أمامه، فنكّستْ رأسها. وبدتْ له في زينتها، وفي اعتدادها بنفسها، مخلوقا جديدا، فإذا به يقع تحت سحرها!.. واقترب منها في بطء، وتردد لحظة أو اثنتين قبل أن يقول في لطف: "هل استدعيْتني يا "**كمالا**"؟".. ودُهشَتْ لسؤاله، فهتفت: "لا، بكل تاكيد. ما دعوتك. ولماذا أدعوك؟".. قال: "لو أنك أرسلت في طلبي بالفعل، لما كان عـملك جرمـا!".. فكررت في تحـمس وتاكـيـد: "مـا دعـوتك مطلقـا!"... ولكنه قـال: "فليكن.. لقد جئتُ دون دعوة، وما أراك ستطردينني خزيا مني؟". قالت: "سيعرفون أنك جئت فيغضبون.. أرجوك.. انصرف فورا!".. فامسك بيدها قائلا: "حسنا.. إذن، تعالي إلى غرفتي، فليس من سواي هناك!". ولكن "**كـمـالا**" انتزعتْ يدها وهي ترتجف، وهربتْ إلى غرفة أخرى!

وأدرك "**رامـش**" ما حـدث، وفهم أن إحدى نساء البيت دبَّرت الخطة، فعاد إلى حجرته وقد توترتْ أعصابه. واستلقى في مرقده، ممسكا بالصحيفة، وقد راحت الأفكار تتوالى على رأسه. هذا بينما كـانت "**سايلاجا**" تقف مذهولة، وقد رأت "**كـمـالا**" منكفئة على أرض غرفتهـا، ووجهـهـا بين راحتيـهـا، وهي منخرطة في البكاء. وراحت تهتف في جزع: "ماذا بك يا عزيزتي؟.. ماذا جرى؟.. لم تبكين؟".. فصاحت "**كمالا**": "آه، لماذا أرسلت له؟.. كان خطأ لا يغتفر!".. فقد أدركت أن أحدا لا يجسر على مثل هذا التدبير سوى

صديقتها، وإن كانت تُوقن -في الوقت ذاته- من أن أحدا لا يعرف على الإطلاق سرّ الأسى الذي خالجها في الأيام السالفة!.. كانت تبني لنفسها قصورا في الهواء، وقد أوشكت أن ترسم آخر خطوطها، عندما أقبل "**رامش**"، ولو أنه تسلل برفق إلى المنظر الذي كانت تراه بعين الخيال، لمضى كل شيء على مايرام. بيد أن دخوله المفاجئ وهو مطمئن إلى أنها استدعته، جعله يصطدم بقصور الأحلام فيهدمها!.. وذكرت محاولته إبقاءها سجينة المدرسة خلال العطلة، وإهماله شأنها على الباخرة، وتزاحمتْ في ذهنها الذكريات، ثم إن الود والألفة شيء، ومجرد تلْبيَة الدعوة شيء آخر! وما كانت قبل قدومها إلى "**غازيبور**"، قد فطنت إلى أن بين الأمرين عالما واسعا.. ولكن "**سايلاجا**" لم تكن لتستطيع أن تفهم هذا. كان فوق إدراكها أن تلمس وجود حاجز حقيقي بين "**رامش**" و"**كمالا**". على أنها رفعت رأس "**كمالا**" في جهد،. وأسلمتها إلى حجرها. وأخذت تقول: "صارحيني يا عزيزتي هل قسا عليك "**رامش بابو**" في القول؟.. لعله وبّخك لأن زوجي دعاه إليك.. كان خليقا بك أن تذكري له أنني المذنبة!".

- لا، لا.. إنه لم يقل شيئا عن هذا! ولكن، لماذا عملت على حضوره؟

- كان خطأ مني، فاغفري لي!

واستوت "**كمالا**" جالسة فجاة، وطوقت عنق "**سايلا**" بذراعيها، وهتفت: "ألا اسرعي الآن يا عزيزتي، فلابد أن "**بيبين بابو**" قد ضاق ذرعا بغيابك!".. وفي تلك اللحظة، كان "**رامش**" يسرح بصره في صحيفة "**البايونير**" في تكاسل، ثم اعتدل جالسا، وألقى الصحيفة جانبا وقال لنفسه: "كَفَى.. ساذهب غدا إلى "**كلكتا**"، فأنجز أعمالي.. فإني لأزداد شعورا بقسوتي كلما تأخرت في جعل "**كمالا**" زوجة حقيقية لي!".

الفصل الثالث والثلاثون

– كان "**رامش**" قد عقد العزم على أن يتعجل إنجاز أعماله في "**كلكتا**"، وعلى ألا يضع قدمه في حي "**كالونولا**" مطلقا، ومن ثم نزل في داره بحي "**دار دجيبارا**". بيد أن أعماله لم تكن تشغل من نهاره سوى وقت قصير، فكانت بقية ساعات اليوم الأربع والعشرين تمرّ متثاقلة، ممضّة. ولم يكن بوسعه أن يواجه معارفه القدامى، بل إنه اتخذ الحيطة كي يتفادي فرص الالتقاء بهم في الطريق. ومع ذلك، فقد وجد أن عودته إلى مسرح أشجانه القديمة قد أحدث أثرا في نفسه. كان جمال "**كمالا**" اليافعة قد ألقَى عليه سحره، تحت سماء الريف المترامية، وفي هدوئه الوادع. على أن هذا السحر انجاب عنه في المدينة. وحاول الشاب في مسكنه بدار "**ديجبارا**" أن يتمثّل صورة الفتاة في حسنها، ليملأ منها عينيه، ولكن خياله لم يستجب لرغبته. وكان يكرر الأقسام والعهود ألا يولّي "**همناليني**" أي اهتمام، ولكن ذكراها كانت تنبعث في ذهنه، وتزداد إشراقا، طيلة النهار والليل. وبات عزمه على نسيانها يضاعف من إلحاح ذكراها عليه!.. ولو أن "**رامش**" تمكن من أن يفرغ من أعماله سريعا، لعجل بالعودة إلى "**غازيبور**"، ولكن كل صغيرة كانت تتطلب إجراءات مزعجة. على أنه مالبث أن نفض يديه ذات يوم، وقرر الرحيل إلى "**الله آباد**"، ومنها إلي "**غازيبور**". بيد أنه علل نفسه بأن لا ضير عليه –والحال هذه– إذا قام بزيارة مختلسة لحي "**كالوتولا**" قبل أن يبرح "**كلكتا**"!

وإذا انتهى إلى هذا القرار، جلس فكتب خطابا لـ"**همناليني**"، عرض فيه لكل علاقاته بـ"**كمالا**"، بإسهاب وتفصيل، واستطرد إلى ما اعتزمه من أن يتخذ تلك المسكينة –التي لا حول لها ولا نصير– زوجة حقيقية له، إذا ما عاد إلى "**غازيبور**". كانت رسالة وداع فضفض فيها عما بصدره لحبيبته السابقة، قبل أن يفترق عنها فراقا نهائيا كاملا، ثم أودع الرسالة ظرفا أغلقه. بيد أنه لم يكتب اسم المرسل إليها في الخارج، ولا في الداخل. فقد كان مطمئنا إلى أن بوسعه أن يجد بين خدم "**أنادابابو**" أعوانا، إذ كان لطيفا مع كل من كانوا يحيطون بـ"**همناليني**"، كما كان ينتهز أتفه الأسباب ليغمرهم بعطاياه. ومن ثم قرر أن يسعى إلى هناك بمجرد هبوط المساء، فيحاول أن يحظى بنظرة إلى "**همناليني**" عن بُعد، ثم يسلّم الرسالة إلى أحد الخدم ويوصيه بأن يحملها في الخفاء إلى الفتاة، فيكون هذا آخر ختام للروابط القديمة التي كانت بينهما!.. وبالفعل، غادر مسكنه مع مجيء الليل، حاملا رسالته، وتسلل –بأوصال مرتجفة، وقلب مضطرب– إلى شارع الذكريات التي لا تنمحي، فألفى باب الدار مغلقا، والنوافذ مُوصَدة، والمسكن مهجورا، يرين عليه الظلام. وطرق الباب.. وعند الطرقة الثالثة أو الرابعة، رفع الحارس المزلاج وفتح له، فبادره "**رامش**" قائلا: "أهذا أنت يا "**سوخان**"؟".. وواتاه الجواب: "أجل، أنا "**سوخان**".. قال "**رامش**": "إلى أين ذهب مولاك؟".. فأجاب الحارس: "رحل إلى الريف مع السيدة ابنته لتغيير الجو!"...

قال "**رامش**" : "وإلى أى بلد ذهبا؟"، فأجاب: "لست أدري". فسأله: "وهل رافقهما أحد؟.. وأجاب الحارس: "أجل، رافقهما "**نالين بابو**""، فهتف "**رامش**" : "ومن يكون "**نالين بابو**"؟... قال الحارس: "لست أعرف!". على أن "**رامش**" مالبث أن عرف من "**سوخان**" أن "**نالين**" هذا كان شابا أكثر من التردد على الدارفي الفترة الأخيرة. ومع أن "**رامش**" كان قد تخلى عن كل أمل في "**همناليني**"، إلا أنه أحسّ بكراهية نحو "**نالين بابو**" هذا!

وعاد يسأل الحارس: "وهل كانت السيدة الشابة في صحة طيبة حين رحلتْ؟".. فأجابه: "آه، أجل.. كانت بخيرا".. وكان الحارس يقصد بجوابه أن يطمئن "**رامش**" ويطيّب خاطره، ولكن السماء وحدها هي التي عرفت إلى أي مدى أخطأ حدس "**سوخان**"!.. ورغب "**رامش**" في أن يجوس خلال غرفات الدار، فحمل الحارس مصباحا من مصابيح البترول، يتصاعد منه الدخان، وتقدمه صاعدا السُّلّم، وأخذ "**رامش**" ينتقل من غرفة إلى أخرى وكأنه طيفٌ. وكان يتوقف بين آن وآخر، ثم يجلس على أحد المقاعد، أو إحدى الأرائك التي كان يعتزّ بها. كان كل شيء على عهده به، فليس من جديد سوى هذا الدخيل: "**نالين بابو**"، الذي ظهر فجأة من حيث لا يدري "**رامش**"!.. وما خطر له أن الطبيعة تكره الفراغ، ولا تحتمل أن تَرَى فراغا دون أن تملأه!.. وتأمل "**رامش**" النافذة التي وقف عندها إلى جوار "**همناليني**" في ضياء شمس الخريف الآفلة، وقد انسجم قلباهما في وجيب واحد!.. إن الشمس لاتزال -ولابد- ترسل فلول أشعتها خلال هذه النافذة، وهي راحلة في كل يوم.. ولكن ثمة شخصا آخر خلف "**همناليني**"، في اللوحة التي تستقرّ في إطار النافذة عند الغروب!.. أفلا تقف روح الماضي بين الشخصين اللذين يقفان في النافذة، فتفرق بينهما وهي ترفع إصبعها منذرة؟.. وثارت في صدره الكبرياء الجريحة.. وبدلا من أن يذهب إلى "**الله آباد**" في اليوم التالي رحل مباشرة إلى "**غازيبور**"!

الفصل الرابع والثلاثون

- كان "**رامش**" قد قضى في "**كلكتا**" شهرا تقريبا، وهو عمر طويل لدى فتاة في سن "**كمالا**"، بلغت أوج مرحلة المراهقة، وأوشكت على النضوج. فإن أنوثتها لم تكد تفيق من سباتها، حتى تفتّقتْ عن إدراك كامل، تماما كما يحدث عندما ينقلب ضياء الفجر فجأة إلى إشراق الشمس. ولعل أنوثتها ما كانت تتفتّح بمثل هذه السرعة، لولا توثق صلاتها بـ"**سايلاجا**". وما كانت تضفيه عليها شخصيّة هذه الفتاة من نور ودفء. وفي تلك الأثناء، كان تقاعُس "**رامش**"، وإلحاح "**سايلاجا**" قد حملا "العم" على أن يتولى التقاط الأثاث اللازم للمنزل الذي استُؤجر على ضفة نهر "**الجانجز**" في أقصى أطراف المدينة. كما استأجر من الخدم العدد الكافي للعناية بالبيت. فلما عاد "**رامش**" إلى "**غازيبور**" بعد غيابه الطويل، كانت "**كمالا**" قد اطمأنت إلى أن قد أصبح لها -أخيرا- بيت!

ولم يعد الشابان يثقلان على كرم "العم"!.. وكان ثمة فضاء كاف لزراعة حديقة حول البيت. كما كان ثمة طريق ظليل يمتدّ بين صفين من الأشجار الطويلة. وكان النهر قد انخفض إلى المستوى الشتوي. وامتدّت بين البيت وضفّة النهر، مساحة من الأرض الرملية المنبسطة، قامت فيها بعض سيقان القمح، تتخللها أحواض البطّيخ. وعند الحافة الجنوبيّة لسياج البيت، كانت تقوم -ناحية البر- شجرة ضخمة، أحيطت جذورها بمنصة حجرية. وكانت الدار وملحقاتها قد ظلت خالية من السكان أمدا طويلا، فبدت عليها علامات الإهمال، ولكن "**كمالا**" لم تشفق من هذه الحال، بل سرّها أن تتبوأ مركز ربّة البيت، ومن ثمّ بدا كل شيء لعينيها جميلا. ولم تضيّع وقتا في تقرير ما ينبغي أن تستخدم من أجله كل حجرة، وما يزرع في كل ركن من الحديقة واستشارت العم فيما يتخذ من إجراءات لإصلاح أرض هذه الحديقة، كما أشرفت بنفسها على إنشاء فرن في المطبخ، وعلى إجراء تعديلات في غرفة اختزان المؤن. وقضت يوما بأسره في التنظيف، والكنْس، والمسح، دون أن تَكل أو تَهن!

على أن التدبير المنزلي يظهر جمال الأنوثة في أبهى وألمع صورة. فقد كانت "**كمالا**" تتمثل لعينيْ "**رامش**" -أثناء عملها- كعصفور انطلق من قفصه. كان وجهها المتألق، ومهارتها المشحوذة، يضفيان عليها أحاسيس جديدة من الانبهار والسرور.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها "**رامش**" كربّة بيت، فلاحتْ وكأنها تبوّأت عرش مُلْكها فأضاف هذا إلى جمالها مسْحة من الاعتزاز. وسألها: "ما الذي تفعلينه يا "**كمالا**"؟.. لسوف تنهكين قواك".. وتوقفت "**كمالا**" عن عملها لحظة، وتطلعتْ إليه بابتسامة هانئة، ثم قالت: "لا تخف، فأنا بخير"، ثم استأنفت العمل، وقد ازدهاها اهتمام "**رامش**" بها. وعاد هذا إلى الحديث مفتونا: "هل تناولت الفطور يا "**رامش**"؟".. فأجابت: "بالطبع..

منذ ساعات!" .. وكان "رامش" يدرك هذا، ولكنه لم يتمالك أن يسأل ليبدي اهتمامه. ومرة أخرى، عاد يقول كي يبْقَى حبل الحديث متصلا: "لماذا تفعلين كل هذا بنفسك يا "رامش"؟.. هلا نزلت لي عن بعض الأعمال؟" .. والذين يجيدون العمل، يميلون عادة إلى إساءة الظن بمقدرة سواهم، ومن ثمّ ابتسمت "رامش" وأجابت: "لا.. ما هذه بأعمال الرجال!" . فقال: "ما أكثر احتمالنا -معشر الرجال- إذ نتجاوز عما يوجه إلى جنسنا من إهانات. مع ذلك فأنت لم تحجمي عن استخدام العم. لماذا ترينني عديم النفع؟" .. قالت: "لستُ أدري، ولكني لن أتمالك نفسي من الضحك إذا رأيتك تنظف المطبخ من آثار الدخان!.. يحسن بك أن تخرج من هنا، فإنني أثير غبارا كثيرا!" .. ولكنه قال: "إن الغبار لا يفرق بين الناس، فهو يعاملك كما يعاملني، على قدم المساواة!" ، فقالت: "إنما أحتمله أنا لأن واجبي يقتضيني الاحتمال، ولا أرى ما يدعوك إلى ذلك!" ..

وخفض "رامش" صوته، حتى لا يسمعه الخدم وهو يقول: ؛أحب أن أشاركك كل ما تُضطرين إلى احتماله، عملا كان أو أي شيء آخر!" .. فأثار قوله حُمرة واهنة في خديها، وبدلا من أن تجيب، تحولت جانبا ونادت: "أومش" ، يحسن بك أن تلقي ملء دلو آخر من الماء في هذه البقعة. ألا انظر إلى الغبار المتراكم.. ناولني المكنسة" . وشرعتْ تكنس بقوة. وصاح "رامش" وقد ساءه أن تُضنَى بمثل هذه المهمة: "ما الذي تفعلين؟" ، فأجابه صوت من خلفه: "عجبا يا "رامش بابو" .. أي ضرر في العمل؟.. إنكم معشر الذين تلقوْا ثقافة إنجليزية، تتشدقون بالحديث عن المساواة. وإذا كنت ترى الكنس عملا مزريا، فلماذا تكلف به الخادم؟.. إنني لم أصب ما أصبت أنت من تعليم، ولكنك لو سألتني رأيي لقُلتُ لك إن كل قشة تتحول في نظري إلى شعاع من الشمس، كلما رأيت امرأة فاضلة تمسك بمكنسة!" . ثم التفت إلى "كمالا" قائلا: "لقد أوشكت أن أفرغ من إصلاح حديقتك يا عزيزتي، فعليك الآن أن تعيّني لي أحواض الخضر" .. فقالت وهي ماضية في عملها: "لحظة واحدة من فضلك يا عماه، فإنني لم أفرغ بعد من هذه الحجرة" . وإذ انتهت من تنظيف الحجرة، رفعت القناع الذي كانت تضعه على وجهها وتربط طرفيْه إلى وسطها، ثم انهَمكَت في الحديث مع العم عن مواقع أحواض الخضر.

وانقضى النهار سَراعا، ومع ذلك فإن البيت لم يستكمل النظافة التي تَرضَى عنها "كمالا" . فما كان من السهل إزالة آثار الإهمال الطويل، ومن ثم فقد كانت لاتزال ثمة غرف لا سبيل إلى تعميرها دون تنظيف وتهوية. ومن ثم لم يجد "رامش" و"كمالا" بُدّا من قضاء ليلة أخرى في دار العم، الأمر الذي ساءهما. فقد كان الشاب يصبو إلى أن توافيهما أولى ساعات المساء وهما في دارهما الصغيرة، وكان يرى بعين الخيال "كمالا" تبتسم في استحياء وهي إلى جواره، تحت ضوء المصباح، وقد راح يفضي إليها بما في فؤاده. ولما رأى أنه ماتزال أمامهما ثلاثة أيام أو أربعة، لم يشأ أن يرجئ قيد اسمه في محاكم الإقليم، ومن ثم رحل إلى "الله آباد" لهذه الغاية، في اليوم التالي.

الفصل الخامس والثلاثون

– ورحل العم كذلك إلى "**الله آباد**" بعد يوم أو اثنين، كي يزور ابنته الكبرى "**بيدو**". وفي صباح يوم رحيله، دعت "**كمالا**" صديقتها "**سايلاجا**" إلى تناول الغداء معها في البيت الجديد، فلحقت بها الفتاة بعد أن قدّمت لـ"**بيبين**" فطوره، وودعته عند انطلاقه إلى المدينة. وانهمكت الصديقتان في العمل. وبمساعدة "**أومش**" أعدّتا الغداء بجوار الشجرة الضخمة، ثم جلستا تحتها تتحدثان بقية نهارهما. وبدا –لـ"**كمالا**"– النسيم العليل، وأشعة الشمس التي خفف ظلال الشجرة من حدتها، أروع إطار أحاط بحديثهما، وقبيل العصر، تاهبت "**سايلاجا**" للانصراف، إذ كان زوجها وشيك العودة من عمله، فسألتها "**كمالا**" : "ألا تستطيعين أن تتحولي عن عادتك هذه مرة؟" .. ولكن "**سايلاجا**" اكتفت بالابتسام وهزّت رأسها وهي تداعب ذقن "**كمالا**". وقبل أن تنصرف الحّتْ على "**كمالا**" بأن تعود إلى دار "العم" قبل أن يهبط الظلام.

مالبثت "**كمالا**" أن فرغت من العمل والشمس لاتزال عالية فوق الأفق، فأحْكمتْ شالا حول رأسها وكتفيها، واستقرت تحت الشجرة الكبيرة، تتأمل الشمس في انحدارها للمغيب خلف ضفة النهر، حيث كانت ترسو بضعة قوارب للصيد، وقلاعها ماتزال تَشْرئبّ نحو السماء. وأقبل "**أومش**" ينبهها إلى أن الغسق يقترب، فهبّتْ واقفة. وقال الصبيّ: "لقد أرسل العم "**تشاكرابارتي**" عربة لتقلك" .. فولجت الدار تُلقي نظرة أخيرة قبل أن تغادرها. وكانت في القاعة الكبرى مدفاة على الطراز الإنجليزي، يمكن إيقاد النار بها للاستدفاء في الشتاء. وعلى الرّف الذي يعلوها، كان ثمة مصباح بترولي مشتعل ولمحت "**كمالا**" وهي تهمّ بالانصراف، ورقة على حافة المدفاة تحمل اسمها بخط "**رامش**" فسألت "**أومش**" : "من أين هذه الورقة؟، فقال الصبي: "كانت ملقاة في ركن من حجرة السيد، فالتقطتها عندما كنت أكنس الأرض" وتناولت "**كمالا**" الورقة وشرعت تقرؤها، فإذا بها الخطاب الذي كان "رامش" قد أفضَى فيه إلى "**همناليني**" بكل ما في صدره.. ولابد أنه أسقطه بإهماله العجيب!.. وقرأت "**كمالا**" الخطاب بإمعان. وأخيرا سالها "**أومش**" : "لم تقفين هكذا صامتة يا أماه؟.. إن الظلام يشتد!" .. وكان المرء خليقا بأن يسمع رنين الدبوس لفرط السكون!.. وأفزع شكل "**كمالا**" الصبي، فهتف: "ألا تسمعينني يا أماه؟.. يجب أن ننصرف، فقد تأخرنا" .. ولكنها لم تَحرْ حراكا، حتى أقبل خدم "العم" يُنبئونها بأن العربة قد طال انتظارها!".

الفصل السادس والثلاثون

– قالت "سايلاجا" لـ"كمالا" حين عادت هذه إلى الدار: "ألست بخير اليوم يا عزيزتي؟.. هل تعانين صداعا؟".. فأجابت "كمالا": "لا، أنا بخير.. أين العم؟".. قالت الأولى: "لقد أوفدته أمي إلى "الله آباد" ليزور أختي، إذ إن صحتها لم تكن على ما يرام في الفترة الأخيرة". وعادت "كمالا" تتساءل: "ومتى يعود؟"، فأجابت صاحبتها: "سيغيب أسبوعا على الأقل. لقد أسرفْت في إنهاك قواك بالعمل في بيتك طوال اليوم يا عزيزتي، فأنت تلوحين جد متعبة. ألا تناولي عشاءك مبكرة، ثم أسرعي إلى فراشك". وكان أشد ما يخفف عن "كمالا" –في تلك الضائقة– أن تركن إلى "سايلاجا"، وتفضي إليها بامرها ولكنها شعرتْ بان هذا مستحيل. فما كان ليغريها شيء على أن تعترف –ولـ"سايلاجا" بالذات– بان الرجل الذي كانت تعتقده زوجها، لم يكن زوجها قط!.. ومن ثم احتبست نفسها في غرفتها، وعادت تقرأ خطاب "رامش" على ضوء مصباحها. ولم يكن في الخطاب أثر لاسم، أو مكان المرسل إليه، ولكن ماورد في الرسالة نم بجلاء عن أنها كانت موجهة إلى امرأة، وإن هذه المرأة كانت مخطوبة لـ"رامش"، وأن علاقة الشاب بـ"كمالا" أدت إلى فَصْم هذه الخطبة، ثم إن "رامش" لم يخف في رسالته أنه كان يحب تلك المرأة بجماع قلبه، وأنه ما فسخ علاقتهما إلا من أجل تلك البائسة "كمالا"، التي ارتبط حظها بحظه بطريقة عجيبة!.. وأخذت "كمالا" تذكر كل صغيرة من حياتها مع "رامش"، منذ لقائهما الأول على شاطئ الجزيرة الرملية حتى وصولهما إلى "غازيبور"، فإذا ما كان يبدو لها مُبْهَما، يتجلّى بوضوح. لقد أدرك "رامش" منذ البداية أنها لم تكن زوجته، و كان يرهق فكره بحثا عن وسيلة للخلاص منها، في حين أنها حسبته، بكل اطمئنان زوجها وكانت تتاهب –دونما حياء– لان تستقر معه في معاشرة تمتد بامتداد العمر!.. ونفذ الخزي إلى قلبها وكأنه خنجر، وتمنت –إذ عاودتها الأحداث العديدة التي جرت بينهما– أن تنشق الأرض فتبتلعها، لسوف يعلق بها العار طوال عمرها.. لا مفر من وصمته!

وفتحت الباب في لَهْفة، وانطلقتْ إلى الحديقة الخلفيّة للمنزل. كانت سماء الشتاء المعتمة تخيّم فوقها كانها قبّة من رخام أسود لا تشوبها قطعة من السحاب أو الضّباب، بينما كانت النّجوم ترصعها متلألئة، وفروع إحدى أشجار المانجو تقوم كشبح في الظلام. ولم يتفتح أمام بصيرة "كمالا" مهرب من تعاستها هذه، فتهالكتْ على الحشائش النديّة، وجلست كتمثال جامد، دون أن تذرف دمعة، أو تطلق زفرة!.. ولم تفطن إلى مرور الزمن، ولكن البرد مالبث أن تسلل شيئا فشيئا إلى قلبها، فارتجفتْ جوانحها. وعندما بدد القمر الظلام في النهاية، وبدا خلف أشجار النخيل الساكنة، نهضتْ في بطء وآبتْ إلى غرفتها، فأوصدت الباب خلفها. وعندما فتحت عينيها في الصباح، رأت "سايلاجا" تنتصب إلى

جوار سريرها، فهبّتْ لفورها، وقد أخجلها أن تتاخر في نومها. وقالت "**سايلاجا**" : "لا تنهضي يا عزيزتي، بل خير لك أن تعودي إلى النوم فترة أخرى، فانت لا تلوحين في صحة جيدة. إنك تبدين منهوكة القوى، وهناك هالات داكنة تحيط بعينيك. ألا أنبئيني يا عزيزتي بما بك؟" . وجلستْ إلى جوارها، ثم طوّقت عنقها بذراعيها، فراح صدر "**كمالا**" يتهدج بقوة، ولم تستطع أن تكبح دموعها، فاخفتْ وجهها في صدر "**سايلاجا**" وانطلقتْ تجهش بالبكاء، والشابة تضمها إليها دون أن تحاول مواساتها ومالبثت "**كمالا**" أن تملصت من عناق "**سايلاجا**" أخيرا، فمَسَحتْ دمعها، وبدأت تضحك في خجل. فقالت "**سايلاجا**" : "كفى، كفى!.. إنك أكثر من عرفت من الفتيات تكتما، ولكن لا تظني أنني لا أعرف فيم كل هذا الحزن، فلست من السذاجة إلى هذا الحد!.. أؤنبك به؟.. إن "**رامش بابو**" لم يكتب لك خطابا واحدا منذ رحيله إلى "**الله آباد**" ولذلك فانت مستاءة، وإن كانت كبرياؤك تمنعك من الجهر بهذا الاستياء. على أنك خليقة بان تذكري أن لديه مشاغل كثيرة، وأنه عائد بعد يومين، ومن ثم ينبغي ألا يُحزنك أنه لا يجد وقتا للكتابة، خاصة وأنك تعلمين أنه لن يغيب طويلا. ياللك من حَمْقاء!.. ولكن، أتعرفين يا عزيزتي أنني، رغم نُصْحي لك، ماكنت لأفعل إلا ما تفعلين لو كنت في مكانك؟.. إن النساء يبكين للتوافه!.. ولكن، ما إن تشبعي بكاء وتعودي إلى الابتسام، حتى تنسي كل شيء!" .. وضمّت "**كمالا**" إلى صدرها، وهي تستانف قولها: "ما أحسبك ألا تشعرين بانك لن تصفحي أبدا عن "**رامش بابو**" .. أليس كذلك؟" .

قالت "**كمالا**" : "أجل.. هذا حق!" .. فربتت "**سايلاجا**" خدها قائلة: "هكذا حدست، ولكننا سنرى!" .

وفي ذلك اليوم نفسه، أرسلت "**سايلاجا**" خطابا إلى أبيها في "**الله آباد**" تكاشفه فيه بحزن "**كمالا**" لأن "**رامش**" لم يكتب إليها، فبادر "العم" إلى لقاء "**رامش**" ، وقرأ عليه طرفا من خطاب ابنته، ثم ألقى عليه محاضرة قاسية. وما كان صمت "**رامش**" راجعا في الحقيقة إلى عدم اكتراث منه بـ"**كمالا**" ، وإنما لأن حيرته كانت تتضاعف كلما ازداد تفكيرا في الموقف. لم يكن إهمالا، وإنما كان حيرة! وقد دعَتْه هذه الحيرة إلى أن يتلكأ في "**الله آباد**" . ثم جاء خطاب "**سايلاجا**" ، فاشعره بان "**كمالا**" كانت تفتقده في أسَى، وإن منعها الحياء من أن تكتب إليه. ولما كان "**رامش**" قد بلغ مُفْتَرق الطرق، فقد اختار الطريق التي يحسن به أن يسلكها، مهتديا بحب "**كمالا**" له، قبل أن يهتدي بتفكيره في سعادته!.. إن القدر لم يربط حياتيهما معا فحسب، بل إنه ربط بين قلبيهما يوم جمعهما على شاطئ الجزيرة الرملية النائية. ومن ثم عكف لفوره على كتابة الرسالة التالية لـ"**كمالا**" :

"يا حبيبتي: لا تظني أنني أستعمل هذا النداء جريا مع العرف يا "**كمالا**" ، فما كنت لأدعوك "حبيبتي" لو لم تكوني بالفعل أحبّ شخص في الدنيا لديّ. فإذا كانت قد خالجتْك أية شكوك.. إذا كنت قد جرحتُ شعورك يوما، فدعي ندائي المخلص لك: "يا

حبيبتي"، يُبدد الشكوك، ويداوي آلام الجراح إلى الأبد!

"وما الداعي للإطالة في هذا؟.. إن كثيرا من تصرّفاتي في الماضي قد آلمتك، وإذا كنت قد أدنتني -في فؤادك- لهذا، فليس في وسْعي أن أدافع عن نفسي. كل ما أملك هو أن أردّد أنك "حبيبتي"، وأن ليس في الوجود من أكنّ له ما أكن لك من عاطفة. وقد لا يكون هذا دفاعا كاملا يشفع لما شاب مسلكي، ولكنه -على أية حال- كل ما أملك أن أتشفع به. ومن ثم فإنني إذ أدعوك يا "حبيبتي"، إنما أمحو كل ماضينا الموْبوء بالشك، لنرسي معا أسس حبنا المقبل!.. صدقيني إذا قلت إنني لا أفكر في مخلوق سواك، فليس سواك، وسواك فقط، "حبيبتي"!.. فإذا ما آمنت بهذا، آن لشكوكك وهواجسك أن تهجع. وخليق بي أن أسألك بعد هذا عمّ إذا كنت قد كسبت حبك أم لم أكسبْه، ولكنني لا أجرُؤ على هذا السؤال.. فإن الحب لا يقبل سؤالا!.. ولست أشك لحظة في أنني سأعرف الجواب يوما.. بغير كلمات!.. وإنما سيحدّث قلب الواحد منا قلب الآخر.. وما يؤكد لي هذا غير حبي لك! ولست أزعم أنني أهل لك، ولكنني أشعر بأن هيامي بك لا يمكن أن يكون بغير جدوى أو مقابل!

"إنني لألْمس أن هذا الخطاب يبدو كموضوع إنشائي منمق، ولهذا تساورُني الرغبة في أن أمزّقه، ولكن من المستحيل عليّ أن أكتب خطابا يعبر أصدق تعبير عن مشاعري. على أن الخطابات أشياء يجب أن يتبادلها أي شخصين مترابطين. وفي أول خطاب يعز على الكاتب أن يعبر تعبيرا صادقا عن مشاعره. ولكنني -إذا ما انسجم عقلانا- سأملك أن أكتب لك خطابات صادقة التعبير.. فإن تيار الهواء لا يجري في غرفة، إلا إذا فتح فيها بابان متقابلان!.. فمتى أعثر على باب قلبك يا حبيبتي "**كمالا**"؟!.. إنني واثق من أن هذا لن يلبث أن يتحقق مع مرور الأيام، وأن التعجل يفسد الغاية. سأصل إلى "**غازيبور**" في صباح اليوم التالي لتسلمك هذه الرسالة. وأرجو أن أجدك في بيتنا عند وصولي. لقد ظلَلْنا طويلا بلا بيت، ولم أعد أحتمل هذا اللون من الحياة.. فلقد آن لي أخيرا أن أتطلّع إلى اللحظة التي أعبُر فيها عتبة بيتنا، فأرى مليكة قلبي، وربة داري. ستكون هذه اللحظة "أول لقاء ثان" لنا!

أتذكرين "أول لقاء لنا".. في تلك الليلة المقمرة، على ضفة النهر، في الجزيرة الرملية المنعزلة. كنا تحت قبة السماء، وليس فوق رأسيْنا سقف، ولا ما يشبه السقف، وليس من آباء ولا أهل يحتفلون بزفافنا؟!.. إن قصتنا لا تبدو واقعية لي.. إنها كحلم!.. ومن ثمّ فإنني أتوق إلى زفاف آخر، على ضوء الصباح الهادئ، الباهر، بين جدران أربعة، وفي الحقيقة الواقعة. إن وجهك الصبوح، وسط إطار من مدخل بيتنا، سيظل دائما متربّعا على عرش ذاكرتي. إنها الصورة التي أتوق إلى أن أراها في الواقع. إنني تائب أقف عند عتبات قلبك يا حبيبتي.. فلا ترديني خائبا!.. المخلص: "**رامش**".

الفصل السابع والثلاثون

- قالت "**سايلاجا**" في اليوم التالي، تحاول أن تَنْتشل "**كمالا**" من وجومها: "ألست ذاهبة إلى دارك؟".. فأجابتها: "لا.. لم يبق ما أفعله هناك!" قالت "**سايلاجا**": "هل أعددت كل الغرف؟". فردتْ "**كمالا**" قائلة: "أجل.. فرغتُ منها جميعا". وغابت "**سايلاجا**" عنها فترة، ثم عادت فبادرتْها قائلة: "ما الذي تعطينيه إذا أسلمتك شيئا؟".. قالت "**كمالا**": "ليس لدي ما أمنحه يا "**ديدي**"!" (و"**ديدي**" تقابل "**أبلة**" أو أختي الكبرى).. فقالت "**سايلاجا**": "لا شيء مطلقا؟".. "لا شيء مطلقا!".. إذ ذاك قرصت "**سايلاجا**" خدها مداعبة وقالت: "أهكذا؟!.. لابد أنك أعطيت كل ما عندك شخصا معينا كي يصونه لك!.. ما قولك في هذا؟".. وتناولت من طيات مئزرها خطابا أخذت تلوح به، فشحب وجه "**كمالا**" إذ رأت خط "**رامش**" على الغلاف، وهمّت بأن تشيح عنه، لولا أن قالت "**سايلاجا**": "حسبك!.. لقد أظهرت من كبريائك هذه ما فيه الكفاية، فكفّي عنها. إني لأوقن من أنك تتلهفين شوقا إلى أن تختطفي هذه الرسالة مني، ولكني لن أعطيك إياها إلا إذا طلبتها في أدب. وسترين كم يطول تمنعك!".. وفي تلك اللحظة أقبلت "**أومي**" على الحجرة صائحة: "خالتي! خالتي!"، وهي تجر علبة من علب الصابون خلفها كأنها عربة، فما كان من "**كمالا**" إلا أن اختطفت الطفلة فضمتها إلى صدرها، وأخذت تغمرها بالقبلات ورفعت "**أومي**" عقيرتها بالبكاء احتجاجا على إقصائها عن لعبتها، ولكن "**كمالا**" أبت أن تفلتها، بل أسرعت بها إلى غرفتها الخاصة، وهي تحاول إسكاتها بعبارات التدليل. وتبعتهما "**سايلاجا**" صائحة: "غُلِبْتُ على أمري!.. كفي يا "**كمالا**"!.. إليك الخطاب!.. لن أقسو عليك مرة أخرى!".. وألقتْ بالخطاب على السرير، ثم أنقذت "**أومي**" من قبضة "**كمالا**"، وأسرعتْ بها إلى خارج الغرفة. وتناولت "**كمالا**" الخطاب فقلبته بين يديها، ثم فضته وشرعت تقرأ ما جاء به، ولكنها لم تكد تلقي أول نظرة عليه، حتى تولاها الغضب، فرمتْ الخطاب بعيدا، ثم غالبت ثورتها واشمئزازها، والتقطته مرة أخرى فقرأته بأكمله!

وسواء أكانت قد فهمت كل ما جاء به أو لم تفهمه، فهذا أمر لا يمكن التكهن به، ولكنها أحسّت كأنها تمسك شيئا قذرا بين يديها، فعادت تُلقي به بعيدا. كان ينطوي على دعْوة لأن تكون زوجة لرجل ليس بزوجها!.. كيف جرؤ "**رامش**" على أن يقذفها بهذه الإهانة وهو العليم بكل الحقائق. إذا كان قلبها قد مال إليه بعد وصولهما إلى "**غازيبور**" فهل دار بخلده أن ذلك كان راجعا إلى أنه "**رامش**" بالذات، وليس لأنها كانت تعتقد أنه زوجها؟.. لقد تسرع "**رامش**" وأساء الظن، فترك الشفقة على وحيدة تَعسَة مثلها تدفعه إلى أن يكتب إليها رسالة غرامية، كيف تمحو الإيحاء الخاطئ الذي فهمه من مسلكها؟.. كأنما قُدّر عليها أن يكون نصيبها من الحياء هو الخزي والاشمئزاز، رغم أنها لم تُجرم في

حق أحد منذ وفدتْ على هذه الدنيا!.. وتمثّل لها "البيت" -الذي كانت تصبو إليه- كوحش رهيب يهمّ بابتلاعها، فتلفتت حولها في قنوط تبحث عن مفرّ. وما كان ليخطر ببالها -منذ يومين فقط- أن "**رامش**" قد يبدي كل هذه الفظاعة نحوها!

*****

- وقطع عليها أفكارها سعال من "**أومش**"، فإذا به لدى الباب. وإذ لم تلتفت إليه، هتف في لُطْف: "أماه!".. فسعتْ إلى الباب، وإذ ذاك، قال وهو يحُكّ رأسه: "لقد أحضرت أسرة "**سيدو بابو**" فرقة تمثيلية من "**كلكتا**" بمناسبة زفاف ابنتهم".. فبادرت قائلة: "حسنا تستطيع أن تذهب لتشاهد التمثيل".. قال: "وأي نوع من الزهور تحبين أن أحضر إليك في الصباح؟"، فأجابت: "لا داعي لأية زهور".. وهمّ بأن ينطلق، لولا أن نادته قائلة: "مهْلا يا "**أومش**".. مادمت ذاهبا لمشاهدة التمثيل، فهاك خمس روبيات!".. وبُهتَ الصبيّ فإن النظارة في مثل هذه المناسبات لا يدفعون شيئا. ومن ثم سألها: "أتريدين أن أبتاع لك شيئا من المدينة يا أماه؟". فقالت "**كمالا**": "لا، لا أريد شيئا. وفر النقود، فسوف تحتاج إليها". وهمّ الصبيّ بأن ينصرف وقد تولّته الدهْشة، ولكنها نادته ثانية وقالت له: "ما الذي يقوله الناس إذا رأوك بهذه الثياب؟".. وما خطر لـ"**أومش**" يوما أن الناس يتوقعون منه أن يبدو في ثياب أفضل من تلك.. وما كان ليحفل بما حُرم من أناقة، ومن ثمّ فإنه لم يتمالك أن ابتسم لقول "**كمالا**"، بينما أخرجت قطعتين من ثيابها الخاصة، وطوحت بهما إليه. وكانتا قطعتين من الثياب الفضفاضة التي تصلح للذكور وللإناث، كل حسب الطريقة التي يرتديها بها. وكانت لهما حواف مزركشة، مما أبهج "**أومش**". وألقَى بنفسه على قدمي "**كمالا**" في خضوع وعرفان، ثم التقط الثوبيْن وخرج.

ومسحت "**كمالا**" دمعة انحدرت من عينها، ووقفت إلى جوار النافذة. ومالبثت أن أقبلت "**سايلاجا**" قائلة: "ألن تريني خطابك يا عزيزتي "**كمالا**"؟.. كانت لا تكتم عن "**كمالا**" سرا مما جعلها تجرؤ على أن توجه إليها مثل هذا السؤال. فقالت "**كمالا**" وهي تشير إلى الخطاب الملْقَى على الأرض: "ها هو ذا يا "ديدي".. اقرئيه".. فقالت "**سايلاجا**" لنفسها في دهشة، وهي تلتقط الخطاب وتقرأه عن آخره: "إنها لم تغالب بعد كبرياءها!".. كان خطابا زاخرا بالعاطفة، بلا شك، ولكن.. ما أغرب أن يكتب رجل مثل هذا الخطاب لزوجته!.. كان أسلوبه غريبا!.. فقالت "**سايلاجا**": "هل يؤلف زوجك روايات يا عزيزتي؟".. وأجفلت "**كمالا**" -وهي مهمومة- من كلمة "زوجك"، وقالت: "لست أدري".. قالت "**سايلاجا**": "حسنا.. ألست ذاهبة إلى البيت الجديد اليوم؟"

وهزّتْ "**كمالا**" رأسها مجيبة بالإيجاب، وعندئذ قالت صاحبتها: "وددتُ أن أقضي النهار كله معك هناك، ولكنك تعرفين يا عزيزتي أن لابد لي من أن أحضر استقبال العروس

في بيت "نارسينغ بابو"، فقالت "**كمالا**": "لا بأس.. إن الخدم هناك!".. وكانت "**أومي**" في تلك الأثناء قد عثرت على قلم رصاص، فانهمكتْ في العبث به في كل ما صادفتْ، وجذبتْها "**سايلاجا**" رغم صراخها، ولكن "**كمالا**" اختطفتها منها، وألقتها على سريرها وأخذت تلاعبها، ثم تناولت من صندوقها سوارين رفيعين من الذهب -وكانا من أبدع ما رآته "**أومي**" من لعب- فلما أحاطت "الخالة" ساعديْ الصبيّة بهما، راحت تهز ذراعيها وكل جسمها في إعجاب وطرب!.. وهُرعت لتعرضهما على أمها. وما إن فطنت "**سايلاجا**"، حتى انتزعت السوارين لتردهما إلى صاحبتهما قائلة: "وما الذي جرى لعقلك يا "**كمالا**"؟".. قالت "**كمالا**": "لقد قدمتهما هدية لـ"**أومي**"!".. فصاحت "**سايلاجا**": "هل جننت"؟.. ولكن "**كمالا**" قالت: أتحداك أن تردّيهما يا "**ديدي**"!".. قالت الشابة وهي تطوق عنق "**كمالا**": "لعمري، ما رأيت مجنونة مثلك!".. بينما قالت هذه: "لابد من أن أودعك اليوم يا "**ديدي**".. لقد كنت جد سعيدة بالإقامة هنا، بل ما حظيت بمثل هذه السعادة في حياتي!".

وانسابت الدموع من مقلتيها، فلم تقو "**سايلاجا**" على كبح دموعها هي الأخرى، وقالت: "لا تتكلمي بهذه اللهجة، وكأنك راحلة بعيدا. ما أظنك كنت سعيدة حقا هنا، وإنما ستعرفين السعادة الحقة حين تنتقلين إلى بيت لا يشاركك فيه غير زوجك. ولسوف نزورك من آن لآخر، وإن كنت أعرف أنك ستقولين إذا ما أدرنا ظهورنا منصرفين: "الشكر للسماء، لقد انصرفوا أخيرا!".

وعندما آن لـ"**كمالا**" أن ترحل إلى البيت الجديد بعد أن ودعت القوم قالت "**سايلاجا**": "سآتي لزيارتك ظهر غد"، ولكن "**كمالا**" لم ترحب.. ولم ترفض. وعند وصولها إلى البيت، وجدت "**أومش**" هناك، فهتفت في عجب: "إذن فأنت هنا.. ظننتك ذهبت لتشهد التمثيل". فقال الصبي: "كنت ذاهبا، ولكنك كنت قادمة إلى هنا..."، فصاحت: "لا تشغل بي، اذهب وتفرّج على التمثيل. إن "**بيشان**" هنا، فأسرع وإلا تأخرت". وانصرف "**أومش**" وقد اطمأن إلى وجود "**بيشان**"، الخادم الآخر، ولكن "**كمالا**" نادته ثانية قائلة: "اسمع.. إذا جاء العم.."، ثم أمسكت، وقد عجزت عن إتمام عبارتها. وحملق فيها "**أومش**" في دهشة. ولكنها مالبثت أن عادت تقول: "تذكر أن العم صديق حميم، فإذا شئت أي شيء فاذهب إليه. وسله ما تشاء واستحْلفه بحبي، تجده يلبّي رغبتك. ولا تنس أن تبلغه حبي!".. فانطلق "**أومش**" وهو في حيرة، لا يفقه من أمرها شيئا.

وعند الأصيل، رآها "**بيشان**" خارجة فسألها: "إلى أين يا سيدتي؟". فأجابت: "سأذهب لأغتسل في "**الجانجز**".. قال: "أأرافقك؟"، ولكنها قالت: "لا، امكث واحرس الدار"، ثم منحته روبية لغير ما سبب واضح، وسارت في اتجاه النهر.

الفصل الثامن والثلاثون

– صعد "أنادابابو" عصر ذات يوم إلى غرفة "همناليني" طامعا في أن يتناول الشاي معها على انفراد، ولكنه لم يجدها في غرفتها، ولا في قاعة الجلوس، وعلم من حارس الباب أنها لم تبرح البيت. وخالجَه قلق مُبهَم، فصعد إلى سطح الدار ليبحث عنها، فإذا السقوف تمتد إلى أقصى مرامي البصر، وقد أرسلتْ عليها شمس الشتاء الذابلة ضوءا شاحبا. وأخذت نسائم المساء المبكرة، تهبّ تباعا. ووجد الرجل ابنته غارقة في أفكارها، في ظلال "المنور" المقام على رأس السلم، فسار إليها، ثم وقف خلفها، ولكنها لم تبد أي شعور بوجوده. واقترب منها –في النهاية– فمس كتفيْها، وإذ ذاك أجفلتْ مذعورة، ثم تضرّج وجهها واعتراها ارتباك. وبادر جالسا إلى جوارها قبل أن تهمّ بالنهوض ثم تنهّد في أسى وقال: "أواه، يا "هيم"!.. ليت أمك كانت على قيد الحياة!.. إنها كانت أكثر مني نفْعا لك!".. وكانت هذه الصيحة الآسية من الرجل كفيلة بان توقظ "همناليني" من شرودها، لتتأمل وجه أبيها... آه، يا للحب، والعطف، والألم، التي لمحتها في ذلك الوجه!.. كان ثمة تغيّر حزين قد ران على ذلك الوجه في الأيام الأخيرة. كان الأب الكهل هو الذي تحمل العاصفة التي دهمت ابنته، فلم يدّخر جهدا في تبديد غيوم الأسى عنها، حتى إذا تبيّن أن جهوده لم تثمر، اخذت أفكاره تتّجه إلى أم الفتاة. ومن ثم كانت تلك الصيحة التي انبعثت من أعماق فؤاده، فنبّهَت "همناليني"، وانتزعتها من استغراقها في أحزانها.. فإذا الدنيا التي كانت تبدو لها حلما، تقفز فجاة إلى الواقع، وإذا الشعور بالخزي يغمرها، لأنانيتها!.. وفي جهد وعزم، نضّتْ عنها شباك الذكريات التي كانت تتخبط في إسارها، وتساءلت: "كيف أنت اليوم يا أبت؟".. أتسأله عن صحته!.. لقد نسي "أنادابابو" في الأيام الأخيرة أن الصحة أهل لأن تكون موضوعا للحديث، فقال: "كيف أنا؟.. إن جسدي لا يعاني شيئا يا عزيزتي.. إنما يُزعجني ويشغل بالي ما أراه باديا عليك من سقم في هذه الأيام. إن شيخا صلب العود مثلي، يستطيع أن يحتمل، ولكني أخشى أن تكون الوطأة جد قاسية على شابة مثلك!".

وربّت كتفها في حنان، فقالت: "الا قُل لي يا أبت.. كم كان عمري حين ماتت أمي؟".. قال: "كنت في الثالثة إذ ذاك، وقد بدأت تتكلمين. وشد ما أذكر سؤالك إياي: "أين أمي؟"... فكنت أجيب: "ذهبت إلى أبيها!".. فإن أباها كان قد مات قبل مولدك، ولم تكوني تدركين المعنى الذي ينطوي عليه جوابي.. ولكنك كنت تظلّين واقفة ترمقينني في وجوم.. ثم تمسكين بيدي، وتجرينني إلى غرفة أمك، وكأنما كنت تخالين أنني قد أجد فيها ما يرشدنا إلى مكان أمك.. كنت ترين أن أباك قادر على أن يفعل المعجزات، وما خطر لك أن أباك يغدو أجهل وأعجز من الطفل إزاء المسائل التي تتعلق بالموت والحياة.. ولعلك الآن تشعرين بعجز أبيك إزاء محنتك!... إن الله وهبك أبا قادرا على حبك، ولكنه عاجز عن مساعدتك!".. وأمسكت "همناليني" بيد أبيها المرتعشة فراحت

تتحسسها، وقالت: "إنني لا أكاد أذكر أمي.. كل ما أذكره أنها كانت تستلقي عند الظهيرة، وتستغرق في القراءة، فكنت أشد الكتاب من يديها".. وهكذا راحا يتحدثان موغلين في الماضي، وأخذت "**همناليني**" تمطر أباها بالأسئلة عن شكل أمها، وعاداتها، والحياة العائلية في تلك الأيام. وكان أبوها يجيبها قدر استطاعته. وأخذت الشمس تنحدر للمغيب، فاستحال لون السماء إلى لون النحاس الصدئ. وشملت سطح البيت سكينة وادعة -وسط الضوضاء التي كانت تنبعث من المدينة الكبيرة- فإذا هذه السكينة رباط جديد يعزز الودّ المتبادل بين الأب وابنته.. بين الكهل والشابة!.. وظلا في مجلسهما حتى خبا ضوء النهار، وبدأ الظل الخفيف يسقط عليهما كالدموع!

*****

- وفجأة، انبعث وقْع قدميْ "**جوجندرا**" على السلّم. وانقطع الحديث الخافت بين الأب وابنته فورا، وقفزا معا واقفين. وقال "**جوجندرا**" وهو يتفرس في وجهيهما: "يبدو أن "**هيم**" اتخذت من سطح الدار قاعة للجلوس في هذه الأيام!". وكان شديد الاستياء للتطور الذي اتجهت إليه الأمور. فقد كانت ثمةَ سحابة من الأسى تخيّم على البيت ليل نهار، حتى أصبْح يرى الحياة لا تُطاق في البيت، ولكنه مع ذلك لم يشعر بميل إلى أن ينشد صحبة أخرى، لأنه كان كلما زار بيوت الأصدقاء والمعارف، ألفَى نفسه مضطرا لأن يقدم الإيضاحات لما حدث من فسخ خطبة "**همناليني**". وكان يقول لأبيه في تلك المناسبات: إن "**همناليني**" تغالي في الأسى بسبب هذا الأمر. وهذه نتيجة ترك الفتيات يقرأن الروايات الإنجليزية. إن "**همناليني**" ترى أن "**رامش**" هجرها فيجب أن يتحطم قلبها، ومن ثم فهي تعمل على أن تُحطّم قلبها. إنها فرصة فذة لشابة تقرأ الروايات كي تبين كيف تتأسّى وتحتمل ما أصاب غرامها من غدر!"..

وفي هذه المرة سارع الأب إلى القول: "لقد اخترت أنا سطح البيت لأتحدث إلى "**هيم**" في هدوء!".. كان يرمي إلى حماية ابنته من لذعات "**جوجندرا**" القاسية. ولكن هذه الكلمات لم توح إلى الشاب بشيء سوى أن أباه استدرج أخته إلى سطح الدار ليجاذبها أطراف الحديث، فقال: "أليس في وسع المرء أن يتكلم على مائدة الشاي. إنك تشجع "**هيم**" على حماقتها يا أبت. لسوف تضطرني معا إلى أن أهجر الدار!".. وصاحت "**همناليني**" إذ فطنت إلى موعد الشاي: "ألم تتناول الشاي بعد يا أبت؟"، فقال "**جوجندرا**": "إن الشاي ليس كخيال الشاعر، والسماء لا تمطر شايا من شفق الشمس الآفلة.. ولا الأكواب قادرة على أن تملأ نفسها وتصعد إليكما في جلستكما!".. فبادر "**أنادابابو**" قائلا: "ولكنني رأيت ألا أتناول شايا اليوم". فعقب "**جوجندرا**" قائلا: "ما هذا يا أبت، هل أوشكتَ أن تصبح زاهدا؟".. قال "**أنادا**": "آه.. لا، إنها ليست مسألة زُهْد، ولكنني لم أحْظَ بنوم طيب ليلة أمس، ففكرتُ في أن أجرب الامتناع عن الشاي!".

والحق أن شبح كوب الشاي كان يتراقص امام بصر "**أنادا بابو**" أثناء حديثه مع "**همناليني**" .. ولكنهما كانا قد انسجما في الحديث، وخرجت الفتاة عن وجومها،، فكانت اية حركة كفيلة بأن تُحدث أثرا سيئا، وأن تحُمَل الأفكار على أن تبادر إلى الفرار كالغزال الخائف. على أن "**همناليني**" لم تصدق ان اباها كان يعتزم جادا الامتناع عن "كيفه" المعتاد، فهتفت به: "هيا يا أبت لابد لك من تناول الشاي" .. ونَسي الرجل ما كان يشكوه من أرق، وأسرع يرافقها، فلما دخل غرفة الجلوس بالطابق الأرضي، ساءه أن يجد "**أكشاي**" متربعا فيها، إذ كانت "**هيم**" قد استردت شيئا من حالها الطبيعية، فكان منظر "**أكشاي**" خليقا بأن يُحدث لديها انتكاسا. ولم تكن ثمة فرصة لإنقاذ الموقف، لأن الفتاة كانت قد ولجت الحجرة بالفعل. ونهض "**أكشاي**" لفوره، قائلا: "يحسن بي أن انصرف يا "**جوجن**". ولدهشة الجميع، قالت "**همناليني**" : "ماذا جرى يا "**أكشاي بابو**"؟.. افي عجلة انت؟.. تناول كوب شاي أولا!" .. وعاد إلى مجلسه قائلا: "لقد تناولت كوبين قبل مقدمك. على أنني قد أستطيع أن أتناول كوبا ثالثا، إذا الحَحْت!" .. فابتسمت "**همناليني**" قائلة: "ستكون هذه أول مرة نضطر فيها إلى الإلحاح عليك!؟" . وبدلا من أن يخجل، بادر قائلا: "حقا.. إن عندي من الذوق ما يقيني أن أرفض الشيء الطيب!" . وقال "**جوجندرا**" : "وعلى هذا النسق نفسه، ما أظن أن الشيء الطيب يرفض أن يذهب إليك إذا عرضت نفسك عليه!!"

ومرة أخرى ، عاد الحديث إلى سابق عهده ، حول مائدة الشاي بدار "**أنادا بابو**" . ومع أن ضحك "**همناليني**" لم يَرْقَ قط إلى مرتبة القهقهة، إلا أنه في ذلك اليوم كان يعلو على الكلام بين آن وآخر. وكانت تريد التسرية عن أبيها، فقالت: " لقد نسي "**أكشاي بابو**" نفسَه يا أبت.. إنه في خير صحة رغم أنه لم يتناول شيئا من أقراصك منذ أيام . ولو أنها كانت ذات فائدة، لشكا الآن من الصداع !" .. فقال "**جوجندرا**" : "إنه يخون أقراصه!" .. وضحك "**أنادا بابو**" مغتبطا ، إذ رأى أسرته تعود إلى تبادل الفكاهات حول أقراصه ، وأحسّ بأن هذه العلامة بُشرَى عودة الانسجام . وما لبث أن قال: " إنني أدرك ما تسيران إليه..

إنكما تحاولان أن تزعزعا ثقة "**أكشاي**" ، فهو الوحيد الذي بقي لي من مدمني أقراصي!" .. فقال "**أكشاي**" : " لاتخش من هذا ، فلن يستطيعا أن يؤثرا في تحالفنا!" .. وقال "**جوجندرا**" : " عجبا ، أيكون "**أكشاي**"كالروبية الرديئة ، إذا حاولتَ صرفها وقعتَ في المتاعب؟!. وبدد الضحك غيوم الأسى عن مائدة الشاي.. وكان من الممكن أن يطول الحديث الفكه ، لولا أن استأذنت "**همناليني**" في الانصراف لتعنى بشعرها ، وإذ ذاك ، حلا لـ"**أكشاي**" أن يتذكر أنه على موعد ، فانصرف هو الآخر!

– وعندما خلا "**جوجندرا**" إلى أبيه، قال له : " ما ينبغي أن ننتظر إلى ما بعد هذا يا أبت.. يجب أن نزوج "**همناليني**"!.. فحدق فيه "**أنادا بابو**" بإمعان، بينما استطرد الشاب: " إن الأقاويل تتناثر حول انفصام خطبتها لـ"**رامش**" ، وليس بوسعي أن اظل أكافح بمفردي . ولو أنني كنت في وضع يمكنني من الجهر بالحقيقة كلها- ما حفلت بشيء، ولكنني لاأبيح لنفسي

الكلام إكراما لـ"**هيم**" . فأنا أناضل وفمي مُغلَق وإنك لتعلم أني منذ أيام اضطررت إلى أن أتشاجر مع "**أخيل**" إذ سمعته يتمادى في كلامه. ولو أننا استطعنا أن نزوجها في القريب، لانقطعت الأقاويل، ولما اضطررْت إلى أن أقوم في كل مكان بدور البطل الوحيد، فأشمر عن ساعدي وأتحدى الدنيا!" . قال "**أنادا**" : "ولكن، لمن نزوجها يا "**جوجن**"؟"، فأجاب الشاب: "هناك شخص وحيد، من المتعذر أن نجد سواه بعد الذي حدث، وبعد الشائعات المنتشرة. هناك "**أكشاي**" المسكين... سَلْه أن يتناول قرصا من حبوبك، فيبادر إلى تناوله! وكذلك، اطلب إليه أن يتزوج، فسرعان ما يتزوج!" .. فهتف "**أنادا**": "أمجْنون أنت يا "**جوجن**"؟.. أتظن أن "**هيم**" تقبل الزواج من "**أكشاي**"!.. ولكن الشاب قال: "ساعمل للحصول على موافقتها، إذا أنت لم تتدخل!" .. فصاح الأب: "لا، يا "**جوجن**"، لا.. لن أسمح لك بأن ترهق "**هيم**" لإغرائها، فإن هذا لن يؤدّي إلا إلى إزعاجها وإثقالها بالأسى.. دعْها وشانها فترة من الزمن، فإن المسكينة تجتاز تجربة مضنية، وما ينبغي أن نتعجل زواجها!"، فقال "**جوجن**" : إنني لن أحاول أن أضغط عليها، بل سابذل كل جهد لكي أكون معتدلا، متلطفا معها.. أتظنّني لا أجيد الحديث معها إلا إذا تشاجرنا؟" .

ولم ينتظر "**جوجندرا**"، بل سارع إلى "**همناليني**" بمجرد فراغها من العناية بشعرها، وخروجها من غرفتها. وقال: "**هيم**" .. أحب أن أحدثك في أمر" .. وتسارَعَتْ دقات قلبها لكلماته، وتبعته متثاقلة إلى غرفة الجلوس، ثم جلست تنتظر حديثه فقال: "ألم تلاحظي ما يبدو على أبينا من سوء صحة؟" .. ولم تقل شيئا، ولكن محياها وَشَى بالقلق الذي داخلها. وعاد "**جوجندرا**" يقول: "ألا صدقيني إذا قلت: إنه سيصاب بمرض خطير، ما لم نتداركه!" .. ونمّت لهجته عن أنه يحملها مسؤولية ما آلت إليه صحة أبيهما، فغضّتْ بصرها، وأخذت تعبث بطرف ثوبها، بينما استطرد "**جوجندرا**" : " إن ما فات قد فات، وكلما طال أساك على الماضي، ازداد حزنا، فإذا شئت أن تعيدي إلى أبينا راحة باله، وجب أن تمحي كل آثر لتلك المسالة غير الموفقة!" .. وترقّبَ ردّها، وعيْناه لا تبرحان وجهها. وأجابت "**هيم**" في ارتباك: "لا حاجة بك إلى أن تخشى أن أزعج أبي بالحديث عنها" .. فقال: "أعرف أنك لا تحدثينه عنها، ولكن هذا لا يكفي لعقل ألسنة الناس!" .. فتساءلت: "وماذا أفعل إذن؟" .. أجاب: "هناك وسيلة واحدة لوقف الأقاويل" .

وأدركت "**همناليني**" ما كان يرمي إليه، فسارعت قائلة: "ألا يحسن أن نصحب أبانا إلى الريف، ليُروّحَ عن نفسه؟.. سنمكث هناك ثلاثة أشهر أو أربعة، ولسوف يموت كلام الناس في هذه الأثناء!" .. ولكنه قال: "ليس هذا بعلاج شاف. يجب أن تقنعي أبانا بأن بالك قد استرد سكينته" . وأخذت تمسح -في عجلة- الدموع التي انسَابت من عينيْها وتساءلت: "وما الذي تريدني أن أفعله؟" .. قال: "إنني أدرك أن الحل لا يسرّك، ولكنك إذا شئت أن تبعثي الهناءة في كل قلب، يجب أن تتزوجي في الحال!" . وعقل الاستياء لسانها. ولكنه استطرد وقد نَفذَ صبره: "إنكنّ، معشر البنات، تحاولن أن تجعلن من الحبة قُبة. إن ما جرى لك جرى لكثيرات من قبل،

فكن لا يلبثن أن يتزوجن من أشخاص آخرين، ويقضين على الأقاويل. أما التصرف على نسق ما يرد في الروايات، فكفيل بان يجعل الحياة لا تطاق.. قد لا تجدين عارا في أن تقولي للملأ: "سأنبذ الدنيا إلى الأبد، آوي إلى سطح البيت أحملق في السماء. سأقيم ذكرى ذلك الغادر -الذي لا يستحق تقديرا- في أعماق فؤادي، أروح أتعبد في هيكلها"!.. بيد أنك لا تفطنين إلى الخزي الذي يصيبنا. الا تزوجي من أي شخص، وتخلي عن هذه المأساة التمثيلية في أقرب وقت!". وأحسَّت "همناليني" بكلماته وكأنها خناجر تطعن قلبها، فقالت: "وهل سمعتني أقول إنني سأنبذ الدنيا، وإنني لن أتزوج قط؟".

قال "جوجندرا": "إذا كانت هذه نيتك، فبادري إلى الزواج. من الطبيعي أن تظلي عانسا طالما كنت تقولين إنك لن تحبي رجلا قط، ما لم يكن شبيها بالآلهة. إننا نادرا ما نجد الأمور في الدنيا متمشية مع آمالنا. يجب أن نروّض أنفسنا على تقبّل ما يمكن أن نناله، وأن نتخلّى عما عداه!".. فصاحت ملتاعة: "لماذا تعذبني بهذا الشكل؟.. هل قلت لك شيئا عن الحب؟.. فقال "جوجندرا": "لم تقولي شيئا، ولكنني الاحظ ما تضْمرين. إن ما تظهرينه من نفور نحو أصدقائنا المتواضعين يشي بمافي نفسك. وخليق بك أن تعتَرفي بأن ثمة شخصا، ظل -دون كل أصدقائك- وفيّا لك في السّراء والضّراء، في الخير وفي الشر، ومن أجل هذا أُكنُّ له كل تقدير. فإذا شئت زوجا يضحّي بحياته كلها ليراك سعيدة، فما أشك في أنك تعرفين أين هو.. أما إذا أردت الجو الروائي الحزين...".. وهنا نهضتْ واقفة، وهي تقول: "أرجو ألا تحدثني بهذه اللهجة. إذا أمرني أبي بأن أتزوج من أي شخص، فسوف أطيع رغبته. انتظر حتى تراني أعصيه، ثم تكلم عن الحزن الروائي!". وعند ذاك رقّت لهجة "جوجندرا" في الحال، وقال: "لا تغضبي مني يا عزيزتي "هيم".. إنك لتعرفين أنني إذا استاءت من أمر، تهورتُ في كلامي، وقلتُ كل ما يخطر ببالي. لقد عرف كل منا أخاه منذ طفولتنا وإني لأدرك مدى رقة شعورك، ومدى حبك لأبينا!".

وانصرف ليبحث عن أبيه، فوجده جالسا في غرفته، وقد راح ضميره يؤنبه كلما تصور "جوجندرا" في مضايقته لأخته. وكان قد أوشك أن يسعى إليهما عندما أقبل "جوجندرا" قائلا: "لقد وافقتْ "هيم" على الزواج يا أبت. لعلك تظن أنني ضغطتُ عليها، ولكنني في الواقع لم أفعل. إنها لا تعارض في الزواج من "أكشاي"، إذا أنتَ طلبتَ منها ذلك في كلمات صريحة!".. فقال الشيخ: "أتريدني أن أطلب ذلك منها؟". وأجاب الشاب: "أجل، فما أظنك تنتظر أن تأتيك من تلقاء نفسها لتسالك: "هل أتزوج من "أكشاي"؟".. إذا كنت تتردد في أن تتحدث إليها في الأمر، ففوّضْني في حمْل أوامرك إليها!"، فهتف "أنادابابو" لفوره: "مستحيل أن أفعل هذا!.. سأقول لها بنفسي ما يمكن أن يقال. ولكن فيم تعجلك هذا؟.. أرى أن علينا أن نتريث لبضعة أيام" فأجاب الشاب: "لا، يا أبت. لابد أن يحدث ما يعرقل الأمر، إذا نحن تريثنا. وليس بوسعنا أن نظل هكذا لأمد أطول مما انقضى!". وما كان في الأسرة من يغلب "جوجندرا" إذا تحمّس لأمر، فهو لا يكف عن محاولة تنفيذ هذا الأمر، حتى لقد كان

"**أنـادابـابـو**" يشعر في سريرته بخوف منه. ومن ثمّ قال يحاول أن يُرْجِئ الأمر: "حسنا... سأتحدث إليها!". ولكن الشاب قال: "ليس أصلح من الوقت الحالي يا أبي إنها جالسة في انتظارك فحاول أن تسوّي الأمر اليوم وقال الأب حسنا انتظر ني هنا فلابد أن أخلو إليها".

*****

- ووجد "**أنادا بابو**" حجرة الجلوس مظلمة إلا أن شبحاً هبّ في الظلام ثم واتاه صوتُ مُثقل بالدموع لقد انطفأ المصباح يا أبي هل أدعوالخادم لإشعاله فقال لاباس ياعزيزتي فليست بنا حاجة إلى الضوء وتحسَّسَ طريقه إلى مقعد بجوار ابنته فقالت: "إنك لاترعى صحتك كما ينبغي يا أبت"، فقال: "إن صحتي على مايرام وليستْ في حاجة إلى مراعاة إنما أنت التي يجب أن تعنيْ بصحتك فصاحت "**همناليني**" كلكم تقولون هذا وما هو من الصواب في شيء ما الذي يحملك على أن تظن أنني لاأكترث لصحتي إذا رأيت أن أتبع علاجاً خاصاً فليس عليك سوى أن تامرني.. فما رفضتُ لك رغبة قطا". واختلط صوتها بالبكاءفصاح في قلق: "أبدا يا عزيزتي.. بل إنني ما احتجتُ قط إلى أن أنبهك إلى رغبة لي. فأنت تعرفين ما يجول بخاطري، كما لو كنت أمي! وأنت دائما تحرصين على أن تحققي ما أريد دون أن تنتظري حتى أطلبه. ولو أن لدعَوات قلب الأب أي أثر، لكنت سعيدة في كل أيامك بفضل دعواتي تلك!". قالت: "ألا تحب أن تستبقيني معك يا أبت؟"، فقال "**أنادا**": "بالطبع". فعادت تسأله: "هل لي أن أمكث هكذا طالما ظل "**جوجن**" بغير زواج؟... من الذي يُعنى بك إذا لم أكن إلى جوارك؟".. قال: "يُعنى بي؟.. لا تحملي همي يا عزيزتي. فلستُ أستحق هذا!".. فقالت: "إن الظلام دامس يا أبي، فهل أحضر مصباحا موقدا؟".. وحملتْ مصباحا من الغرفة المجاورة، وقالت: "لقد شغلنا اضطراب أفكارنا في الأيام الأخيرة، فلم أعُدْ أقرأ لك الصحيفة في الأمْسيات هل أقرأ لك الآن؟". فنهض قائلا: "حسنا يا عزيزتي. انتظري دقيقة".

وعاد إلى "**جوجندرا**"، وقد عوّل على أن يقول له: "لم أستطع أن أفاتحها اليوم في الأمر، فيحسن أن ننتظر إلى غد". ولكنه ما كان يسمع "**جوجندرا**" يبادره قائلا: "ماذا تم يا أبي؟.. هل حدثتها"، حتى أسرع مجيبا: "أجل، تحدثت إليها". فقد خشي أن يعاود "**جوجندرا**" حملاته على "**همناليني**". وتساءل الشاب: "وهل وافقت؟". فأجاب: "أجل.. إلى حد ما". فصاح "**جوجندرا**": "إذن، ساذهب فانبئ "**أكشاي**".. ولكن الأب صاح متعجلا: "لا. لا.. لا تقل له شيئا بعد. إنك ستفسد كل شيء يا "**جوجن**" إذا تسرعت. يحسن أن نرجئ التدابير النهائية إلى أن نعود من الريف.. ولكن "**جوجندرا**" انصرف دون أن يردّ عليه، فيهمّ لفوره شَطْر بيت "**أكشاي**"، حيث وجد صاحبه منهمكا في مطالعة مؤلَّف إنجليزي عن (مسك الدفاتر التجارية)، فدفعه عنه جانبا، وقال: "دعك من هذا الآن إذ علينا أن نحدد موعدا للزواج!"، فصاح "**أكشاي**": "يا إلهي".

الفصل التاسع والثلاثون

- نهضت "**همناليني**" في الصباح الباكر، وسعت إلى أبيها، فألفته في غرفة نومه، وقد جلس في مقعد مريح إلى جوار النافذة، واستغرق في التفكير. وكانت الغرفة متواضعة الأثاث، لا تضم سوى فراش وصوان للثياب، وإلى أحد جدرانها، عُلّقَتْ صورة باهتة لأم "**همناليني**" المتوفاة، في إطار فخم، بينهما ثبتت إلى الجدار المقابل لها قطعة من الصوف نسجتها المتوفاة بيديها. كما كان الصوان يضمّ أساورها وحليها ومخلفاتها الشخصية، وقد تركت على حالها. ووقفت "**همناليني**" خلف أبيها، وراحت تَمسَح شعره برفق، ثم قالت: "ما رأيك يا أبت في أن نتناول الشاي مبكرا هذا الصباح، ثم نجلس في غرفتك، فتحدثني عن الأيام الخالية. ليس بوسعك أن تتصور مدى شغفي بقصصك هذه!". وكان إدراك الشيخ لحالات ابنته قد غدا مرهفا إلى درجة مَكّنته من أن يلمس الحافز الذي حملها على أن ترغب في التعجيل بتناول الشاي فإن "**أكشاي**" لن يلبث أن يفد لتناول الشاي معهم على عادته وقد رغبت "**هيم**" في أن تتحاشى لقاءه وذلك بأن تمكث ما استطاعت في غرفة أبيها وأحزن الشيخ ما صارت إليه أعصاب ابنته. كانت دائما وَجلَة، كغزال خائف.

ولم يكن الماء المغلي للشاي قد أُعد بعد، فابتكر"**أنادا**" حجة لحث الخادم المسكين على إعداده فسرعان ما وافاهما به. وبدلامن أن يقبل "**أنادا بابو**" على ارتشاف مافي قدحه في بطء وهو يلعق شفتيه تلذّذاً، ويتحدث إلى ابنته، عمد في ذلك اليوم إلى إفراغ القدح في جوفه بسرعةلاداعي لها، مما جعل ابنته تسأله في دهشة: "أفي عجلة أنت يا أبي، هل تريد الخروج؟".. فأجاب: "لا!..ولكن عندما يكون الجو بهذه البرودة، أحب أن أشرب الشاي دفعة واحدة، فإن دفئه ينشر العرق على جسمي فيدفئني!". ولكن "**جوجندرا**" لم يلبث أن أقبل و"**أكشاي**" في أثره، قبل أن يتفصّد العرق المنشود. وكان "**أكشاي**" بادي الأناقة، وقد أمسك في يده بعصا ذات مقبض فضي، وزيّن صدره بسلسلة ذهبية، بينما حمل في يسراه كتاباً لف في ورقة سمراء. وبدلا من أن يتخذ مجلسه المعهود، جر مقعداً إلى جوار"**همناليني**"، وقال في تلطّف: "لابد أن ساعتكما متقدمة اليوم". فلم تجبْ "**همناليني**" ولانظرت إليه. بينما قال "أنادابابو": "لنصعد إلى الطابق العلوي ياعزيزتي "**هيم**"، إذ لابد من أن نُعرّض ثياب الشتاء للشمس"، فقال "**جوجندرا**": "لاداعي للعجلة يا أبت فلن تهرب الشمس هلاصببت لـ "**أكشاي**" قدحاً من الشاي يا"**هيم**"؟.. كذلك أريد قدحاً لنفسي، ولكن الضيف مُقدَّم بالطبع!". وضحك "أكشاي" قائلا لـ"**همناليني**": "هل رأيت في حياتك مثل هذا الإيثار؟".

وصبّت "**همناليني**" الشاي دون أن تحفل بـ"**أكشاي**" ثم ناولت "جوجندار" قدحاً، ودفعت نحو "**أكشاي**" بآخر، وهي تنظر إلى أبيها، فقال هذا: "إذا تلكأنا فسوف يشتد الحرُّ على سطح الدار هيا يا "**هيم**"، يحسُن بنا أن نصعد في الحال!". فصاح "**جوجندرا**":

"أفٍ لك!.. لقد جاء "**أكشاي**"..."، وتملك الغضب "**أنادابابو**"، فصاح: "إنكما تحاولان أن تضايقاني!.. ليس من حقكما أن تدفعا المرء -إذا ما كان يعاني آلاما نفسية- إلى أن ينصاع لرغباتكما. لقد تحمّلتُ لجاجكما أياما، ولكني لم أعد أطيقه. لسوف نتناول الشاي في المستقبل يا "**هيم**" وحدنا في الطابق العلْوي!".. وحاول أن يجرها إلى خارج الغرفة، ولكنها توقفت في هدوء وقالت: "لا تخرج الآن يا أبت، فأنت لم تفرغ من تناول الشاي.. هل لي أن أسألكَ يا "**أكشاي بابو**" عما في هذه اللّفافة العجيبة؟".. فبسط يده باللفافة قائلا: ؛ليس لك أن تسألي فحسْب، وإنما بوسعك أن تتبيني!".. ونزعتْ "**هيم**" الورق، فكشفت عن نسخة من أشعار "**تنيسون**"، داخل غلاف من الجلد. وبُهتت وشحب وجهها، إذ كانت قد تلقتْ من قبل نسخة مثلها، كهدية.. ولم يكن أحد ليعرف أنها تحتفظ بها ككنز ثمين في غرفتها! وابتسم "**جوجندرا**" وهو يرفع إحدى دفّتيْ الكتاب، عن صفحة العنوان، فإذا مكتوب عليها: "إلى الآنسة "**همناليني**"، رمزا لتقدير "**أكشاي**". وأفلتت الفتاة الكتاب كما لو كان جمرة متّقدة، وأشاحت ببصرها عنه قائلة: "هيا يا أبي!".. وغادر الأب وابنته الحجرة.

وتطاير الشّرر من عينيْ "**جوجندرا**"، وقال: "لن أمكث لحظة واحدة تحت سقف هذا البيت. سأرحل عنه، وأكسب عيشي من العمل كمدرّس!"، فقال "**أكشاي**": "إنك تبالغ في الغضب يا صديقي لقد أنبأتك بانني أعتقد أنك مخطئ، وقد انصعتُ لإلحاحك، ولكني رأيت الآن أن "**همناليني**" لن تحفل بي مطلقا، فدع هذه الفكرة عن بالك. وإذا شئنا أن نسلكَ المسْلك الصائب، فيجب أن تتجه خطوتنا التالية إلى حملها على نسيان "**رامش**". فقال الآخر: "هذا صحيح، ولكن كيف نحملها على ذلك؟".. قال: "يجب ألا نعتقد أنني الشاب الوحيد في الدنيا الذي يصلح للزواج منها.. إن الذي نحتاج إليه حقا، هو أن نوفق إلى شاب يعجبها.. لا إلى شاب يجعلها مظهرُه تُؤْثر أن تذهب لتهوية ثياب الشتاء!". فقال "**جوجندرا**": "ليس ثمّةَ متجر يقصده الإنسان ويطلب عريسا "جاهزا"!". ولكن "**أكشاي**" قال: "إنك سريع القنوط.. فعلى الرغم من أن هدفنا الحقيقي هو أن نجد زوجا لـ"**همناليني**"، إلا أننا يجب ألا نتسرع.. وينبغي ألا نثير موضوع الزواج ارتجالا، وإلا أثرْتَ مخاوف الفريقين.. بل دع التعارف يتمّ على مَهل، وتربص للفرصة التي تستطيع خلالها أن تقترح عليهما الزواج!".

وقال "**جوجندرا**": "هذه خطة سليمة، ولكن ما اسم المرشح؟". فأجاب "**أكشاي**": "إنك لم تتعرف إليه وإن كنت قد رأيته.. الدكتور "**نالينا كشا**". فردد "**جوجندرا**": "**نالينا كشا**"!".. وقال الآخر: "ما الذي يدهشك؟.. إن طائفة البراهمة الأحرار تحيطه بفضيحة، ولكن لا تلق لذلك بالا!". فقال "**جوجندرا**": "ما كنت لأفلت شخصا موفقا مثله.. ولكن، هَبْ أنه لم يوافق؟". ولكن "**أكشاي**" قال: "لسنا في عجلة.. إن الزمن كفيل بالمعجزات!.. اسمعْ.. لسوف يُلقي "**نالينا كشا**" محاضرة غدا، فاصطحب

"**همناليني**" لسماعها، فإن الشاب خطيب مصْقَعُ. وليس مثل البلاغة في الحديث شيء يفتن النساء! يا للمسكينات!... إنهن لا يدركن أن الزوج الذي يجيد الإصغاء خير ممن يجيد الكلام!". فقال "**جوجندرا**": "ولكن، حدثني عن تاريخه، إذ أُحبُّ أن أعرف المزيد عنه". وبادر الآخر قائلا: "حسنا ساروي لك سيرته، على أن تتجاوز عن النقص الذي قد تكتشفه خلالها. فإن النقص إذا كان تافها يعتبر -في رأيي- ميزة، إذ يمكن الانتفاع به!".

ومن الممكن أن نلخص قصة "**نالينا كشا**" -كما رواها "**أكشاي**"- فيما يلي:

كان أبوه "**راجبالاب**" من صغار الملاك في منطقة "**فريدبور**". وقد انضوَى "**راجبالاب**" في سلك طائفة البراهمة الأحرار وهو في الثلاثين من عمره، ولكن زوجته أبت أن تتبعه في ذلك، وظلّتْ محافظة على أصول عقيدتها، الأمر الذي لم يرض عنه "**راجبالاب**" بطبيعة الحال. ولقد كان لما أوتيه ابنهما "**نالينا كشا**" من موهبة في الوعْظ وبلاغة في الحديث، الفضل في ضمه إلى الطائفة في سن مبكرة، وقُدّر له أن ينال وظيفة طبيب في الريف، فعاش متنقلا بين البلدان، ككل موظفي الحكومة في "**البنغال**". وكان، أينما ذهب، ترك وراءه سُمْعة طيبة، لاستقامته، وبراعته في مهنته، وتقواه. ثم انقضّتْ على الأسرة صاعقة، إذ قرر "**راجبالاب**" -عندما تقدّم في السن- أن يتزوج مرة أخرى، ولم يقو شيء في حمله على العدول عن عزمه. وكان عذره الذي لم يحد عنه: "إن زوجتي الحالية لا تحلّ لي، لأنها لا تتبع عقيدتي فمن الأفضل أن أتزوج من امرأة تشاطرني عقيدتي، وتتحد معي قلبا وقالبا!".. وتزوج من المرأة التي أرادها، متبعا الطقوس الهندوكية!

وقررت أم "**نالينا كشا**" أن تَهجُر زوجها وترحل إلى "**بنارس**". وكان "**نالينا كشا**" إذ ذاك قد افتتح عيادة خاصة في "**رانجبور**"، فبادر إلى التخلّي عنها، وأعلن لأمه عزمه على أن يصحبها إلى المدينة المقدسة. وقالت العجوز وهي دامعة العين: "إن آراءنا متباينة يا بنيّ، فلماذا تكبّد نفسك متاعبَ لا داعي لها؟". فأجاب قائلا: "لن يكون ثمَّةَ تباين"، فقد أحس بأثر غدر أبيه على نفسها، فعوّل على أن يجعل سعادتها هدفه الأول. وصحبها إلى "**بنارس**". وكانت من قبل قد سألته عما إذا كان لا يعتزم الزواج، فأجابها: "ولماذا يا أماه، إنني قانع بحالي". ولكن ما طرأ على أمه قضى على سبب تردده، كما أنه، إذ اقتطع نفسه عن الوسط الذي كان يعيش فيه، نبذ الكثير من آرائه، ومع ذلك، فإنه لم يكن على استعداد لأن يتزوج من غير البراهمة. وقالتْ له أمه وهي حريصة على ألا تقف في طريقه: "يا بني العزيز ليس لك أن تنذر نفسك للعزوبة بسببي، تزوج ممن تشاء، ولا تخش معارضة مني".. ففكر "**نالينا كشا**" في الأمر يوما أو اثنين، ثم قال لأمه: "سأتيح لك يا أماه "زوجة ابن" تروق لك.. فتاة صغيرة، صالحة لن تشعري يوما باستياء منها، ولن تجدي من مَسْلكها ما يسبّبُ لك ألما!".. ورحل إلى "**البنغال**" بحثا عن عروس.

أما ما جرى بعد ذلك، فقد اختلفتْ بصدده الروايات. فتزعم إحدى القصص أنه قام برحلة سرّية إلى مكان ما في الريف. وتزوج من فتاة يتيمة، ماتتْ بعد الزفاف مباشرة.

ولكن الثقاة يحيطون هذه الرواية بالشكوك. وقد كان **"أكشاي"** يعتقد -في قرارة نفسه- أن **"نالينا كشا"** عدل عن الزواج في اللحظة الأخيرة!

ومهما تكن الحقيقة، فقد كان من رأي **"أكشاي"** إن أمَّ الشاب لن تعارض في زواجه من أية فتاة تليق له، بل إنها لن تلبث أن تغتبط إذا ما تزوج فتاة فاتنة مثل **"همناليني"**. لن يجد خيرا منها مَهْما يبحث. فَضْلا عن أن من شأن طباع **"همناليني"** الرقيقة أن تجعلها تعامل حماتها بما يحق لها من احترام. ومن ثم فإن **"نالينا كشا"** لن يلبث بعد أمد قصير من التعرف إلى **"همناليني"**، أن يتبين أنها أوتيتْ الميزات التي ينشدها في عروسه!.. وكان من رأي **"أكشاي"** -لذلك- إتمام التعارف بين الشابيْن في أقرب فرصة!

الفصل الأربعون

- لم يكد "**أكشاي**" يغادر البيت، حتى صعد "**جوجندرا**" إلى الطابق الثاني، فوجد "**أنادابابو**" و"**همناليني**" في حجرة الجلوس، منهمكيْن في الحديث، وبدا على الأب شيء من الخجل حين رأى ابنه. فقد ندم لهذا الغضب الذي بدر منه على مائدة الشاي، ومن ثم حيّا "**جوجندرا**" في حفاوة أكثر من المعتاد، وقال: "تعال يا "**جوجندرا**".. تعال فاجلس معنا يا بنيّ!".. وقال الشاب: "إنك و"**همناليني**" لا تكادان تفارقان البيت في هذه الأيام يا أبت. وطول ملازمتكما للبيت لا تفيدكما". فأجاب "**أنادا**": "الواقع أننا دائما ممن يلازمون دورهم.. ثم إن المرء مضطر إلى أن يعصر فكره ليجد مناسبة تحمل "**هيم**" على مرافقته!". وتدخلت الفتاة قائلة: "مهْلاً يا أبت، فما ينبغي أن تلقي عليّ اللوم، إذ إنك تعرف أنني على استعداد لأن أذهب معك إلى أي مكان!". وبدا من لهجة الفتاة حرصها على أن تقنعهما بأنها لا تبغي أن تدع حزنها الدفين يستبقيها أسيرة البيْت، حبيسَة جدرانه الأربعة، فقال "**جوجندرا**": "حسنا، سيكون ثمة اجتماع غدا، يحسن أن تصحب "**هيم**" إليه!". وكان الأب يدرك نفور "**همناليني**" من الاجتماعات العامة، فنظر نحوها يتعرف رأيها، وإذ ذاك صاحت الفتاة بحماس قوي: "اجتماع!.. ومن الخطيب؟". فقال "**جوجندرا**": ؛دكتور "**نالينا كشا**"، فردد الأب في عجب: "**نالينا كشا**"!". قال الابن: "إنه خطيب رائع، كما أن له تاريخا عجيبًا ينطوي على نكْران الذات وعلى المثابرة.. إنه واحد في المليون!".. ومع ذلك، فقد كان "**جوجندرا**" قبل ساعتين لا يعرف عن "**نالينا كشا**" سوى إشاعة عابرة مبهمة!

وقالت "**همناليني**" وهي تصطنع الاغتباط: "حسنا يا أبت، يجب أن نذهب فنستمع إلي هذا الخطيب!". وما كان "أنادا ليخدع بما أبدته "**همناليني**" من لهفة، ولكنه شعر -مع ذلك- بشيء من الارتياح. فقد خُيّل إليه أن "**همناليني**" إذا ما عُوّدت الخروج إلى الدنيا والاختلاط مع أندادها ولداتها -رغم ما قد يكلفها هذا من عناء وجهد- فلن تلبث أن تعود إلى حالتها الطبيعية، فإن أضمن علاج للعلل النفسية، هو الاختلاط بالناس. ومن ثمّ قال لـ"**جوجندرا**": "حسنا، خذنا إلى ذلك الاجتماع غدا، ولكن، حدثني الآن بما تعرفه عن "**نالينا كشا**"، فإن المرء يسمع عنه روايات متباينة". وهنا شرع "**جوجندرا**" يشنّ حملة على هواة الفضائح عامة، قائلا: "إن المتطرفين في التدين يظنون أن السماء آثرتهم عند مولدهم برخصة تبيح لهم تقبيح أبناء جنسهم والإساءة إليهم، دون تورع. وليس ثمة من هم أبعد عن الخير، وأمعن في الشر من تُجّار التقوى، هؤلاء!".

وقال الأب مجاملا: "إنني معك في هذا الرأي.. إن مثابرة المرء على تناول سقطات جيرانه، تجعله ضيق الذهن، كثير الوساوس!". وإذ ذاك هتف "**جوجندرا**": "ما هذا يا أبت.. أتغمزني بهذه الوخزة؟.. إنني لست على شاكلة أولئك المتدينين، كما تعلم، إذ

إنني أجيد الإطراء والتقدير، بقدر ما أجيد النّقد واللوْم!" .. فسارع "**أنادا**" قائلا: "لا تكن غبيّا.. ما كنتُ أقصدك في الواقع، فانت أدرَى مني بنفسك!" .. وتحوّل "**جوجندرا**" بعد ذلك يروي قصة "**نالينا كشا**"، مضيفا على الموضوع كل ما أوتي من بيان وبلاغة. واختتم حديثه قائلا: "لقد كَبَتَ "**نالينا كشا**" رغباته الطبيعية وذهبَ للإقامة في "**بنارس**"، لكيْ يسعد أمه. وقد استغل كل أصدقائه المتطرفين -يا أبت- هذه الفرصة، ليشيعوا عنه أقاويل مشينة. والواقع أنني شخصيا أعجب بمسلكه. ما رأيك يا "**هيم**"؟". فأجابت: "إنني من رأيك". وإذ ذاك قال: "كنت موقنا من أن "**هيم**" ستقر مسلكه. ولا يداخلني الشك في أنها أهل لأن تُبدي مثل ما أبداه من نكران الذات -لتُسعدَ أباها- إذا ما سنحت الفرصة". ورمق "**أنادا**" ابنته في حنان، فتضرّج وجهها، وغضّتْ بصرها في ارتباك.

الفصل الحادي والأربعون

– عاد "**أنادا بابو**" و"**همناليني**" من الاجتماع في ساعة متأخرة من أصيل اليوم التالي. وقال الشيخ وهو يجلس إلى مائدة الشاي: "كان الحديث طيبا بالفعل!" .. ولم يُدْلِ بتعليق آخر، ولكن عقله راح يعمل في استغراق، حتى كأنه لم يفطن إلى "**همناليني**" حين تسللتْ صاعدة إلى الطابق العلوي بعد الشاي. كان المحاضر –"**نالينا كشا**"– يبدو صغيرا على المنصة إلى درجة غريبة.. كأنه فتى يافع. فمع أنه استكمل نضوج شبابه، إلا أن ملامحه ظلت تحتفظ بنضرة الصبا، وكان إلى هذا محوطا بجو من الجلال الروحي، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق نفسه. وكان موضوع محاضرته هو: "الخسارة"، وملخصها أن لا كسْب حقيقيا بغير خسارة. وما نحصل عليه دون جهد ليس من الكسب الحقيقي في شيء، فليس ثمّة ما يحق لنا أن ندّعي أننا نملكه –بكل ما في الكلمة من معنى صادق عميق– سوى ما نناله بالتضحيَة. والذي يرى مقتنياته تتبدَّد وتفلت من قبضته، تعيس حقا، بيد أن النفس الإنسانية تسترد في الواقع –في عملية الخسارة والفقد– القوة على الكسب.. كسب ما فقدت، مع الفوائد!.. وإذا استطعنا، حين نمنّى بخسارة، أن نحني رؤوسنا، ونضم أيدينا في خشوع لنقول: "إنها نعمة.. فالحرمان نعمة، والحزن نعمة، ودموعي نعمة!"، فإن كل شيء –حتى أتفه الأشياء– يُكتسَب في نظرنا قيمة ومعنى.. ويتحول الشيء المحدود الأجل، الفاني، إلى شيء خالد، أبدي، وما هو مجرد أداة أو وسيلة لنفعنا لليومي، يصبح موضوعا جديدا يُضاف إلى كل ما نعتز به ونتعبده، وندخره أبد الدهر بين كنوز مَعْبَد قلبنا!

وتركت كلماته أثرا عميقا في نفس "**همناليني**"، وشعرتْ –وهي تجلس في تفكير صامت على سطح الدار، تحت السماء المرصعة بالنجوم– بأن قلبها كان يزخر بالعواطف، وبأن الأرض والسماء لم تعودا خاويتين، فارغتين، كما كانت تراهما من قبل!

أما "**جوجندرا**"، فقد قال لـ"**أكشاي**" أثناء عودتهما، بعد المحاضرة: "لقد عرفت كيف تختار أبرع متكلم! ولكن، لشد ما هو متصوّف في فلسفته!.. إنني لم أفقه نصف كلامه!".. فقال "**أكشاي**": "لابد للمرء من أن يشخّص المرض قبل أن يتمكن من وصف الدواء الذي يحتاج إليه المريض. إن "**همناليني**" تعاني خيبة أمل من جراء "**رامش**"، فهي محتاجة إلى فلسفة روحية تنتشلها من قنوطها. والناس العاديون –مثلك ومثلي– لا يملكون أن يمدوها بهذه الفلسفة. ألم تتأمل وجهها أثناء حديث الخطيب؟"، فقال "**جوجندرا**": "بل تأملته.. كان من الواضح أنها أُعجبَتْ بمادة المحاضرة، ولكن هذا التقدير لا يعني أنها مستعدة لأن تمنح يدها للمحاضر!". وعاد "**أكشاي**" يقول: "أتراها كانت تتأثر بالمحاضرة لو أن أحدا منا ألقاها؟ إن للتصوّف سحرا عظيما على النساء. صدقني يا "**جوجن**".. لو أنك قدمت أي شخص لـ"**همناليني**" لقارنت بينه وبين "**رامش**"، ولما

خرجتْ من المقارنة بنتيجة طيبة. أما "**نالينا كشا**" فليس شخصا عاديا، ومن ثم فلن يخطر ببالها أن تقارنه بأي شخص آخر. وإذا أنت قدمتَ إليها أي شاب عادي، لاستطاعتْ أن تحدّس الباعث، فيهبّ عقلها ثائرا. أما إذا ابتكرتَ وسيلة تستطيع بها إحضار "**نالينا كشا**" إلى داركم، وقدّمته إليها، فلن تخامرها أية ريبة! ثم لا يلبث التحول أن يتمّ تدريجيا وبسهولة، لمجرد الإعجاب والتقدير فقط!". فقال "**جوجندرا**": "إنني لا أميل إلى التلاعب بالألفاظ، وإنما أُوثر الصراحة.. وأصارحك بأن ذلك الشاب لم يحدث أثرا كبيرا في نفسي"!

قال "**أكشاي**": "سيذهب كل شيء أدراج الرياح، إذا زجَجْتَ فيه بأهوائك وميولك الخاصة، إذ ينبغي ألا تتوقع أن تجد كل شيء وفق هواك!.. لن ننجح إلا إذا أغرينا "**همناليني**" على نسيان "**رامش**" تماما ولا تتصور لحظة أن بوسعك أن تحقق هذا بالشدة. يجب أن تتبع نصيحتي بحذافيرها إن شئت أن تصل إلى النتيجة المرجوّة". قال "**جوجندرا**": "كل ما في الأمر أنني أجد شيئا من الغموض يحيط بالدكتور "**نالينا كشا**"!"، فصاح "**أكشاي**": "لقد كنتم تغمضون أعينكم منذ البداية إزاء "**رامش**".. كنتم تحسنون الظنّ به في كل شيء.. كان في رأيكم مُنزّها عن الخداع، وأعظم فيلسوف منذ عهد "**سانكارتشاريا**" أما أنا، فما كنت أميل لـ"**رامش**" فقد رأيت في حياتي كثيرين ممن على شاكلته. ولكني لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمي، فما كنتم تصدقون أن لشخص عديم القيمة، متواضع المقام مثلي، أيّ حافز على انتقاد مثل ذاك النابغة سوى الغيرة. ولعلكم تحققتم الآن من أن أولئك النوابغ الممثلين يجب ألا يُمجَّدوا إلا على البعد، وأن ليس من المأمون أن يقبل المرء واحدا منهم خطيبا لأخته". فصاح "**جوجندرا**": "لن تقنعني مطلقا يا "**أكشاي**" بأنك كنت أول من اكتشف حقيقة "**رامش**"، ولو قلت ذلك ألف مرة.. إنما كنت تحقد عليه، فلم تكن ترى في أي عمل يأتيه صوابا!".

✽✽✽✽✽

– وما إن دخل "**جوجندرا**" و"**أكشاي**" غرفة "**أنادا**"، حتى تسلّلتْ "**همناليني**" من الباب الآخر، فقال "**أكشاي**" في نفسه: "لابد أنها كانت تُطلّ من النافذة، فرأتنا مقبلين". وابتسم وهو يتخذ لنفسه مجلسا بجوار "**أنادا**"، قائلا: "إن كلمات "**نالينا كشا**" تنفذ إلى القلب، لأنها منبعثة من القلب!" فقال "**أنادابابو**": "إنه موهوب بالفعل!".. فصاح "**أكشاي**": "موهوب! بل أكثر من ذلك.. إنه أكثر من يمشون على الأرض نصيبا من خصال الأبرار والقديسين!". ومع أن "**جوجندرا**" كان زميلا له في المؤامرة، إلا أنه لم يتمالك أن صاح: "لا تتكلم بالله عن الأبرار والقديسين!.. لتحفظنا السماء منهم!". فقال أبوه: "لا يا "**جوجن**"، لا تتكلم بهذه اللهجة، فإني شخصيا أوثر أن أعتبر جميع من يلُوح عليهم الخير في مظهرهم، أخيارا في باطنهم كذلك. وقد أخطئ في حكمي، ولكن هذا

بالتأكيد أفضل من أن أرتاب دائما في الطيبين الأبرار! ثم إن "**نالينا كشا**" لم يجمع مادة محاضرته كيفما اتفق، وإنما استمدها من تجاربه الروحية. وقد وجدت رسالته جديدة، وملهمة أيضا، حتى لقد ساورني الميل إلى أن أذهب إليه فاشكره شخصيا!" .. فقال "**أكشاي**" : "كل ما أخشاه ألا تحتمل صحته آثار هذا النشاط الذي يبذله.. إنه يقضي كل يومه في الصلاة والدراسة والكتابة، دون أن يُلقي بالا إلى صحته". وقال "**أنادا**" : "هذا خطأ عظيم منه، إننا لا نملك حق إهمال أبداننا، لأننا لسنا خالقيها، وبالتالي لسنا مالكيها!.. ثم إن صون الصحة لا يتطلب من المرء سوى بعض قواعد بسيطة: أولها:....". وهنا نفد صبر "**جوجندرا**" فقال: "كل هذا خارج عن موضوعنا.. إن "**ناليناكشا**" في صحة جيدة، حتى إنني خلتُ -حين قابلته بعد ظهر اليوم- إن حياة النسك تعزز صحة البدن!".

قال "**أنادا**" : "الواقع إنني أميل إلى الأخذ بصحة ما قال :**أكشاي**"، فإن أغلب عظمائنا يموتون شبانا.. وهم يقلّون من نفعهم لبلادهم حين يهملون صحتهم. أعتقد أنك مخطئ في تقديرك لصحة "**نالينا كشا بابو**".. إنه موهوب، فخليق به أن يتلقّى النصح للعناية بنفسه!".. فقال "**أكشاي**". "اسمع.. سادعوه إلى هنا وأقدمه إليك، فلعلك تتحدث إليه في هذا.. وأعتقد أنك ما إن تأخذ بيد "**نالينا كشا بابو**"، حتى...". فقفز "**جوجندرا**" على قدميه قائلا: "**أكشاي**".. إنك توشك أن تدفعني إلى الجنون!.. إنك تسرف في اللغْو.. لم أعد أطيق هذا".. واندفع إلى خارج الغرفة، متماديا في التظاهر بأنه غير راغب في تردد "**نالينا كشا**" على دارهم!

الفصل الثاني والأربعون

- كان "**أنادابابو**" -قبل الأزمة التي اعترضت "**همناليني**"- يستمتع بصحة جيدة، ومع ذلك فإنه لم يكن يكف عن تناول الحبوب المهضمة التي يصفها أطباء الشرق والغرب! على أنه أصبح يعاف كل الأدوية. متاعبه الصحية شغله الشاغل حين كانت مجرد أوهام، أما حين صارت واقعية، فإنه لم يعد يحفل بأمراضه مطلقا!

وكان قد استسْلم للنعاس -في مقعده- حين سَمعتْ "**همناليني**" وقع قدميْ "**جوجندرا**" على السلّم، فاسرعتْ إلى الباب تنبهه حتى لا يزعج النائم. واستاءت إذ فُوجئت بـ"**نالينا كشا**" مع أخيها. وأوشكت أن تدعوهما إلى غرفة أخرى، لولا أن بادرها "**جوجندرا**" قائلا: "**هيم**".. لقد أحضرتُ "**نالينا كشا بابو**"،، فتعاليْ أقدمه إليك!".. ووقفت الفتاة مستاءة، بينما انحنى القادم يحييها دون أن يرفع بصره إلى وجهها. واستيقظ "**أنادا بابو**" في تلك الأثناء، فنادى ابنته.. وأسرعت إليه هامسة بأن "**نالينا كشا بابو**" في البيت، بينما دعا "**جوجندرا**" الضيف إلى الدخول.

فنهض "**أنادابابو**" مرحبا، وهو يقول: "إننا سعداء حقا بزيارتك لنا... أعرّفك بابنتي "**همناليني**" يا "**نالينا كشا بابو**".. لقد كانت معي تستمتع بمحاضرتك منذ أيام، وقد أفدنا منها حقا. على أنني أُعجبتُ بنقطة في المحاضرة، وهي التي ذكرت فيها أننا لا نفقد ما يتاح لنا يوما كسبه فحسب، وأن الكسب غير الكامل هو في الواقع خسارة! إنها الحقيقة بالفعل، ألا توافقين يا "**هيم**"؟... إن الإنسان لا يشعر بالخسارة إلا إذا أفلت من يده ما كان يقتنيه. إن لي رجاء يا "**نالين بابو**"، ذلك هو أن تزورنا من وقت لآخر، لتجاذب أطراف الحديث.. لسوف نعد هذا صنيعا كبيرا، فنحن لا نغادر البيت عادة!".

ورمق "**نالينا كشا**" وجه "**همناليني**" الذي كان ينمّ عن اعتداد صاحبته بنفسها، وقال: "لا تظنوني متحذلقا لأنني استخدمتُ في محاضرتي عبارات علمية معقّدة، فما فعلتُ ذلك إلا لأحمل الطلبة على ألا يعودوا إلى إحراجي لألقي عليهم محاضرات!.. والحق أنهم لم يكتموا أن ثلاثة أرباع ما قلت تعذّر عليهم فهمه. ولقد لاحظت عليك الشيء ذاته يا "**جوجن بابو**" فلم تفتني نظراتك إلى ساعتك!".. وهم "**جوجندرا**" بأن يعتذر، فقال "**أنادا**": "لا عليك يا"**جوجن**" فهناك أمور لا يفهمها الناس إلا في سن معينة!".. فقال "**نالينا كشا**": "أجل.. وفي سن معينة لا يحتاج المرء إلى فهم كل شيء!".

وقال "**أنادا**": "وبهذه المناسبة يا "**نالين بابو**" أحبُّ أن أحدثك في أمر ما. إن الخالق يرسل من هُم على غرارك إلى الدنيا لأداء رسالات معيّنة، ومن ثَمَّ لا ينبغي أن تستهين بحقوق بدنك عليك!". فقال "**نالينا كشا**": "ما أعتقد إلا أنك لن تلبث -إذا ما توثق تعارفنا- أن تتبين أنني لا أستهين بشيء في الدنيا. إنني حين وُلدتُ كنتُ عالة على سواي،

فتطلبتْ تربيةُ عقلي وجسمي جهودا ورعاية من كثيرين، ومن ثمّ فإني أؤمن بأن ليس من حق المرء أن يقضي على الشيء الذي لايستطيع بنفسه إنشاءه، وإنما يعتمد في ذلك علي سواه!".

وهنا استأذن "**جوجندرا**" في الانصراف للحاق بموعد فهمّ "**نالينا كشا**" أن يحذو حذوه، ولكن "**أنادا**" قال له: "أرجو الا تحفل بـ"**جوجندرا**" فإنه يجيء وينصرف على هواه، ومن العسير أن يستقر في البيت!". وإذ انصرف "**جوجندرا**"، تحول "**أنادا بابو**" يسأل "**نالينا كشا**" عن المكان الذي يقيم فيه، فضحك هذا قائلا: "في الواقع لا أستطيع أن أقول: إني أقيم في مكان معين، فإن لي معارف كثيرين، وهم يتنافسون في استضافتي. على أن المرء يحتاج إلى شيء من الهدوء والدعة، بين آن وآخر، ومن ثم فقد استأجر لي "**جوجن بابو**" المسكن المجاور لداركم".. وسُرّ "**أنادابابو**"، ولو أنه التفت نحو ابنته إذ ذاك، للاحظ الألم الذي غشيها. فقد كان ذلك المسكن لـ"**رامش**" يوما!

وأعدّ الشاي في تلك الأثناء، فدعا "**أنادا بابو**" ابنته إلى أن تقدم للضيف قدحا، ولكن "**نالينا كشا**" اعتذر.. ثم خُيّل إليه أنه قرأ على ملامح "**همناليني**" أنها أساءت تفسير اعتذاره، فقال ونظراته على وجهها: "لا تظني لحظة أني أضمر شيئا من التحامل على عاداتكم، فالواقع أني اعتدتُ في فترة من حياتي أن أتناول الشاي بانتظام، ولكنك لا تعرفين ولا شك أن آراء أمي بشأن الطهر الروحي شديدة العنت، وهي الآن وحيدة، ليس لها في الحياة سواي. ومن ثم فلابد لي من أن أتجنب كل ما يعرقل الود بيننا، ولهذا امتنعتُ عن الشاي، وإن كنت أشارككم المتعة إذ أراكم تنعمون بشربه!".

وكانت عبارات "**نالينا كشا**" الأولى أشبه بصدمة لـ"**همناليني**". فقد تبينتْ أنه في محاضرته لم يكشف شيئا عن حقيقة نفسه، وإنما كان يُخفي شخصيته الحقيقية وراء ستار الحديث. أما الذي لم تتبينه، فهو أنه كان عاجزا بطبيعته عن أن يتحدث إلى الأغراب دون أن يلزم شيئا من الكلفة، وأن الخجل كان يحمله في لقاءاته الأولى بالناس على أن يتشبثَ باعتداد مُصْطَنَع يجافي حقيقة فطرته. وكان هذا هو السر في أنه حين تهيأ "**جوجندرا**" للانصراف، أراد أن ينصرف معه إذ أوحت إليه نفسه بأن "**جوجندرا**" يريد أن يغدر به ويتخلى عنه! على أنه حين تحدث عن أمه، بدا شخصا آخر، حتى أن "**همناليني**" لم تتمالك أن راحت تحملق فيه بإعجاب، وخفق قلبها إشفاقا عليه، حين تبينت ما تجلّى على وجهه من إخلاص صادق عندما ذكر أمه! وأوشكت أن تسأله عنها، لولا أن منعها الحياء.

وأخذت "**همناليني**" -بعد انصراف الضيف- تقرأ على أبيها مقالا في مجلة بنغالية، حتى أَغْفَى في مقعده.. فقد أصبحت الغفوات الطارئة من عادات الشيخ في الفترة الأخيرة.

الفصل الثالث والأربعون

– لم يلبث التعارف بين "**نالينا كشا**" وبين "**أنادا بابو**" وابنته أن تطوّر سريعا إلى مَودّة. وكانت الفتاة قبل أن تعرفه تخال أن أحاديثه كلها مقصورة على النواحي الروحية، فلم تكن تتصور أن بوسعها أن تتناول معه –في حرية– كافة المسائل والموضوعات. ولكنها سرعان ما تبينت أن اللباقة لا تعوزه في الأحاديث العادية، وإنْ لاحظت أنه كان يجنح أحيانا –في أوج الحديث– إلى لون من الانطواء والتحاشي. وحدث في إحدى المرات أن قال "**جوجندرا**" فجأة، موجّها الكلام إلى أبيه: "إن أبناء الطائفة يا أبت بدءوا يسموننا "تلاميذ "**ناليناكشا بابو**"، وقد تشاجرت مع فتى منهم لذلك؟". فابتسم "**أنادا بابو**" قائلا: "لست أرى في هذا ما يؤذي الشعور، بل إنه ليخجلني أن أنتمي إلى طائفة كل أهلها أساتذة، وليس بينهم تلاميذ!".

وهنا قال "**نالينا كشا**": "وأني لأنضوي تحت لوائك يا "**أنادا بابو**"، فلنكن جميعا تلاميذ، ولنقم بجولات نتوقف فيها عند كل موضع نرى أن بوسعنا أن نتعلم فيه شيئا!"..

ولكن "**جوجندرا**" لم يكن يرمي إلى هذا، فعاد يقول: "ولكنها مسالة خطيرة. إن كل أصدقائك يا "**نالين بابو**" لا يستطيعون أن يزوروك دون أن يدمغوا بأنهم تلاميذك! وعندي أنه يجدر بك أن تتخلّى عن بعض تصرفاتك التصوفية.. لقد بلغني أنك تتنفس كما يفعل أفراد مذهب "**اليوجى**"، وأنك تطيل تأمل الشمس في شروقها، وأنك لا تقدم على أكل أو شراب إلا بعد طقوس خاصة.. ولن يؤدي هذا إلا إلى أن تعتبر "خارج غمْدك" بالنسبة للمجتمع، على حد هذا التعبير الدارج!".

وغضّت "**همناليني**" حياء من لهجة أخيها، ولكن "**ناليناكشا**" ابتسم قائلا: "إنني أُقرّ بأن الرجل الذي لا يتمشىّ مع المجتمع العادي غالبا ما يكون منحرفا. ولكن، هل من المؤكد أن ليس في وسع إنسان أن يظل دائما خارجا على مجتمعه، كما لا يمكن للسيف أن يظل بعيدا عن غمده وقرابه؟!.. إن الجزء الذي يخفيه الغمد من السّيف، هو أهم أجزائه.. أما الجزء الذي يظهر منه –وهو المقبض– فهو الجزء الوحيد الذي تبدو فيه الصنعة، إذ ينقش عليه الصانع ما يروق له من نقوش، وفق مزاجه الخاص. كذلك الأمر بالنسبة للإنسان، فهو لا يستطيع أن يعرض ميزاته الخاصة إلا خارج غمد المجتمع، فما أراك راغبا في أن تحرمه هذه الحرية!.. على أن الذي يدهشني هو كيف يتسنّى للناس، بل كيف يجدون الفرصة ليناقشوا فيما بينهم ما أفعله في خلواتي بعيدا عن عيون الملأ؟".

فقال "**جوجندرا**": "لعلّك لا تدرك أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغيير الدّنيا، يرون أن من واجبهم أن يتبيّنوا ما يجري في بيوت جيرانهم، فإذا أعْوَزتْهم المعرفة، استعانوا بموْهبة أخرى لسد هذا النقص. ثم لا تنس يا "**نالين بابو**" أن إقبال المرء على أمور غير عادية –ولو في خلواته– هو الذي يجذب انتباه الناس إلى أعماله. ولو أنك سرت على

العُرف المألوف، لما التفت إليك أحدٌ. الا ترى أن **"هيم"** لاحظتْ التمرينات التي تقوم بها على سطح دارك، وتحدثتْ مع أبي بشأنها، رغم أنها لم تدع لنفسها الحق في إصلاحك!" .

وبدا على **"همناليني"** الاستياء، وهمّتْ بان ترد على أخيها، لولا أن التفتَ إليها **"نالينا كشا"** قائلا: "ليس ثمَّة ما يدعو إلى الاستياء.. فاي ذنب في أن تسترْوحي النسمات على سطح دارك عند المساء، بينما أكون مُنهمكا في تدريباتي؟.. وليس يعيبك أن تكون لك عينان تبصران!" .. فقال **"أنادا"** : "ولكنها لم تخبرني مطلقا بأنها ترى في طقوس عبادتك ما يعيب!" .. وإذ ذاك قال **"جوجندرا"** : "لست أفهم ما الذي يضايقك من السير العادي للحياة البشرية، فلماذا لا تسلك مسْلك الناس العاديين.. وأيّ نفع في أن تمارس طقوسا غريبة في خلوة تحرص على تكتمها!... أرجو ألا تغضب من قولي هذا، فأنا إنسان جد عادي، أقنع بمكاني في الصفوف المتواضعة، ولا أطمع في التطلع إلى المقاعد الرفيعة، اللهم إلا لأرجمها بالطوب! ولا حصر لمن هم على شاكلتي، فإذا أنت تركتهم وراءك لترقَّى إلى عالم بعيد عن الواقع، أصبحتَ هدفا لما لا حصر له من الطوب!" .. فقال **"نالينا كشا"** : "ولكن الطوب أنواع... فلن يضير المرءَ أن تنعته بأنه مجنون، أو قاصر العقل، ولكنك حين ترميه بأنه متهوس ديني فإنما تتّهمه بأنه يقيم نفسه نبيّا ويحاول أن يجمع حوله حواريين، ولن يقوى شيء على تبرئته من هذا الهزل!" .

ولم يشأ **"جوجندرا"** أن يمضي في الجدال، فالتمس حجة للانصراف. ولبثت **"همناليني"** منكسة الرأس وهي تعبث بطرف غطاء المائدة. ولو أن أحدا أنعم النظر في عينيها، لرأى دمعتين تتراقصان على أطراف أهدابها!.. كان اتصالها اليومي بـ**"نالينا كشا"** قد كشف لها عن مواطن النقص في شخصيتها، فراحت تكافح جاهدة لتسلك الدرْب الذي سلكه!.. فلقد أظهر **"نالينا كشا"** الدنيا لها -في ساعة محنتها، وهي تتلفّت حولها تنشد شيئا من العون- في ضوء جديد، فأخذتْ تزداد انصياعا للفكرة التي تولتها، والتي راحت توحي إليها بأن تلزم نفسَها نظاما قاسيا لترويض هذه النفس، عسى أن يكون في الترويض عونٌ. ثم إن الأسى ليس من المشاعر التي تقنع بأن تقوم كمجرد إطار يحيط بالذهن، وإنما هو يبحث عادة عن متنفّس له، خلال الإيحاء لصاحبه بأن يشغل نفسه بعمل صعب. وكانت **"همناليني"** حتى ذلك الوقت تخشى العلانية، وتكتم حزنها في أعمق الغرف الخفية من قلبها. ومن ثم كان ارتياحها كبيرا حين قررت أن تقفو خطوات **"نالينا كشا"** ، وأن تروّض نفسها على نظام تصوّفي رُوحي: فجرّدتْ غرفتها من زينتها، ولم تستبق فيها سوى سريرها الذي أخفته وراء ستار. وأصبحتْ تَنثُر الماء على أرض حجرتها وتكنسها بيدها في كل صباح. ولم تحتفظ من زينة الغرفة بغير آنية للزهور. وصارتْ ترتدي -بعد الاغتسال في الصباح- ثوبا ناصع البياض، ثم تجلس على الأرض، والشمس تتدفق خلال النافذة، ثم تسبح بروحها في ضياء السماء وهوائها!.. واغتبط **"أنادا بابو"** للإشراق الذي أضفته هذه الرياضة الروحية على محياها. وعندما كان **"نالينا كشا"** يفد

على الدار، كان ثلاثتهم يجلسون على أرض حجرة "**همناليني**" ليتجاذبوا أطراف الحديث.

ولم يكتم "**جوجندرا**" استهجانه، فقال ساخرا: "لست أدري ما الذي أصابكم جميعا؟.. إنكم -فيما بينكم- قد حولّتم البيت إلى أرض مقدّسة، فلم يعد فيه موطئ لقدم شخص مثلي!".. وكانت "**همناليني**" تشعر في بعض الأحيان بأن في حديث أخيها ما يجرح شعورها، ولكنها أصبحت تحذو حذو "**ناليناكشا**" في هدوئه وتسامحه، فتكتفي بأن تبتسم، لقد عثرتْ أخيرا على عونٍ أكيد، لا يخيب، فأصبحتْ ترى في الخجل أو الاستحياء ضعفا مُزريا!.. وكانت تُدرك كل الإدراك أن معارفها اعتبروا تقشفها هذا ضربا من التهوّس، ولكن ثقتها في "**ناليناكشا**" وإعجابها بمبادئه منحاها السّلاح الذي تحصنت به ضد الجنس البشري بأسره، فأصبحت تواجه الدنيا غير متحرجة. وحدث ذات صباح أن اغتسلتْ وأدت طقسها، ثم جلستْ في خلوة على أرض غرفتها، أمام النافذة المفتوحة، مستغرقة في التأمل، وإذا بـ"**أنادا بابو**" يقبل مصطحبا "**ناليناكشا**" وكان قلب "**همناليني**" قد أفعم بالتجرد والتواضع، فسجدتْ أمامهما، ومسَّت الغبار العالق بأقدامهما، الأمر الذي جعل "**ناليناكشا**" يشعر بالاستياء. ولم يكن من عادته أن يزورهما في مثل هذه الساعة المبكرة، فأخذت "**همناليني**" تتطلع إليه متسائلة. ومالبث أن قال: إنه تلقى نبأ من "**بنارس**" بأن أمه مريضة، ومن ثم قرّر أن يغادر "**كلكتا**" بقطار المساء، ولما كان سيقضي يومه في التأهّب للرحلة، فقد رأى أن يَفدَ مبكرا ليودّعهما.

وقال "**أنادا بابو**": "شدّ ما يحزنني أن أسمع بمرض أمك. فعسى أن تهبها السماء شفاء عاجلا. وأُحب بهذه المناسبة أن أذكر لك أنني لن أستطيع قط أن أوفيك جزاء ما بذلتَ لنا من عون في الأسابيع الأخيرة". فقال "**ناليناكشا**": "بل أنا المدين لكما.. فلقد أوليتماني أسمى مشاعر الجيرة، وتجشمتُما المتاعب في سبيل توفير مسكن مريح لي بجواركما. ثم إن إخلاصكما أضفى معانيَ جديدة على المسائل العويصة التي كنت عاكفا على تأملها والتفكير فيها منذ زمن!".. وهنا قال "**أنادا بابو**": "من الغريب أننا -قبل أن نعرفك- كنا نعاني حاجة ماسة إلى شيء ما لم نكن ندري كنهه، ولا نعرف سبيلا إلى تحديده. وفي تلك الآونة المحيرة، ظهرتَ أنت على مسرح حياتنا، فشعرْنا بأن لا غنى لنا عن عونك. إننا قوم لا نكاد نبرح دارنا، ولا نكثر من الاختلاط بالمجتمع. ولم يسبق لنا أن أغرمنا بحضور الاجتماعات والاستماع إلى الأحاديث والمحاضرات. وكانت "**همناليني**" أكثر مني بعدا عن هذه المناسبات. ومن ثم كان ما حدث نوعا من المعجزات.. إذ لم نكد نسمع من "**جوجن**" عن محاضرتك، حتى ذهبنا لسماعها دون أقل تردد. فكان هذا تصرّفا لم يسبقه مثيل في حياتنا!.. مثل هذا الأمر لايحدث مالم يكن القدرقد ساقه إلينا، ليساعدنا في حيرتنا!".

فقال "**ناليناكشا**": "إذن دعْني بدوْري أذكر لكما أمراً.. لم يسبق في حياتي أن أدليتُ ببعض شؤوني الخاصة لأحد غيركما، إذ لابد لمن يريد بلوغ أسمى درجات الصدق أن

يكشف كل مافي سريرته. وقد كان لمعونتكما الفضل في تمكيني من تحقيق هذا الواجب. وهكذا أؤكد لكما أنني لم أكن لأ ستطيع أن أستغني عن مساعدتكما!".

ولم تشترك "**همناليني**" في الحديث، ولكنها ظلَّت جالسة في أشعة الشمس، مستغرقة في التأمل، حتى آن لـ"**نالينا كشا**" أن ينصرف، وإذ ذاك قالتْ له ببساطة: "لاتقصرْ في أن تطمئننا على صحة أمك". ومرة أخرى سجدتْ أمامه تواضعاً حين هَمَّ بالخروج!

الفصل الرابع والأربعون

– كان "**أكشاي**" قد غاب عن البيت في الفترة الأخيرة، فلمّا رحل "**نالليناكشا**" إلى "**بنارس**"، عاد "**جوجندرا**" يدعوه إلى الشاي. وداخل "**أكشاي**" الأمل في أن يستبين –من تصرفات "**همناليني**"– إلى أي مدى كانت ذكرى "**رامش**" لا تزال متسلطة على أفكارها. ولكنها في الواقع بدت له في خير حال. وقالت في صداقة خالصة: "لم نعد نراك إلا لماما"! فرد متسائلا: "وهل ترينني أهلا لأن ترونني في كل يوم"؟، فضحكت قائلة: "إذا كنتَ ترى حقا أن المرء يجب ألا يزور أحدا إلا إذا كان جديرا بأن تقع عليه الأبصار، لوجب على الكثيرين منا أن يقضوا أيامهم في عزلة!". وإذ ذاك قال "**جوجندرا**": "لقد ظن "**أكشاي**": إنه يستطيع أن يظفر بجائزة في التواضع"، فإذا "**همناليني**" تتفوق عليه! "على أنني أحب أن أعرب عن رأيي في هذا الصدد. إن أمثالي من الناس العاديين، رفاق مناسبون في كل يوم، ولكن هناك أفذاذا، شواذا، لا يستطيع المرء احتمالهم إلا لماما، ولا يطيق لقاءهم كثيرا، ومن ثم فهم يهيمون في الغابات. والجبال، والوهاد. ولو أن المقام استقر بهم في البيوت كبقية الناس، لاضْطرَّ المتواضعون من أمثال "**جوجندرا**" و"**أكشاي**" إلى أن ينطلقوا بدلا منهم في الغابات!".

ولم يفت "**همناليني**" ما انطوى عليه حديثُه من غمزة لاذعة، ولكنها لم تردّ عليه، وإنما تحولتْ فصبّت الشاي في الأقداح للرجال الثلاثة. حتى إذا سألها أخوها: "ألن تتناولي نصيبا من الشاي؟"، قالت في ثبات وهي تدرك أنها لن تنجو من تقريعه: "لقد عدلتُ عن تناول الشاي" فهتف: "إذن، فقد أصبحت زاهدة بمعنى الكلمة. لعل أوراق الشاي لا تحتوي على مقدار كاف من النكهة الروحية الصادقة! لا، هذا أكثر مما يحتمله المرء، فدعي هذا التهوّس يا "**هيم**"، بحق السماء!".. وصبّ الشاي في قدح وضعه أمامها. ولكنها قالت دون أن تمسّه: "عجبا يا أبت.. إنك لم تأكل شيئاً مع الشاي!"، فأجاب "**أنادا بابو**" وصوته ويداه ترتجف: "صدقيني ياعزيزتي إذا قلت أن أ ي شيء آكله الآن سوف يقف في حلقي فيخنقني. لقد ظللتُ أمدا طويلا أحاول أن أتقبّل في صمت خشونة "**جوجن**"، حتى بلغتُ حالا أخشى معها إذا تكلمتُ أن أقول في وطيس اللحظة ما قد أندم عليه فيما بعد!".

إذ ذاك نهضتْ "**همناليني**"، فسارتْ إلى مقعد أبيها، وقالت: "لا تغضب يا أبي. كان كرما من "**جوجن**" أن قدم لي القدح، ومن ثم لم أشعر بأقل استياء. هيا، تناول بعض الطعام، فأنا أعرف أن الشاي لا يناسب معدتك، مالم تأكل معه شيئا!". ووضعتْ أمامه طبقا مليئا بالكعك، فشرع يأكل في تثاقل. وعادت "**همناليني**" إلى مقعدها، وهمّت بأن تشرب قدح الشاي الذي صبّه لها "**جوجندرا**"، لولا أن قفز "**أكشاي**" قائلا: "اسمحي لي بهذا القدح، فقد فرغت من قدحي!". ونهض "**جوجندرا**" فأخذ القدح من أخته، وتحوّل

إلى أبيه قائلا: "آسف، اغفر لي!" .. ولم يتمالك "**أنـادا**" صوته، وترقرقت الدموع في عينيه، فانسحبَ "**جوجندرا**" و"**أكشاي**" من الغرفة في صمت. وبعد لحظات، نهض "**أنادا بابو**" فتابط ذراع ابنته، وصعدا معا إلى الطابق العلوي...

وفي تلك الليلة، انتابتْ "**أنادا بابو**" نوبة من الألم، فاستُدْعي الطبيب الذي ذكر أنه مصاب بالتهاب معوي، ونصح له بان يمكث عاما -أو ستة أشهر على الأقل- في مكان ريفي للاستجمام. وقال الشيخ بعد ان خفت وطاة الألم وانصرف الطبيب: "لنذهبْ إلى "**بنـارس**" فنقيم بها فترة من الزمن يا عزيزتي "**هيم**"!" .. وكانت هذه الفكرة قد خطرت ببـال "**همنالينـي**" في الوقت نفسه. إذ إنها كانت قد شعرت عقب رحيل "**نالينـاكـشـا**" بتراخ في عبادتها ورياضتها الروحية. كأنما أصاب تحمّسَها في غيابه نوع من الفتور. ولقد حاولتْ في اليوم التالي أن تتبع تعاليمه في اهتمام متضاعف، وأخذت تُجهد نفسها في ذلك، بيد أنها أحسّتْ بقنوط دفع الدموع إلى عينيها. وعندما حان موعدُ الشاي، حاولتْ أن تبدي مرحا وكرما، ولكنها أحسّتْ بكابوس يجثم على قلبها وعاودها ألم الذكريات القديمة، ولوعة الحيرة التي اكتنفتها من قبل. لذلك جاء اقتراح أبيها في موعده الملائم، وصادف هوى من نفسها، فاحتضنته قائلة: "أجل، دعْنا نرحل إلى هناك يا أبت!".

وإذ لاحظ "**جوجندرا**" الاستعدادات التي كانت تجري في اليوم التالي، سأل عما هناك، فقال له أبوه: إنه و"**همناليني**" راحلان إلى الريف، فسأله "**جوجندرا**": "وإلى أي مكان في الريف؟" .. فأجاب "**أنادا**"، وهو غير راغب في أن يصارحه: "سنقوم بجولة في الريف قبل أن نستقر في مكان" .. فقال "**جوجندرا**": "كم يؤسفني ألا أستطيع أن أصحبكما. فقد قدمت طلبا لأحصل على منصب في التدريس، ولابد لي من أن أنتظر الرد!".

الفصل الخامس والأربعون

– عاد "**رامش**" من "**الله آباد**" إلى "**غازيبور**" في ساعة مبكرة من الصباح. وكانت الطرقات شبه خالية، وبدتْ الأشجار التي كانت تحفّ بها منكمشة كما لو كانت تنشد الدفء من البرد اللاذع! وخيّم على كل مكان ضبابٌ بدا كالبجعة الراقدة على بيضها. ولم يكن "**رامش**" –وهو ملتف في معطف فضفاض، في العربة التي أقلته إلى داره– ليشعر بغير وجيب قلبه الملهوف. وتوقفت العربة لدى الباب الخارجي فغادرها. لابد أن "**كمالا**" قد سمعت صوت العجلات، فخفّت لانتظاره في الشرفة. وكان قد حمل لها من "**الله آباد**" قلادة ثمينة تناول صندوقها من جيب معطفه إذ ذاك. ولكنه حين ازداد اقترابا من المبنى، ألْفَى جميع الأبواب مغلقة، وقد استسلم "**بيشان**" –الحارس– للنعاس في الشرفة. وتوقف بُرْهة مكتئبا، ثم صاح ينادي "**بيشان**"، وهو يرجو أن يُوقظ صوتُه نائما آخر كان يهفو إلى لقائه!.. ما كان أبرد هذا الاستقبال لشخص سهّدته اللهفة والشوق!.. وعاد يكرر النداء، ولكن "**بيشان**" لم يستيقظ، فاضْطُرّ في النهاية إلى أن ينهره. ومالبث الحارس أن استوى جالسا، وتلفّت حوله في حيرة، فهتف به "**رامش**": "هل مولاتك في الدار؟".. فأجاب الرجل بصوت أثقله النعاس: "أجل!"، ثم عاد إلى نومه!

وانفتح باب الدار لأول دفعة من يد "**رامش**"، فدخل هذا، وراح يطل في كل غرفة، فإذا بها خالية. وصاح مناديا: "**كمالا**"، ولكنه لم يتلقّ جوابا. وجاسَ في أرجاء الحديقة، وبحث في المطبخ، وفي غرف الخدم وفي الحظيرة، دون أن يعثر لـ"**كمالا**" على أثر. وفي تلك الأثناء كانت الشمس قد أشرقتْ، وانطلقت الغربان تنعق، وظهرتْ فتاتان أو ثلاث من القرويات يحملن الجرار على رؤوسهن، ليملأنها بالماء. وعاد "**رامش**" إلى مبنى الدار، فإذا "**بيشان**" مستغرق في النوم ثانية، فانحنى يهزّه في عنف، حتى إذا أفاق أخيرا، قفز مستويا على قدميه. وسأله "**رامش**": "أين مولاتك؟".. فأجاب: "إنها في البيت بالطبع". قال "**رامش**": "هُراء.. إنها ليست هناك!".. وأجاب "**بيشان**": "ولكنها جاءت بالأمس". فسأله: "وأين ذهبت بعد مجيئها"؟.. وشهق "**بيشان**" إذ ذاك.. وأقبل "**أومش**" في تلك اللحظة، محتقن العينين لطول السهر، فسأله مولاه: "أين الأم يا "**أومش**"؟".. قال: "إنها هنا منذ أمس!"..

– وأين كنت أنت؟

– أرسلتني أمي لأشهد التمثيل في دار "**سيدو بابو**".

وقفز "**رامش**" إلى العربة، وأمر الحوذي بالانطلاق إلى دار "العم".. فإذا الاضطراب يسود الدار. واتجه فكره إلى أن "**كمالا**" قد فوجئت بمرض ما.. ولكنه أخطأ الحدس. فقد أُصيبتْ الطفلة "**أومي**" خلال الليل بمرض جعل أهل الدار يتوقعون موتها، فلم يغمض لأحد منهم جفن. وخطر لـ"**رامش**" أنهم استدعوا "**كمالا**" لتساعدهم في تمريض الطفلة، ولكن "**بيبين**

بابو "-الذي استقبله- لم يكن يدري إن كانت "**كمالا**" قد وفدتْ على الدار أو لم تفد. وأقبل "**أومش**" في تلك الأثناء، فنفذ إلى داخل البيت، وسأل "**سايلاجا**" عنها، فهتفت هذه: "عجبا.. ألم تذهب معها إلى داركم بالأمس؟.. لقد فكرت في إيفاد الخادم إليها في الليلة السالفة، ولكن مرض "**أومي**" شغلني".. فهتف "**أومش**" في أنين: "إذن، فهي ليست هنا!".. وهنا صاحت به "**سايلاجا**": "ما الذي تعنيه؟.. أين كنت طيلة الليل؟... وأين كان "**بيشان**"؟".. فقال الصبي: "لقد استحثتْني على أن أذهب لمشاهدة التمثيل.. أما "**بيشان**" فلا يدري شيئا على الإطلاق.. لقد أسرف في احتساء البلح المخمّر في الليلة السالفة!".

وأمرته "**سايلاجا**" بأن يدعو إليها زوجها. وما إن عرف الرجل أن "**كمالا**" لم تكن في دارها، حتى جزع، فهتفتْ به: "اذهب مع "رامش بابو" فابحثا عنها". واستقل الرجلان العربة وعادا إلى دار "**رامش**"، فراحا يستدرجان "**بيشان**" مرة أخرى، ولكن جهودهما لم تنتزع منه سوى القصة الهزيلة التالية: "خرجت "**كمالا**" وحدها قبيْل الغروب إلى النهر، وقد عرض عليها "**بيشان**" أن يصحبها فأبت، ومنحته روبية. وجثم عند الباب الخارجي يحرس الدار، وإذا ببائع يحمل قدرا مليئا بشراب البلح المخمر.. ولا يَذْكُر "**بيشان**" ما حدث بعد ذلك!".. وأشار إلى الطريق الذي سلكته "**كمالا**" نحو النهر، فانطلق فيه "**رامش**" و"**بيبين**" و"**أومش**"، بين النباتات الندية، للبحث عن "**كمالا**". وتوقف ثلاثتهم عند ضفة النهر. فقد كانت تمتد أمامهم مساحة شاسعة من الرمال المتوهّجة تحت شمس الصباح. ولم يبدُ خلال المنظر أثر لنفس حيّة!.. وصاح "**أومش**": "أواه، يا أماه!.. أين أنت؟".. ولكنه لم يتلق ردا، اللهم إلا رجع الصدى، وفيما كان "**أومش**" يتفرس في المكان، أبصر على بعد شيئا أبيض، فاندفع إليه.. وإذا بحزمة من المفاتيح مربوطة إلى منديل، وملقاة عند حافة الماء. ولم يكن ثمة شك في أنها مفاتيح "**كمالا**"!... وعلى مقربة من المكان، رأوا آثار قدمين صغيرتين، سارتا على الأرض الرطبة، نحو الماء. ووقع بصر "**أومش**" في الماء الضحل على شيء يلمع، فاسرع إليه، وإذا به قلادة ذهبيّة مرصعة بالميناء، كان "**رامش**" قد أهداها إلى "**كمالا**"!.. وإذ بدا جليًا أن كل هذه الظواهر تشير إلى يهر "**الجانجز**"، طار صواب "**أومش**"، فقفز إلى الماء صارخا: "أماه.... أواه، يا أماه!".. وراح يغطس ويطفو وهو يتخبط كالمجنون وكان "**رامش**" مذهولا، مضعضع الحواس. على أن "**بيبين**" راح ينادي الصبي، فكان "**أومش**" يصرخ: "لا.. لن أخرج من الماء.. أواه يا أماه!.. كيف تتركينني هكذا!".. وبعد لأي، زَحَفَ إلى البر وارتمى على الرمل يبكي في حرقة مريرة!

*****

– ألقى "بيبين" يده على كتف "رامش" ينبهه من وجومه الآسى، قائلا: "هيا يا "رامش بابو" .. إننا نضيّع الوقت هنا. يجب أن نبلغ الشرطة الأمر، ليتولوا البحث والتحري" .

ولم يحظ أحد من المحيطين بـ"سايلاجا" بشيء من الطعام أو النوم في ذلك اليوم، بل راحت صيحات الحزن تدوّي في الدار.. واسْتُؤجر بعض الصيادين ليبحثوا في النهر، كما أرسلت الشرطة داوريات في أرجاء الريف، وأجريت تحريات خاصة في محطة سكة الحديد، فتبين أن قطار الليل لم يُقل أية فتاة تنطبق عليها أوصاف "كمالا" !

ووصل "العم" بعد ظهر ذلك اليوم، فلمّا ألمَّ بالتفصيلات، وسمع بما كان من تصرفات "كمالا" الغريبة قبل اختفائها، ازداد اقتناعا بأنها أغرقت نفسها في النهر. وإذ ذاك قالت الخادم: "الآن عرفتُ لماذا صرختْ "أومي" وأصابها المرض الداهم في الليلة الماضية!" . وكانت الصدمة من القسْوة على "رامش" بحيث جعلت الدموع تتحجّر في عينيه.. وأخذ يقول لنفسه: "من يتصوَّر أن يمنحني نهر "الجانجز" "كمالا"، ثم يعود النهر ذاته فيبتلعها هكذا.. كزهرة طاهرة ألقاها إلى الماء مؤمن يعبد النهر!" .. وعاد إلى الضفة بعد الغروب، فظلّ واقفا في البقعة التي كانت المفاتيح ملقاة عندها، يحدق في آثار القدمين الصغيرتين. ثم خلع نعليه، ونزع عنه ثيابه حتى خصره، وخاض في الماء حتى منتصف المجرى. وفي هدوء، تناول القلادة من صندوقها وألقى بها في النهر!

ولم يطل مقامه في "غازيبور"، ولكن أهل دار "العم" كانوا على درجة من الحزن لم يفطنوا معها إلى غيابه!

الفصل السادس والأربعون

- بدا المستقبل أمام "**رامش**" فارغا، فلم يعد له أمل يصبو إليه، ولا عمل منتظم، ولا مقام يستقرّ فيه. ولا ينبغي أن نظن أنه كان قد نسي "**همناليني**"، بل إنه كان يُقصي ذكراها عن باله، قائلا: "إن الضربة القاسية التي وجهها إليّ القدر، جعلتني لا أصلح لهذه الدنيا، فما أنا إلا شجرة محطمة اجْتُثت من غابة يانعة!".. وأخذ ينشد العزاء في الترحال، متنقلا من مكان إلى آخر.. فشاهد معابد "**بنارس**" الوثنية وهو في سفينة على نهر "**الجانجز**"، ثم توجه إلى "**دلهي**"، ونزل في "**كتب منار**"، ثم رحل إلى "**آجرا**" حيث زار "**التاج محل**" في ضوء القمر. ومن "**أمريتسار**" بمعبدها الذهبي، رحل إلى "**راجبوتانا**" فحجّ إلى الأضرحة المقدسة على جبل "**آبو**". وما كان لجسده ولا لعقله أن يعرفا الراحة، بعد أن استبدّت به روح الترحال. على أن الحنين إلى بلدته ما لبث أن خالجه.. الحنين إلى البلدة الآمنة، الوادعة، التي شهدت طفولته، والتي نسيها!

وأخيرا، استقل القطار السريع إلى "**كلكتا**". وظلّ أياما قبل أن يجد من نفسه الجرأة على أن يزور حي "**كالوتولا**". وبلغ في أحد الأيام مدخل الحارة التي كان يقطنها. وفي الليلة التالية، استجمع جرأته وسار حتى بلغ دار "**أنادا بابو**"، فإذا النوافذ والأبواب مغلقة وموصَدة بالمزاليج، ولا أثر لإنسان حيّ في البيت. وخطر له أن "**سوخان**" -الحارس- قد يكون هناك، فطرق الباب مرارا، وراح يناديه، ولكنه لم يَحْظَ بجواب. وأخيرا، فطن إليه جار يُدعَى "**تشاندرا موهان**" كان يجلس في شرفة داره وهو يدخن الغليون، فصاح: "أهلا بك يا "**رامش بابو**".. أهذا أنت حقا؟.. كيف حالك؟... ليس في دار "**أنادا بابو**" أحد. فسأله: "أتعرف أين ذهبوا يا سيدي؟"

قال "**تشاندرا موهان**": "لست أعرف... كل ما أدريه أنهم ذهبوا إلى الريف"... قال: "ومن الذي ذهب منهم؟".. فأجاب الرجل: "**أنادابابو**"وابنته.. فعاد يسأله: "أو لم يصحبهما أحد؟".. فقال "**تشاندرا**": "لا.. فقد شاهدتهما بنفسي عند رحيلهما".

ولم يعد "**رامش**" يقوى على تمالك نفسه، فقال: "لقد قيل لي: إن سيدا يدعى "**نالين بابو**" صحبهما". وإذ ذاك قال "**تشاندرا**": "هذا النبأ غير صحيح. لقد أقام "**نالين بابو**" فترة في مسكنك القديم، ثم رحل إلى "**بنارس**" قبل مغادرتهما "**كلكتا**" ببضعة أيام". وهنا أخذ "**رامش**" يُمطر الرجل بالأسئلة عن "**نالين بابو**"" فعرف منه أن اسمه "**نالينا كشا تشاتبو داياي**"، وقد عرف عنه أنه كان يمارس الطب في "**رانجبور**"، ولكنه أصبح يقيم مع أمه في "**بنارس**". ومالبث "**رامش**" أن سأل عن "**جوجندرا**"، فعرف أنه يقيم في بلدة "**بيسايبور**" بولاية "**مايمنسينغ**" حيث عين ناظرا لمدرسة ثانوية هناك.

ولم يمض وقت طويل على انصراف "**رامش**"، حتى أقبل "**أكشاي**" إذ كان "**جوجندرا**" قد أوصاه بأن يتفقّد الدار في غياب الأسرة، فبادره "**تشاندرا موهان**" قائلا: "لقد كان

"**رامش بابو**" هنا منذ دقائق.. ولم يمض وقت يذكر على انصرافه!". فهتف "**أكشاي**": "أحقا؟.. وماذا جاء يبغي؟".. قال "**تشاندرا**": "لست أدري، ولكنني أبلغته كل أنباء الأسرة. وكان يبدو سقيما معلولا، حتى أنني لم أكد أعرفه!".. فسأله "**أكشاي**": "أفتعرف أين يقيم الآن؟".. قال: "كان في "**غازيبور**"، ثم غادرها، ولم يقرر بعد أين يكون مقامه"... فهتف "**أكشاي**": "آه!"، ثم انصرف إلى شانه.

أما "**رامش**" فقد عاد إلى مسْكنه وهو يفكّر، قائلا في نفسه: "لايزال القدر يلعب بي في قسْوة. إن علاقتي بـ"**كمالا**" وعلاقة "**نالينا كشا**" بـ"**همناليني**" موضوع صالح لرواية.. ورواية مُشَوّقة، مؤثّرة!... مثل هذه العقدة لا يقوَى علي ابتكارها سوى القدر الذي لا يتورع عن شيء!.. إن أغرب الأمور لا تحدث إلا في الحياة الواقعية.. أغرب الأمور التي لا يجرؤ روائي على أن يقدمها إلى الرأي العام!".. ومع ذلك، فقد شعر بأنه تحرر من أضنى حَيرة.. ولابد أن القدَر لن يقسو عليه إذا ما شرع يؤلف الفصل الأخير من رواية حياته!

*****

- كان "**جوجندرا**" يقيم في منزل من طابق واحد. وفيما كان مستغرقا في مطالعة إحدى الصحف، في صباح يوم الأحد من أحد الأسابيع، إذا برجل من السوق يدفع إليه برسالة. وفرك عينيه غير مصدق حين رأى الخط الذي كان على غلافها. فلما فضها، وجدها من "**رامش**"، يذكر فيها أنه يرتقب رده، إذ لديه حديث مهم يريد أن يُفْضي به إليه. وقفز "**جوجندرا**" عن مقعده، وقد نسي الفراق العاصف الذي حدث بينه وبين "**رامش**"، وتملكَتْه ذكرياتُ زمالة الصبا والواقع أنه ابتهج حين فكّر في لقاء "**رامش**" كما تملّكه نوع من الفضول. ولم ير أي بأس في أن يقابله لا سيما وقد كانت "**همناليني**" بعيدة عنهما. ومن ثَمَّ انطلق مع الرسول إلي حيث كان "**رامش**" في الانتظار، وألفاه جالسا على صفيحة مقلوبة من صفائح البترول، في متجر بدّال، فسار إليه، وشدّه من يده صائحا: "لعمري، إنني لا أكاد أفهم طباعك، فهي غريبة كعهدي بها دائما... لماذا لم تات فورا إلى داري بدلا من أن تقبع في حانوت بدَّال؟".. وبُهت "**رامش**" لهذه الحفاوة. فلم يحر جوابا، واكتفى بالابتسام، بينما صحبه "**جوجندرا**" في عجلة، وهو لا يكف عن الكلام: "ليقل علماء الدين عن القدر ما يحلولهم، ولكني لا أكاد افهمه مطلقا. الا انظر إلى ماصرت إليه!.. لقد نشأت في المدينة، على خير ما ينشأ عليه أبناء المدن، فإذا بالقدر يُلقي بي في هذه البطاح المقفرة، حيث تعاني روحي الجوع!"".. فقال "**رامش**" وهو يجيل بصره فيما حوله: "ما هذه ببلدة سيئة!".. قال "**جوجندرا**": "ما الذي ترمي إليه؟".. فأجاب "**رامش**": "أعني أن الوحدة والعزلة تتوفران فيها... والمهم في الأمر، هو راحة البال!"، فصاح "**جوجندرا**": "لا تحدثني عن هذا!. لقد قضيت فترة كدتُ أختنق فيها براحة البال، فلم يمض وقت طويل حتى عُدت إلى هوايتي التي أقتل بها الوقت والسأم.. هواية المشاغبة

والخصام، وأنا الآن في شقاق محتدم مع سكرتير مجلس إدارة المدرسة!" .. ومضى يحدّثه عن متاعبه في المدرسة، ومع السيد الإقطاعي في المنطقة!

وبلغا أخيرا دار "**جوجندرا**"، حيث تهالك "**رامش**" في مقعد. ولكن الآخر صاح: "لا تجلس الآن، فأنا لم أنس بعد اعتزازك بحمّام الصباح، فاذهب واغتسل ريثما أضع الماء على النار، وأتخذ من وصولك حجة لأحظى بقدح آخر من الشاي!" . وقضيا يومهما في أكل، وكلام، واستجمام، دون أن يدع "**جوجندرا**" لـ"**رامش**" فرصة يذكر فيها المهمة التي حملته إلى "**بيسايبور**" . حتى إذا فرغا من العشاء، اتخذا مجلسيْهما إلى جوار المصباح. وبينما كانت الذئاب تعوي في الخارج، وجد "**رامش**" الفرصة ليفضي بمهمّته، فقال: "لعل غريزتك قد أنبأتك يا "**جوجن**" بما أحضرني إلى هنا. لقد سألتني مرة عن أمر لم يكن بوسْعي أن أجيبك عنه. أما الآن، فلم يعد ثمة ما يمنعني من الإجابة" .

وأخلد "**رامش**" إلى الصمت. ولكنه مالبث بعد لحظات، أن شرع يروي -في بطء- قصة علاقته بـ"**كمالا**"، من البداية حتى النهاية. وكانت العبرات في بعض الأحيان تخنْق صوته، وفي أحيان أخرى كان هذا الصوت يتهدج. وكان الشاب يكفّ عن الكلام في بعض المواضع. و"**جوجندرا**" يصغي في صمت. حتى إذا فرغ "**رامش**" من قصته، تنهّدَ "**جوجندرا**"، ثم قال: "لو أنك رويْت لي هذه القصة، في ذلك اليوم، ما صدقتك!" .. فقال "**رامش**": "وإنها لاتزال اليوم، كما كانت إذ ذاك، بعيدة عن العقل، ولكني أرى أن أصحبك إلى القرية التي تزوجتُ فيها، ثم إلى خال "**كمالا**" . فقال صاحبه: "لن أتحرك من هنا. فأنا على استعداد لأن أصدق كل كلمة، دون أن أغادر مقعدي. ولقد كنتُ دائما متعوّدا على أن أصدّقك دون أن أطالبك بدليل، ولابد الآن من أن تغفر لي المرة الوحيدة التي حُدْتُ فيها عن هذه العادة!" .. ونهض من مجلسه، فتعانق الصديقان الحميمان. وعندما قَوي "**رامش**" على الكلام مرة أخرى، قال: "لقد أوقعني القدر في شباك من الزّيف لا فكاك منها.. أما وقد تخلصت منها أخيرا، فلم يعد ثمّة ما يدعوني إلى الكتمان، وها قد آن لي أن أتنفّس في ارتياح وحرية! إنني حتى اليوم لا أعرف -ولا أظنني سأعرف مطلقا- السبب الذي حدا بـ"**كمالا**" إلى الانتحار، ولكني موقن من أن هذا كان الحل الوحيد لها! كنا معا في موقف معقّد، أراني أرتجف كلما ذكرت الصعاب التي كانت تحوطُه، لو لم تقْدم هي على قطع الخيوط. لقد انتزعتْ فجاة، وعلى غير توقع، من بين فكي الموت، ولكنها عادت فغابت بينهما فجاة، وعلى غير توقع... أيضا!" .

قال "**جوجندرا**": "ما ينبغي أن تسلّم بان "**كمالا**" انتحرت... على أن الطريق واضحة أمامك.. ليس هناك الآن سوى "**ناليناكشا**". إنني لا أكاد أفهم هذا الصنف من الناس، وقد اعتدت ألا أميل إلى ما لا أفهمه!.. ولكن معظم الناس على النقيض، يستهويهم مالا يفهمونه وهذا هو سر خوفي على "**هيم**". فلقد بدأ تطوّرها يزعجني حين امتنعت عن شرْب الشاي، وعن تناول اللحوم والأسْماك!.. ثم فقدتْ عيناها بريقهما القديم، وأصبحت

تبتسم في هدوء، ولو وخزها المرء بكلامه على أننا نسْتطيع أن ننقذها قبل فوات الفرصة، إذا أنت ساعدتني. فهيّا نتعاون في الكفاح ضد النسك والتصوف!".

فضحك "**رامش**" بينما استطرد "**جوجندرا**" : "كل ما علينا هو أن ننتظر حتى تبدأ عطلة عيد الميلاد"، فقال "**رامش**" : "لاتزال أمامنا بضعة أيام، فهلا يحسن أن أسبقك؟" .. ولكن "**جوجندرا**" أجاب: "لا، لن يكون هذا صوابا.. أنا الذي فسخت الخطبة، وأنا الذي يجب أن يجاهد لإعادتها. لن أدعك تسبقني وتستأثر بشرف الفوز.. إنك ضيفي للعشرة الأيام الباقية. لقد أقصيتُ عني كل الناس هنا، بمشاكستي، ومن ثم فأنا في حاجة إلى زمالة صديق، لأسترد حُسْن المعاشرة. لم يكن لديّ ما يؤنسني في الليالي سوى عواء الذئاب. وقد أوحشني سماع الأحاديث، حتى إن صوتك ليبدو في أذني أعذب من الموسيقى!"

الفصل السابع والأربعون

– كان النبأ الذي تلقاه "**أكشاي**" من "**تشاندرا موهان**" مادة لتفكير عميق. فقد راح يسائل نفسه: "تُرى ما وراء هذا الأمر؟.. لقد كان "**رامش**" يمارس المحاماة في "**غازيبور**"، كما قال لـ"**تشاندرا**"، فما الذي جعله يترك عمله، ويجسر على أن يظهر بوجهه في هذا الشارع؟.. إنه لن يلبث أن يتبيّن أن "**أنادا بابو**" و"**همناليني**" في "**بنارس**"، فيطير إلى ذلك المكان!". ومن ثم قرّر "**أكشاي**" أن يرحل إلى "**غازيبور**" ليجمع ما يمكن أن يصل إليه هناك من أنباء، ثم يتجه إلى "**بنارس**"، حيث يقابل "**أنادا بابو**".

وهكذا لم يلبث –بعد أيام– أن رُؤي يهبط في "**غازيبور**" في أصيل يوم من أيام شهر ديسمبر وشرع يستدرج أصحاب المتاجر في السوق، سائلا عن عنوان محام من البنغال يُدعَى "**رامش بابو**"، بيد أن مساعيه المرهقة أسفرت عن أن احدا في المنطقة لا يعرف محاميا بهذا الاسم. فعمد إلى السؤال في المحاكم، واستطاع أن يعرف أن ذلك الـ"**رامش**" كان يقيم بعض الوقت في دار "العم"، ولكن احدا لا يعرف إن كان لايزال هناك... فقد اختفت زوجته، ومن المعتقد أنها غرقت. ومن ثم يمّم شطر بيت "العم"، وهو يحدث نفسه: "الآن عرفت لعبة "**رامش**".. لقد ماتت زوجته، ولن يلبث أن يقنع "**همناليني**" بأنه لم يتخذ يوما أية زوجة. ولسوف تصدق "**همناليني**" –في حالها الحاضرة– أي شيء يقوله "**رامش**". إن هؤلاء الطيبين متعبون حقا!". وهنّأ نفسه على سعة تفكيره!

وما إن سأل "**أكشاي**" "العم" عن "**رامش**" و"**كمالا**"، حتى عجز الرجل عن كبح عواطفه، فتدفّقت الدّموع من عينيه، وهو يقول: "أما وقد كنت صديقا حميما لـ"**رامش بابو**"، فلابد أنك عرفت العزيزة "**كمالا**" معرفة وثيقة. لذلك لن يدهشك أن تعلم أنني لم أكد أعرفها يوما، أو يومين، حتى نسيت تماما أنها ليست ابنتي. وكيف كان بوسعي أن أتنبأ بأن تقدم فتاة رقيقة مثلها على توجيه مثل هذه الصّدمة لشخص أسرتْ عواطفه في مثل هذه الفترة الوجيزة!".. فقال "**أكشاي**" متظاهرا بالعطف: "إن الأمر كله يبدو متعذر على الفهم، ومن الواضح أن "**رامش**" ما كان ليستطيع أن يسيء معاملتها!".

فقال الشيخ: "إن "**رامش**" صديق لك، فلا تستأ إذا قلت لك إنني في الواقع لم أستطع أن أفهم هذا الشاب. كان لطيفا حقا، ولكن من المستحيل أن تعرف ما يدور بخلده، ولابد أنه إنسان غير عادي، وإلا فكيف يفسر المرء إهماله مثل تلك الزوجة الصغيرة الفاتنة؟. لقد كانت وفيّه له، ولكن ابنتي تستطيع أن تجزم أن "**كمالا**" كانت تبدو في بعض الأحيان مَهْمُومة من أجل مسألة تكتّمتها في نفسها... لشد ما يحطمُ قلبي أن أتصورّ ما عانته فتاة مثلها من عذاب قبل أن تضع لحياتها مثل هذه الخاتمة. ولعل أقسى ما في الأمر أنني كنتُ في "**الله آباد**". ولو أنني كنتُ هنا، لما صدّقتُ بأن قلبها يطيعها على أن تهجرني!".

وفي الصباح التالي، اصطحب "العم" "**أكشاي**" إلى دار "**رامش**"، كما زار البقعة التي

اختفت عندها "كمالا" . ولم ينبس "**أكشاي**" ببنت شفة، حتى عادا إلى دار "**تشاكرابارتي**"، وإذ ذاك قال الشاب للشيخ: "أتعرف يا سيدي... انني لا اعتقد ان "**كمالا**" قد انتحرت فعلا بإغراق نفسها في "**الجانجز**"، فقال "العم" : "وما رأيك إذن؟" . قال "**أكشاي**" : "إنني أميل إلى الأخذ بأنها فرّت من البيت، ومن الواجب أن نمعن في البحث عنها" . وقفز العم من مكانه في انفعال، وهتف: "ربما كنت على حق!.. إنه أمر ليس بعيد الاحتمال" .. فقال "**أكشاي**" : «إن "**بنارس**" ليست بعيدة عن هنا. وثمة أسرة كانت صديقة لـ"**رامش**" ولي، تُقيمُ هناك، فلعلها لجأت إليها!"، فصاح العم: "كيف؟.. إن "**رامش بابو**" لم يحدثني قط عن هذا؟... ولو عرفت، لما توانيت في السؤال عنها هناك" . وإذ ذاك قال "**أكشاي**" : "بوسعنا ان نذهب معا إلى "**بنارس**"، وأنت خبير بهذا الإقليم، ففي وسعك أن تقوم بكل التحريات الممكنة" .

وبادر "العم" إلى الموافقة. وما كان "**أكشاي**" ليطمع في أن تصدقه "**همناليني**"، ولكنه أيقن بأن شهادة "العم" كفيلة، بأن تعزز أقواله، فتتأكد "**همناليني**" من خداع "**رامش**" . ومن ثم رحل الشيخ إلى "**بنارس**" دون أن يفطن إلى انه اتخذ شاهدا لإثبات إدانة صديقه!

الفصل الثامن والأربعون

– كان "**أنادا بابو**" قد استأجر دارا في مكان منعزل من الضاحية القائمة خارج المدينة. وكان عند وصوله إلى "**بنارس**" قد علم أن الحمّى والسُّعال البسيطين اللذين أصابا "**كشمنكاري**" –أم "**ناليناكشا**"– قد تطورا إلى التهاب رئوي، وضاعفت رطوبة الجوّ من وطأة الحُمّى، كما ساعد على استفحالها تشبث السيدة بالاغتسال في نهر "**الجانجز**" في كل صباح، وفقا للتقاليد الدينية!.. على أن أخطر مراحل المرض لم تلبث أن ولّتْ بفضل ما بذلته "**همناليني**" من رعاية لا تهن. بيد أن المرض خلّف السيدة العجوز في ضعف شنيع. وهنا لم تكن لـ"**همناليني**" حيلة، إذ كانت "**كشمنكاري**" متعصّبة لتقاليد دينها، فكانت ترفض أن تتناول الأدوية المقوية والأغذية التي وصفها الطب لها، من يدي فتاة براهمية. ولقد اعتادت في حياتها أن تطهو طعامها بنفسها، فأصبح "**ناليناكشا**" –في مرضها– يعد لها القوت ويقدّم لها الوجبات جميعا. وكانت تأسى لهذا وتقول له: "كان ينبغي أن أموت منذ زمن.. لماذا شاء الربّ أن يستبقيني على قيد الحياة، ويجعلني عبئا عليك؟".

ولقد كانت العجوز –رغم زهدها وتقشفها–دقيقة في حرصها على أن توفر الجمال والنظافة فيما حوْلها، وعلمت "**همناليني**" من "**ناليناكشا**" بهذه الخصال، فحرصت على أن تُعنى بالبيت وتنظمه بنفسها. وكانت تهتم باختيار ثيابها إذا ما تأهبت لزيارة السيدة العجوز. وكان "**أنادابابو**" يوافيها بالزهور، التي اعتادت "**همناليني**" أن تنسقها في ذوق بديع حول فراش المرض.

وكان "**نالينا كشا**" يحاول أن يُغري أمه على أن تسمح باستئجار خادم للعناية بها، إذ لم تكن تقبل أن تتلقى خدمة من أجير!.. مع أن البيت كان يضم عددا من الخدم بالفعل، إلا أن السيدة العجوز كانت تحرص على أن يقتصر عملهم على المهام الخشنة. أما الأعمال التي تتعلق بها شخصيا، فكانت تأبى أن يقوم بها أُجراء، طبقا لتقاليدها الدينية. وكانت مولعة بذوي الحسن من الأطفال، من الجنسين. وفي أثناء عودتها من الاغتسال في "**الجانجز**"، في كل صباح، كانت لا تلبث –وهي ماضية تنثر الزهور والماء المقدس على كل صورة أو تمثال للإله "**سيفا**"– أن تلتقط صبيا فلاحا مليحا، أو فتاة براهمية بيضاء البشرة، لتصحب هذه اللقية إلى البيت. وبفضل ما كانت تغدقه من لعب، ونقود، وحلوى، استطاعت أن تكتسب قلوب أطفال الجيرة. وكان هؤلاء الصغار يقبلون على البيت في بعض الأحيان، فينتشرون في أرجائه، مما كان يبعث الاغتباط في نفس السيدة العجوز وكانت لها هواية أخرى، تلك هي أنها لم تكن تمرّ بأية سلعة بديعة –مهما تكن تافهة الشأن– إلا وبادرت إلى شرائها، لا لتدخرها كتحفة، وإنما لتخلعها على واحد من أولئك الذين كانت تعرف أنهم يقدرون هداياها. وكثيرا ما كان أقرباؤها ومعارفها يتلقون لفافات

ثمينة لا يعرفون مرسلها.. وهي صاحبتها في الواقع!.. وكانت تقتني صندوقا من الآبنوس تحتفظ فيه بعدد من الأساور البديعة، والثياب الحريرية الجميلة، استعدادا لتقديمها إلى الزوجة التي يبني بها "**نالينا كشا**" يوما، وكان تصور هذه العروس يمدّ السيدة العجوز بأحلام بهيجة!

ومع أن "**كشمنكاري**" كانت حريصة على التزام الزُّهد والتقشف إلا أنها كانت تعارض -في شدة- حياة التقشف التي جنح إليها "**نالينا كشا**"، وكانت ترى أن الإمعان في هذا اللون من التصوّف لا يليق بالرجال، لأن الرجال -في نظرها- كانوا مجرد أطفال كبار ومن ثم كانت تُبدي إشفاقا وتسامحا نحو من يبدي منهم زهدا وتقشفا فيما يتعلق بالطعام والشراب. وكانت تتساءل في استنكار: "لماذا يقسو الرجل على نفسه؟".. وما كانت لترضى عن تنكب التقوى، ولكنها كانت ترى أن قواعد التزمت فيها لم توضع للرجال. ولو أن "**ناليناكشا**" أبدى شيئا مما يبديه الشباب من نزق وأنانية، لاغتبطت في قرارة نفسها. وهالها -عندما غادرت فراش المرض- أن ألفت أن"**همناليني**" لم تكن وحدها المتحمسة لتعاليم "**نالينا كشا**"، وإنما شاركها أبوها الكهل في ذلك.

ومن ثم انتحتْ بـ"**همناليني**" جانبا، ذات يوم، وقالت ضاحكة: "إنكما يا عزيزتي تشجعان "**نالينا كشا**" في تزمته الأحمق، لماذا تلقين -أنت بالذات- بالا إلى اللغو الذي يقوله؟.. إن فتاة في مثل سنك يجب أن تستمتع بالحياة كل اسْتمتاع، وأن تتجه بفكرها إلى الثياب، وإلى اللهو لا إلى الدين! وقد تقولين: لماذا لا أفعل أنا ما أوصيك به. على أن لي عذري الخاص، فإن أبويّ كانا شديدَيْ التعصب، وقد نشأنا -فتيانا وفتيات- في جو من التقوى المتزمتة. ولو أننا غيرنا عاداتنا، لارتبكت حياتنا. أما أنت فقد كانت نشأتك تختلف، وإني لأرى أن كل امرئ خليق بأن يتبع ما فُطر عليه في مثل هذه المسائل. يجب أن تكفّي يا عزيزتي عن تقشفك، فإن الصّلاة والصّوم لا يناسبانك وما صار "**نالينا كشا**" واعظا وصاحب تعاليم إلا منذ عهد قريب، وكان قبل ذلك يسير وفق هواه. ولعله ما اتجه هذا الاتجاه إلا إرضاء لي، وأخشى أن ينتهي يوما إلى الجموح والانطلاق!"

*****

- جرى هذا الحديث عصر ذات يوم، والسيدة العجوز منهمكة في تنسيق شعر "**همناليني**"، إذ لم ترض عن البساطة التي عقصت بها الفتاة شعرها. وعادت تقول: "قد تعتقدين أنيّ من طراز عتيق يا عزيزتي وأنني لا أدري شيئا عن آخر المبتكرات في هذا الصّدد. ولا أظنني مغرورة إذا قلت إني أعرف أكثر مما تعرفين. ولقد كنت أعرف يوما سيّدة إنجليزية لطيفة، اعتادت أن تأتي فتُلقي دروسا في الحياكة، وقد علمتْني الكثير عن تنسيق الشَّعر كذلك. وكنت بطبيعة الحال أغتسل بعد انصرافها وأستبدل ثيابي (١) بعد كل من هذه الروايات.. هكذا نشأت!.. لقد كانت صدمة مروّعة لي أن كفّ أهل زوجي عن أن

(١) ترى بعض الطوائف الهندوكية أنّ أبناء الطوائف الأخرى غير طاهرين، وأنّ مجرد الإجتماع بهم يجلب الدنس، ولذلك يتطهرون عقب لقائهم.

يكونوا من الهندوكيين الأتقياء، ولكنني لم أعترض أو أحتج. كل ما قلته هو. ليطع كل ضميَره، وأنا امرأة جاهلة، وليس بوسعي أن أتحول عما اعتدت".

وكانت العجوز تجد متعة في أن تبسط شعر "**همناليني**" ثم تعود فتعقصه وتجدله على نمط حديث. بل إنها لم تلبث أن فتحت صندوقها الآبنوسي وأخذت تستمتع بأن ترى الفتاة في الثياب البراقة التي كانت تدخرها لعروس ابنها!

كانت "**كشمنكاري**" مولعة بقراءة الروايات البنغالية، فحملت إليها "**همناليني**" كل ما كانت تقتني من كتب ومجلات. وكانت الفتاة تعجب من دقة تعليقات المرأة العجوز على القصص والمقالات، مما لا يتسنّى إلا لسيدة إنجليزية التربية. وقد ساعدتْ لباقة الحديث -مع التقوى- على إظهار أم "**ناليناكشا**" كسيدة جد رائعة في نظر "**همناليني**"، فكان الكلام معها مبعث غبطة وسرور للفتاة!

الفصل التاسع والأربعون

- لم تلبث "**كشمكاري**" أن وقعت صريعة الحمى من جديد، ولكن هذه النوبة لم تكن طويلة المدى كسابقتها. وفي ذات صباح -أثناء فترة النقاهة- أقبل "**نالينا كشا**" فحيّاها كما ينبغي أن يحيي الابن الصالح أمه، إذ مسّ قدميها في احترام، ثم أخذ يهيب بها أن تسمح بأن تتلقى ما ينبغي لمريضة مثلها أن تتلقاه من علاج، وأن تتخلّى عن تقشفها المفرط.. فصاحتْ العجوز: "أفتريدني على أن أنبذ عاداتي القديمة، في الوقت الذي تنبذ أنت فيه الدنيا.. ليس بوسعك يا عزيزي "**نالين**" أن تمضي على هذا النَّسَق. ألا افعل ما توصيك به أمك، فتزوج!".. وسكت "**نالينا كشا**"، ولكن "**كشمنكاري**" مضت تقول: "إنك لتعلم يا عزيزي أن جسدي العتيق لن يعيش طويلا، ولن أموت هانئة إلا إذا كنتَ متزوجا. لقد مرّتْ بي فترة من الزمن كنت أتطلع فيها إلى زواجك من فتاة صغيرة أستطيع أن أعلمها بنفسي، ولكن عينيّ تفتحتا خلال نوبة المرض الأخيرة، فلم أعد أدري إلى أي أجل أعيش، ولم يعد من المضمون أن يطول عمري، وليس من الإنصاف أن أتركك بين يدي فتاة غير ناضجة، ومن ثم يحسن بك أن تتزوج فتاة تضارعك في السن. لقد كنت أقضي الليل مسهدة -خلال مرضي- أفكر في هذا، لأني أشعر كل الشعور بأن هذا هو آخر واجب أدين لك به، ولابد لي من أن أعيش كي أؤديه، وإلاّ فلن أموت قريرة البال!".. فسألها "**نالينا كشا**": "ولكن، أين لي بالفتاة التي تسْعد بالاستقرار معي في حياة واحدة؟".. فقالت: "لا تشغل بالك، فسأدبّر كل شيء". ولم تكن "**كشمكناري**" قد قابلت "**أنادا بابو**" شخصيا، إذ كانت تلزم مخدعها كلما زار البيت. ولكنها أعربت عن رغبتها في مقابلته عندما أقبل في ذلك المساء، فسرعان ما اقتيد إليها، وبادرتْ إلى مفاتحته فيما أرادت، إذ قالت: "إن ابنتك جد فاتنة، وإني لجد مشغوفة بها. ثم إنكما تعرفان ابني "**نالين**"، فليس في مسلكه ما يعيب، كما أن سمعته ذائعة في مهنته، أفلا ترى معي أن من العسير أن ترى زوجا أفضل منه لابنتك؟". فهتف الرجل: "أحقا تعنين هذا!؟.. ما جَرُؤْتُ على أن أتمنّى شيئا كهذا.. إنني لأعتبرُ نفسي حقا محظوظا إذا ما كان "**نالينا كشا**" زوجا لابنتي.. ولكن، ما رأيه هو؟". قالت: "لسوف يوافق "**نالين**"، فهو على العكس من معظم شبان العصر الحاضر، ينصاع لما تطلبه إليه أمه. ثم إن أحدا لا يملك إلا أن يحب ابنتك العزيزة. على أنني أحب أن تتم خطبتهما في أقرب وقت ممكن، فقد لا يطول بي العمر!".

وعاد "**أنادا بابو**" وقد استخفّه الفرح، فاستدعَى "**هيم**"، وقال لها: "إنني كهل يا عزيزتي، وصحتي ليست بالجيدة، ولن أختم أيامي بسلام ما لم أطمئن إلى حياتك. فدعيني أصارحك يا "**هيم**": "لقد فقدت أمك، فاضطلعتُ وحدي بأعبائك.. وكل ما أخشاه أن يحدث ما يحول دون أن أستمر في ذلك. وقد خطبتك أم "**نالينا كشا**" لابنها

الليلة!". وتضرّج وجه "**همناليني**"، وقالت متلعثمة: "كيف؟.. هذا مستحيل!.. "**نالينا كشا**"!.. كيف يمكن هذا؟".. ولاذت الفتاة بالشرفة تفكر في الأمر. وتحطمتْ آمال "**أنادا بابو**"، فما كان يتوقع هذه المعارضة، بل ظنّ -مطمئنا- أن ابنته ستُسرّ بخطبتها إلى "**نالينا كشا**". وراح الكهل يتأمل ذُبالة المصباح المتراقصة، وهو مشدوه، يعجب من طباع الأنوثة، ويرى فيها لغزا مُستعصي الحل.

وجلست "**همناليني**" في الشرفة المعتمة، وهي لا تفطن إلى مرور السّاعات. وأخيرا، حانت منها التفاتة إلى داخل الغرفة، وما إن رأت أمارات الأسى على وجه أبيها، حتى تمرّد عليها ضميرها، فأسرعت ووقفت خلف مقعده، تمسح رأسه متمتمة: "هيا يا أبت، لقد أُعد عشاؤك منذ زمن، ولابد أنه برد". ونهض "**أنادا بابو**" بحركة آلية، فسار إلى قاعة الطعام، ولكن نفسه عافت العشاء. كان قد اطمأن إلى أن الغيوم انقشعت عن حياة "**همناليني**"، فأسرف في تخيّل آمال المستقبل، ومن ثم كان رفضُها الخطبة مبعث أسى مرير له: "وقال لنفسه آسفا: "إذن، فـ"**همناليني**" لم تنس "**رامش**" بعد!".

وكان من عادته أن يأوي إلى فراشه بعد العشاء مباشرة، ولكن في ذلك المساء تلكأ، واستلقَى في مقعد قُماشي في الشرفة، مُسرحا بصره في الحديقة. وراحت "**همناليني**" تتحايل لتحمله على أن يأوي إلى سريره، حتى نهض أخيرا وسار إلى مخدعه صامتا. وكانت "**همناليني**" قد قرّرت في حزم أن تُقصي "**رامش**" عن بالها، حتى لا تحيد عما أخذت به نفسها من تقشف وإنكار للذات.. ولقد كبّدها هذا صراعا نفسيا قاسيا. ولم يكن الأمر يتطلّب أكثر من صدْمة خارجية كي يعود الجرح إلى النزيف! كانت قد عانت حيرة بالغة في تدبر مستقبلها والمسلك الذي تنتهجه، فلما استقرّت في النهاية على أن ترى في "**نالينا كشا**" رائدا روحيا وأن تُكيّف حياتها وفقا لتعاليمه، ظنتْ أنها تخلصتْ من حيرتها. فلما جاء حديث هذا الزواج، وحاولت أن تجتثّ الحب القديم من منبته، تبينت أنه أمنع من أن يُجتث!.. كان مجرد احتمال قطع الرباط القديم أدْعَى لأن تتشبث به "**همناليني**" في استماتة وعزم أكثر من ذي قبل!

الفصل الخمسون

- أرسلت "**كشمنكاري**" -في تلك الأثناء- تستدعي "**ناليناكشا**"، ثم افضت إليه بانها عرضتَ مشروعا لزواجه، وأن الخطبة لقيت قبولا، فابتسم قائلا: "هل دبرت كل شيء نهائيا؟.. ما أسرعت!". قالت: "أجل، فإنني لن أعمر مدى الدهر. لقد أعجبت جدا بـ"**همناليني**" فهي فتاة فذة. صحيح أن شكلها ليس غاية في الجمال...". فقال: "اعفيني من هذا يا أماه، فلست افكر في شكلها، وإنما أنا أفكر في استحالة زواجي منها.. لا أستطيع حقا!".. فهتفت: ؛لا تهرف!.. لست أرى ما يمنع!".. ولم يكن من السهل على "**ناليناكشا**" أن يصوغ أسباب معارضته، ولكن هذا هو ما جال بخاطره في صمت: "لقد كانت "**همناليني**" فتاة قام بدور المرشد الديني لها، فكان مجرد التفكير في أن يتحوّل إليها فجاة ليعرض عليها الزواج، أمرا مُستهجنا" ولكن امه حملت صمته على محمل القبول، فشرعت تقول: "لن أقبل اي اعتراض في هذه المرة. كأني بك مُصرّ على أن تنبذ الدنيا وتصبح ناسكا من أجلي. هذا عبث لم أعد أقبله، فلا تدع الفرصة تفلت من يديك في هذه المرة. ولابد من أن تنفذ المشروع في أول يوم سعيد الطالع!".

ومضت فترة قبل أن يجرؤ "**ناليناكشا**" على أن يقول: "هناك أمر لابد من أن أصارحك به يا أمي. ولكنني أستحلفك ألا تكربي أو تحزني. إن ما سأقصّه عليك قد وقع منذ تسعة شهور أو عشرة، فمن غير المجدي أن تأسي عليه الآن. ولما كنت أعرف أنك تجزعين من المصاب، حتى بعد حدوثه، فقد أشفقتُ أن أروي لك هذه القصة من قبل!".

وأزعج "**كشمنكاري**" حديثُه، فقالت: "لستُ أدري ما الذي تزمع قوله يا بني، ولكن المقدمة تجعلني أتوقع أسوأ الاحتمالات. فهات ما عندك، ولا تهتم إذا كان النبأ طيبا أو سيئا".. ومن ثم شرع "**ناليناكشا**" يقول: "لقد بعت في فبراير الماضي عيادتي في "**رانجبور**"، وأجرت بيتي، واتجهت إلى "**كلكتا**". فلما بلغت نقطة عبور النهر عند "**سارا**"، خطر لي أن أتحول عن السفر بالقطارات، وأن أتم الرحلة عن طريق النهر. ومن ثم استأجرتُ قاربا ريفيا، حتى إذا قضينا يومين في النهر، رسَوْنا عند جزيرة نهريّة، فهبطت إلى البر، وإذا بي ألتقي بصديقنا القديم "**بوبن**" يحمل بندقية. وظهر أنه كان "نائب حكمدار" المنطقة، وأنه كان في جولة تفتيشية. ولما كنا لم نلتق منذ سنوات، فقد رفض أن يتركني، وأصرّ على أن أرافقه في جولته. وفي ذات يوم هبطنا قرية "**دوبا بوكور**"، وانطلقنا نجوسُ خلالها. ومالبث "**بوبن**" أن قادني فجاة إلى ساحة ذات سياج تتصل ببيت يقوم على حافة أرض محروثة، وأحضر لنا صاحب الدار مقاعد وجلس معنا. ومالبث الرجل - وكان يُدعَى "**تاريني تشاتورجي**" - أن استدرج "**بوبن**" حتى عرف جلية أمري وسيرتي.

وفيما كنا عائدين إلى معسكرنا، قال "**بوبن**": "إنك اليوم محظوظ فلن تلبث أن تتلقى عرضا للزواج.. إن هذا الـ"**تاريني تشاتورجتي**" مراب لم يخلق من هو أبخل منه. وقد

كانت له أخت خلفها زوجها -عند موته- معدمة، فأواها "**تاريني**" . وكانت حاملا.. ثم ماتت بعد أن وضعت ابنة. وكان موتها نتيجة حرمانها من الرعاية الطبية. وكانت له أخت أرملة أخرى تقوم بأعباء البيت، وتوفر عليه أجر الخادم، فتولت المسكينة أمر الطفلة اليتيمة، ولكنها مالبثت بدورها أن ماتت كالجارية في خدمة خالها وزوجته، دون أن تحظَى بغير الجحود. ولقد أوشكت أن تجتاز سن الزواج، ولكن من العسير أن نعثر على زوج ليتيمة لا حول لها ولا نصير، لا سيما وأن أحدا من أهل القرية لا يعرف أباها. ثم إنها ولدت بعد موت أبيها، مما أثار الأقاويل في القرية حول أصلها!

ولما كان "**تاريني تشاتورجتي**" يتقلب في الثراء، فقد عمد أهل القرية إلى تحقير الفتاة، ليحملوه على أن يجزل العطاء ويمنحها "**دوطة**" كبيرة في سبيل تزويجها. ولقد كان -منذ أربع سنوات- يزعم أنها في العاشرة، فلو حسبنا هذه الفترة، لوجدنا أنها الآن في الرابعة عشرة من عمرها على الأقل. ومع ذلك، فهي أجمل فتاة رأيتها. إنها تُدعَى "كمالا"، تيمنا بالربّة "**لاكشمي**"، وإنها لأكمل صورة لمعنى اسمها! وكلما وفد شاب براهمي على القرية، ركع "**تاريني**" أمامه، ضارعا إليه أن يتزوج منها، ولكن شائعات القرية لا تلبث أن تنفّر الشاب ولو كان راغبا. وها قد حان دورك!" .. وكنتُ إذ ذاك يا أماه في حال لا يعلم بها إلا الرب، فبادرت قائلا دون ما تفكير: "حسنا، سأتزوج من الفتاة!" .. مع أني كنت دائما أتوق إلى أن أفاجئك بزوجة هندوكية، إذ كنت أوقن أن أحدا منا لن يسعد إذا تزوجتُ من براهمية وذهل "**بوبن**" وصاح: "ما أظنك جادا!" . فأكدتُ له أنني جاد.. وفي ذلك المساء زار معسكرنا "**تاريني**"، وراح يعرض عليّ الفتاة وهو يضم يديه إلى صدره ضارعا على طريقة البراهمة. وتقرر أن يتم الزواج في اليوم بعد التالي. وكان من الطبيعي أن يدرك المرء سر ضراعته، وتعجله. كان يريد أن يتفادى الإنفاق على الفتاة، وإقامة حفل عُرْس لها. وتم الزواج في الموعد!" . فصاحت "**كشمنكاري**" في جزع: أحقا تم الزواج؟.. أجاد أنت؟" . فقال "**ناليناكشا**" : "كل الجد يا أماه. وعدت إلى قاربي بعروسي، ثم أقلعنا بعد ظهر اليوم التالي للعرس. وكنا قد أصبحنا في شهر مارس. وفي مساء ذلك اليوم، ولما ينقض على رحيلنا أكثر من ساعتين، انقضت علينا ريح لافحة قلبت القارب بطريقة، لا أدرك كنهها، وغيّبتْ كل أثر له!" .

وصاحت "**كشمنكاري**" مذعورة: "يا للسماوات الرحيمة!" .. فقال "**نالينا كشا**" : "وعندما أفقتُ، وجدتُ نفسي أكافح التيار، ولا أثر هناك للقارب أو رُكابه. وأخطرت البوليس، فقام ببحث دقيق دون ما ثمرة!" .. واكفهرّ وجه الأم، وقالت: "مافات قد مات، فلا تذكره ثانية" .. فقال: "ما كنت لأروي لك هذا يا أماه، لولا إصرارك على زواجي" . فهتفتْ: ؛وكيف تمنعك هذه النكبة عن الزواج؟" .. قال: "ربما كانت الفتاة قد نجت. وهذا ما يصدني عن الزواج" . وصاحت "**كشمنكاري**" : "أمجنون أنت؟.. لو أنها كانت على قيد الحياة، لسمعت عنها" . فقال: "ولكنها لا تعرف عني شيئا، لأني كنت غريبا عنها،

وما أظنها عرفت ملامحي. ولقد كتبت إلى "**تاريني**" عندما وصلت إلى "**بنارس**"، ولكن رسالتي لم تصل إلى يديه، إذ رُدتْ إليّ، لأنه مات!.. وقد قررتُ أن أنتظر عاما، قبل أن أعتبرها ميتة!". فقالت في لوم: "إنك دائما تعقد الأمور. لماذا تتريث عاما بأكمله؟". قال: "لن يلبث العام أن ينتهي يا أماه، فنحن في شهر ديسمبر. ولما كان الشهر الذي يليه منحوسا، بالنسبة للزواج، لذلك لن يبقى سوى فبراير، ثم ينتهي العام في مارس".

قالت "**كشمنكاري**": "جميل جدا.. إذن فاعتبر نفسك خطيبا لـ"**همناليني**"، وقد طلبتُ يدها رسميا من أبيها". فقال "**ناليناكشا**": "إن العبد يدبر، ولكن هناك من يدبر فوق تدبيره، فلندع الأمر له!".. قالت: ؛فليكن!.. ولكن، ما أرهبَ ما رويتَ لي يا عزيزي!".. قال: "ولعلكِ فهمتِ الآن سرّ ترددي في إنبائك بالقصة".

الفصل الحادي والخمسون

– كانت شمس ديسمبر القصيرة العمر قد هبطتْ إلى حافة السماء الشاحبة، عندما بلغت "**كمالا**" ضفة نهر "**الجانجز**"، فأدّت الفتاة للشمس تحيّة الغروب، ونثرَتْ بعض قطرات من ماء النهر المقدس على رأسها، ثم خاضت في مجرى النهر، مغترفة من مائه، ناثرة الزهور على صفحته. وانحنت إجلالا لكافة القُوَى السماوية! وفيما هي ترفع رأسها، تذكرت كائنا آخر تدين له بالإجلال والتوقير.. إنها لم تجرؤ قط على أن تتفرّس في وجهه. وما وقعت عيناها –طوال الليلة الوحيدة التي قضتها إلى جواره– على وجهه، بل ولا على قدميه. لقد سمعته يقول كلمة أو اثنتين لمن رافقوها إلى غرفة الزفاف، ولكن صوته لم يكد ينفذ خلال حجابها، ولا خلال تحفظها وصدّها. وأخذت تحاول جاهدة –وهي تقف على حافّة النهر– كي تذكر صوته، ولكنها لم توفق!.. كان الزفاف بمراسمه قد امتد إلى ساعة متأخرة من الليل، وكانت منهوكة القوى، فانقض عليها النعاس بغتة. واستيقظت في الصباح التالي، لترى جارة شابة متزوجة تهزها لتوقظها وهي تضحك. وألفت نفسها وحيدة على أريكة في المخدع.

أجل، كان السيد الذي تربع على عرش حياتها كالكتاب المغلق بالنسبة لها، فهي لا تكاد تذكر وجهه، ولا صوته، ولا ملامحه.. لا شيء قد علق بذاكرتها!

وكان الخطاب الذي كتبه "**رامش**" لـ"**همناليني**" لايزال مربوطا إلى طرف من ثوبها، فجلستْ على رمال الشاطئ، وأعادت قراءة صفحة منه على ضوء الغسق. كانت تلك الصفحة هي التي تضمنت ذكر زوجها، فلم تجد شيئا عنه اللهم إلا أنه كان يُدعى "**ناليناكشا تشاتو باداياي**"، وأنه كان طبيبا في "**رانجبور**"، وأن "**رامش**" لم يستطع أن يعثر له على أثر. "**نالينا كشا**"!.. كأنما كان الاسم بلسما لجراح نفسها!.. بل خُيِّل إليها أنه يملأ قلبها حتى لا تراع. وانهمرت الدموع مدرارة من عينيها، فخفَّفتْ من وطأة أساها. وهَتف صوت في أعماقها: "لقد امتلأ الفراغ، وانجاب الظلام.. الآن عرفتُ أنني الأخرى جزء من العالم الحي!".. وهتفت من أعماق فؤادها: "إذا كنت زوجة صادقة له، فلابد لي من أن أعيش لأسجد عند قدميْه. إنني لن أفقد الأمل في العثور عليه ما امتدَّ بي العمر. ما أنقذني الرب من الموت، إلا لأعيش وأخدمه!". وتناولت حزمة المفاتيح فرمتها بعيدا. وتذكرت أنها تضم طرفين من ثوبها بقلادة أهداها إليها "**رامش**" فخلعتها هي الأخرى، وألقت بها في الماء. ثم تحولت نحو الغرب، وسارت دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن وجهتها، ولا عن الطريقة التي ستسلكها في البحث عن رجلها!.. كل ما كانت تعرفه هو أنه لابد لها من أن تمضي قدما، وألا تتلكأ لحظة حيث كانت!

وسرعان ما خَبَا الشفق من سماء الشتاء، وبدتْ حافة النهر الرملية متلألئة بوميض خافت في غمْرة الظلام، وكأنما محا رسّام ما معالم المنظر الذي كان قد رسمه، ولم يترك سوى

صفحة اللوحة الخالية من كل لون!.. وكانت السماء التي غاب قمرها، وبدت نجومها غير متألقة، تحنو على ضفة النهر الصحراوية في حنان. ولم يكن في وسع "**كمالا**" أن تتبيّن أمامها سوى فضاء موحش، مهجور، لا نهاية له. ولكنها كانت تدرك أنه لابدّ لها من المضيّ قدما، فلم تتوقف لتفكر فيما وراء سيرها هذا. على أنها قررت أن تتبع ضفة النهر، حتى يعفيها هذا من الحاجة إلى السؤال عن طريقها، وحتى إذا تهددّها خطر، لاذت بصدر "**الجانجز**" الحاني العطوف!.. وكان الظلام يلف "**كمالا**"، ولكنه لم يكن مُدْلهمّا بدرجة تحرمها من الرؤية. وكانت الذئاب تخرُج خلال الليل من حقول القمح. وتروح تعوي بأصوات رهيبة. وبعد ساعات، تبينتْ أن الأرض المنبسطة انتهت بها إلى ضفة عالية، وأن الرمال أفضت بها إلى أرض زراعية. واعترضت طريقها قرية، ولكنها حين اقتربتْ منها بقلب واجف، تبينت أن أهلها في نوم عميق. وبدأت قواها تخور، فدراتْ حول القرية في إعياء، وصعدت إلى قمة ما بدا لها كثيبا مهجورا، ثم تهالكت تحت شجرة، ونامت نوم المرهقة المكدودة.

وعندما استيقظت قرب الفجر، كان القمر قد بزغ واهنا، فبدّد بعض الظلمَة. وكانت تقف إلى جوارها امرأة مُسنّة، تمطرها بأسئلة باللغة البنغالية: "من أنت؟.. ما الذي تفعلينه هنا؟.. وكيف تنامين تحت شجرة في ليلة باردة كهذه؟".. واجفلت "**كمالا**" مذعورة، فتلفتت حولها، وإذا بها ترى مرساة استقر فيها مركبان من مراكب نقل البضائع. وكانت السيدة العجوز مسافرة على أحدهما، وقد نهضت مبكرة لتغتسل قبل أن يستيقظ مرافقوها. وعادت المرأة تسألها: "يبدو أنك بنغالية.. ألست كذلك؟"، فأجابت: "بلى".. فسألتها: ؛وماذا تفعلين هنا؟".. فقالت: "كنت في طريقي إلي "**بنارس**"، فدهمني النوم في أواخر الليل".. صاحت المرأة: "يا للعجب!.. تسافرين إلى "**بنارس**" على قدميْك؟.. يحسن بك أن تصعدي إلى هذا المركب، وسألحق بك بعد أن أغتسل"..

وبالفعل، لم تلبث السيدة المسنة أن لحقت بها، وأخذت تحدثها عن نفسها، فعرفتْ "**كمالا**" أنها تُدعَى "**نابينكالي**"، وأن زوجها يُدعَى "**موكوندالال داتا**"، وأنهما ينتميان إلى طائفة "**الكايستا**"، ومن أبناء "**البنغال**"، ولكنهما يقيمان مؤقتا في "**بنارس**". ثم تحولت "**نابينكالي**" تسألها عن اسمها، وقالت: "أراك تلبسين خلخالا من حديد، إذن فزوجك حي؟".. فأجابت "**كمالا**": "لقد اختفى صبيحة زفافنا". فهتفت السيدة: "ما رأيت رجلا يفعل ما فعل، لا سيما وأنك تبدين صغيرة!.. لا يمكن أن تكوني قد تجاوزت الخامسة عشرة!".. وأخذتْ تفحصها من رأسها إلى قدميها، بينما قالت "**كمالا**": "لست أدري عمري تماما، ولكنه لابد أن يكون حوالي الخامسة عشرة!". وعادت "**نابينكالي**" تسألها: "إنك براهمية.. ألست كذلك؟"، فأجابتْ: "بلى".. قالت: "وأين يعيش قومُك؟"، فقالت "**كمالا**": "ماذهبت قط إلى موطن زوجي. أما أبي، فقد كان من "**بيسوكالي**". على أن أبي وأمي قد ماتا". فهتفت السيدة: "وما الذي تنتوين عمله؟"..

فأجابت "**كمالا**": "لست أرجو سوى سقف يظلني، ووجبتيْن في اليوم. فإذا وجدتُ قوما طيبين في "**بنارس**" يكفلون لي هذا، عملت بنفقات إقامتي فأنا أجيد الطهو".

*****

- واغتبطت "**نابينكالي**" في سريرتها لما بدا لها من أنها ستحظى بخدمات طاهية براهمية بغير مقابل. على أنها حرصت على أن تخفي فرحها، قائلة: "لسنا بحاجة إليك، فلدينا خدمنا، فضلا عن أننا لا نستطيع أن نستخدم شخصا لا ميزات له سوى أنه براهمي.. ولكنني لا أستطيع أن أتركك في ضيقة وأنت براهمية، وفتاة، لذلك فقد يكون من الأفضل لك أن تصحبينا على أية حال. إن لدينا عددا كبيرا من الأفواه التي تنشد القوت، كما أننا نُلْقي الكثير من فضَلات طعامنا، فلن يضيرنا أن نعولَ شخصا فوق من نعول. ولن تجدي العمل مرهقا، إذ لا يقيم الآن في دارنا سواي وزوجي!.. لقد زوجتُ كل بناتي، ولم يعد لنا سوى ابن عُيِّن أخيرا "**حكمدارا**" في "**سيراججانج**"، وقد تلقينا من الحكومة قرار تعيينه منذ شهرين".

وانطلقت السفينتان، تدفعهما الريح سراعا، فوصلتا "**بنارس**" بعد ساعات قلائل، فانتقل القوم إلى منزل ذي طابقين، في حديقة بإحدى الضواحي القائمة في أطراف المدينة. ولم تر "**كمالا**" أثرا لطاه براهمي، ولا لأكثر من خادم واحد، على نقيض مازعمت السيدة!.. وحتى هذا لم تلبث "**نابينكالي**" أن سرحته بعد أيام، دون أن تنقده أجره. واضطلعت "**كمالا**" بكل أعباء المطبخ!.. ولم تضن "**نابينكالي**" عليها بالنصح، فكانت تقول لها: "إنك لتعلمين يا عزيزتي أن "**بنارس**" مدينة موبوءة بالنسبة للفتيات أمثالك، ومن ثم يجب ألا تبرحي الدار وحيدة. ولسوف أصطحبك إذا ما ذهبتُ إلى "**الجانجز**" للاغتسال، أو إذا ذهبت لأتعبد إلى الإله "**بيسويسوار**"!.. واتخذتْ كل احتياط حتى لا تفلت "**كمالا**" من مخالبها، فلم تتح للفتاة فرصة تَلْتَقي فيها بأحد من جنسها ولا من عنصرها، وكانت أعمال البيت تستغرق كل نهارها، بينما تنصت في المساء إلى "**نابينكالي**" وهي تحدثها عن النفائس والمجوهرات والذهب والفضة التي منعها الخوف من اللصوص من أن تحضرها إلى "**بنارس**"!

وكانت تقول: "إن زوجي لم يعتد قط أن يتناول طعامه في أطباق من نحاس، وكان في البداية يزمجر غاضبا ويقول: ؛وما قيمة أن يسرق أحد بضعة تحف من ثروتنا؟.. في وسعنا أن نعوّضها بسواها!".. ولكنني لم أوافقه قط على هذا التبذير.. إن لنا في بلدنا الأصلي بيتا هائلا، وحشدا من الخدم، أكثر مما أستطيع إحصاءهم!.. ولكننا لا نستطيع أن نصطحب عشرين أو ثلاثين خادما أينما ذهبنا".. وهكذا كانت تمضي في أكاذيبها!

الفصل الثاني والخمسون

– كانت حياة "**كمالا**" في دار "**نابينكالي**" تشبه حياة سمكة حبيسة في بركة ضحلة موحلة، ولم يكن لها من خلاص إلا في الفرار، ولكن الفرار كان أمرا مستبعدا، مادامت لا تعرف له غاية. فإن تجربتها الأخيرة علمتها كيف تبدو الدنيا –خارج جدران الدار– رهيبة في الليل، فكانت تحجم عن أن تسلم نفسها مرّة أخرى لقبضة المجهول: وكانت "**نابينكالي**" من ناحيتها مُغرمَة بـ"**كمالا**"، ولكن.. على طريقتها الخاصة، فكان عطفها يتخذ أشكالا بغيضة. كانت قد ساعدت ا لفتاة في وقت المحنة، ولكنها –بتصرفاتها– جعلت "**كمالا**" لا تكاد تشعر بشيء من العرفان، وحملتها على أن تؤثر أعمالها في خدمة البيت، على سويعات الفراغ المضجرة، التي كانت تضطر إلى قضائها في صحبة السيدة، وفي ذات صباح، استدْعتها السيدة العجوز وراحت تلومها على الإسراف في استعمال المسلي. ولم تكن "**كمالا**" تجيب قط على أي تأنيب، بل اعتادت بعد كل تقريع أن تعود في هدوء إلى عملها، وكأنها لم تسمع شيئا. ولكن لهجة السيدة في ذلك الصباح أصابت من قلبها مرمى، فظلت "**كمالا**" مهمومة تفكر وهي عاكفة على تنظيف الخُضَر. وكانت قد انتهت إلى أن الدنيا مكان خلو من البهجة، وأن الحياة عبء ثقيل، حين التقطت أذناها كلمات استرعت انتباهها. فقد استدعت "**نابينكالي**" حارس البيت، وراحت تصدر إليه أمرا: "اسمع يا "**تولسي**".. اهرع إلى المدينة واستدع الدكتور "**ناليناكشا**" فورا، وقلْ له أن مولاك متوعك!".

"**ناليناكشا**"!. وتراقص شعاع الشمس أمام عيني "كمالا" كأنه أوتار قيثارة تعزف عليها أصابعُ خفيّة. وألقت الخضر من يديها، ووقفت لدى باب المطبخ في طريق "**تولسي**"، فعندما أقبل ليذهب إلى مهمته، سألته عن وجهته، فقال: "إنني ذاهب لأستدعي الذكتور "**ناليناكشا**". وسألته: "ومن يكون؟".. قال: "إنه خير طبيب في المدينة!".. وعادت تسأله: "وأين يقيم؟"، فقال: "في المدينة.. على بعد ميل من هنا". وكانت "**كمالا**" قد اعتادت أن توزع على من يكون في البيت من خدم، كميات قليلة من الغذاء الذي يتبقى بعد أن يُشبِع سيدا الدار نهمهما.

وعلى الرغم مما كانت تلقاه من تقريع "**نابينكالي**" وخشونتها، فإنها لم تكن تَرْعَوي عن هذه العادة، مما حببها إلى الخدم، وجعلهم "عبيدا" مختارين لها. وانبعث صوت رفيع من أعلى السلم صائحا: "ماذا تدبر عند باب المطبخ يا "**تولسي**"؟. أتظن أنني لا أراقبك؟.. ألا تستطيع أن تذهب إلى المدينة دون أن تستشير الطاهية أولا؟.. لا عجب إذن، إذا كانت أشياء كثيرة تختفي من الدار! اسمعي أيتها الشابة، تذكري من فضلك أنني التقطتك من الطريق وآويتك، أفهذا جزاء الإحسان؟"..

كانت تؤمن بأن كل من في البيت يتآمرون لسَلْبها. على أن ثورتها لم تلق من "**كمالا**"

في هذه المرة سوى أذن صماء، فواصلت الفتاة عملها وقد تزاحمت السحب في رأسها. ثم عادت إلى باب المطبخ تنتظر عودة "**تولسي**". وجاء أخيرا، ولكنه كان وحيدا، وسألته عن الطبيب، فقال: إنه لم يستطع الحضور لأن أمه مريضة، فهتفت: "أمه؟.. أليس لديه من يُعْنَى بها؟"، قال: "لا لأنه غير متزوج!".. وانبعث إذ ذاك صوت السيدة، فأسرعت "**كمالا**" إلى داخل المطبخ، وهُرِع "**تولسي**" إلى السيدة.

واستبدتْ الشكوك بـ"**كمالا**".. "**ناليناكشا**".. وكان يمارس الطب في "**رانجبور**"!.. لذلك لم يكد "**تولسي**" يظهر مرة أخرى، حتى سألته عما إذا كان الطبيب براهميا، فلما رد بالإيجاب، سعت "**كمالا**" لفورها إلى "**نابينكالي**"، وأنبأتها بأنها قد فرغت من عملها، وأنها تريد أن تذهب للاغتسال في النهر عند "داساسواميد غات"، فقالت السيدة: "هذا لا يليق، فزوجي مريض، ولا يدري أحد ما قد يحتاج إليه، ولماذا تريدين الذهاب إلى هذا المكان البعيد في هذا اليوم بالذات؟"، فقالت: ؛لأنني علمت أن لي قريبة في "**بنارس**" تمسُّ بي الحاجة إلى لقائها"، فصاحت "**نابينكالي**": "لا!.. لست غضة بلهاء.. من الذي أخبرك بهذا؟.. لعله "**تولسي**"؟.. يجب أن نطرد هذا الولد. ألا افهمي أيتها الشابة أن لا سبيل لك إلى الذهاب للاغتسال أو لمقابلة أقاربك في المدينة وأنت وحيدة، طالما كنت في هذا البيت!".

وطرد "**تولسي**" فورا، وتلقى الخدم أوامر صارمة بألا يتصلوا بـ"**كمالا**"، فإذا صبرُ هذه ينفد وإذا بها لا تعود تطيق البقاء لحظة أخرى تحت سقف غريب، خاصة وأن زوجها يقيم في المدينة!.. ومن ثم أخذ نشاطها في العمل يخبو. ولم يفتْ ذلك "**نابينكالي**" فقالت: "اسمعي أيتها الشابة.. إنني لا أرتاح إلى تصرفك". فقالت "**كمالا**": "وأنا لم أعد راغبة في العمل في خدمتكم. لم أعد أطيق، فدعيني أرحل".. فصاحت "**نابينكالي**" ساخرة: "أحقا؟.. هذه عاقبة الإحسان إلى الناس في هذه الأيام!.. أتزعمين أنك براهمية صالحة!... ألا حاولي الفرار، وسوف ترين كيف يعاملك الشرطة. إن ابني "**حكمدار**"، وكم من أفراد أرسلوا إلى السجن بكلمة منه!".

*****

– ونضب معين صبر "**كمالا**"، وهي ترى أن السعادة المرتقبة أضحت على قاب قوسين منها. كان القدر يَسْخَرُ منها في قسوة! وغدا سجنها بين جدران البيت أمرا لا يُطَاق، فاعتادت أن تتسلل إلى الحديقة في الأمسيات، فتقفُ في البرد ترقُب الطريق المؤدية إلى المدينة. وكانت تقف الساعات الطويلة، جامدة، مستغرقة في التفكير، ثم لا تلبث في النهاية أن تنحني إلى الأرض في طاعة، وتدلف إلى غرفتها. بيد أن هذه السلوى الضئيلة لم تلبث أن حُرِّمَتْ عليها أيضا. فقد حَلا لـ"**نابينكالي**" ذات مساء أن تستدعيها بعد أن فرغت من عملها، فلما لم تجدها في المطبخ، بحثت عنها في كافة أرجاء البيت وقد خُيِّل

إليها أنها هربت، وصاحت تامر بإبلاغ الأمر إلى الشرطة.. ثم عثرت عليها في الحديقة، فصاحت بها: "أي سوء كنت تهمين به؟ إلى أين ذهبت؟". فقالت الفتاة: "كنت أتمشّى في الحديقة، فصبّت "**نابينكالي**" عليها جام غضبها، ولكن "**كمالا**" لم تسعدها برؤية دموعها، بل وقفت كتمثال جامد تحت سيل دافق، حتى إذا فثأت السيدة غضبها، قالت لها: "أرى أنك لست راضية عني، فخليق بك أن تسرحيني!". فصاحت السيدة: "سأفعل بكل تأكيد، ولكنني سأعلمك أولا مع من تتعاملين!".

ولم تجرؤ "**كمالا**" بعد ذلك اليوم على أن تبرح باب البيت، وأصبحت تحتبس نفسها في غرفتها، لتتعزّى بالتفكير في أن عذابها قد بلغ ذروته، ومن ثم فلن تلبث السماء أن تبعث إليها بالخلاص!

وحدث ذات مساء أن خرج "**موكوندا بابو**" للنزهة. وما لبث أن أقبل زائر توقف عند الباب الخارجي. ولم يكن حارس الباب موجودا ونادتْ السيدة على الخادم الآخر، فلم تجده. وفي تلهفها، رأت أمامها "**كمالا**"، فهتفت بها: "إن الدكتور "**ناليناكشا**" بالباب.. أسرعي وافتحي له، وأخبريه بأن زوجي قد خرج للنزهة ولن يلبث أن يعود سريعا، فليتكرم بانتظاره".

أسرعت "**كمالا**" وقد اشتدَّ وجيبُ قلبها، وتَخلْخلَتْ أوصالها، وتحولت يداها إلى كتلتين باردتين. ورفعت المزلاج، ثم أسدلت خمارها على وجهها وفتحت الباب، ودَعَتْ الطبيب إلى الدخول. وجلس "**ناليناكشا**"، سارحا في تأملاته، بينما تسلّلت الفتاة إلى ركن من الشّرفة ترقبه منه، وصدرها يتهدج بعنف، وقلبها يخفق بقوة، وقد سَرَتْ في كل جسدها رعْدة شديدة!.. وراحت تنعم النظر إليه، والدموع تفيض من عينيها دون انقطاع.. بل إنها حشدت جماع نفسها في عينيها، حتى خيل إليها أن قوة نظراتها لن تلبث أن تجذب "**ناليناكشا**" إليها! ولاح لها وكان كل شيء يتضاءل ويذوب في الفراغ المحيط بها. ولم يعد أمامها سوى وجهه المغمُور بضوء المصباح الوحيد في الحجرة.. كان هذا هو الشيء الحقيقي الوحيد، أما ما عداه فبعيد عن الحقيقة والواقع! وغابت "**كمالا**" في نوْبة استيقظت منها فَجأة لتجدَ "**نالينا كشا**" يتهيأ للانصراف وقد وقف يتكلم مع "**موكدندا بابو**".

وتسلّلت إلى المطبخ، ومنه إلى ساحة صغيرة لابد لمن يغادر الدار أن يجتازها، وراحت تنتظر وقد سرت في جسمها وعقلها وَقْدة من لهب.. كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل زوجا لتعسة بائسة مثلها؟.. كانت على محياه نفحة إلهية من جمال مهيب ووقار.. فلما تبينت "**كمالا**" أن عذابها لم يذهب هباء، وإنما كان في سبيل رجل يستحقه، راحت تنحني شكرا للسماء!.. وعندما اتجه "**ناليناكشا**" أخيرا إلى الباب الخارجي، ألفتْ نفسها ترمقه وهي تناجيه في أسلوب الشعراء: "يا مولاي، إن جاريتك مستعبَدة تحت سقف غريب، وإنك لتمرّ بها الآن دون أن تفطن إليها!".. وتسللتْ إلى الغرفة التي كان بها،

فسجدت أمام المقعد الذي كان جالسا عليه، وعفرت جبينها في التراب، وقبلت الأرض!..
ما أشدّ تعاستها إذا لم تسجد له هو!!

وعلمت "**كمالا**" في اليوم التالي أن الطبيب نصح "**موكوندا بابو**" بأن يقضي فترة استجمام طويلة، في مكان يبعد عن المدينة بمئات الأميال غربا! وفيما كانت الاستعدادات للرحلة تجري على قدم وساق، ذهبت "**كمالا**" إلى سيدتها قائلة: "ما أراني مُسْتطيعة أن أغادر "**بنارس**"، فصاحتْ "**نابينكالي**" وهي تظنّ أن الفتاة تتخذ من الدين ستارا للبقاء: "بل تستطيعين.. ما الذي جعلك توغلين في التقوى فجأة؟"..

قالت "**كمالا**": "قولي ما شئت، ولكنني سأبقى هنا.. أتوسّل إليك أن تُسرّحيني!"، فصاحت العجوز: "إنك فظيعة حقا!.. لقد أعددنا عدتنا للرحيل، فما هذا الخبل الذي أصابك بغتة؟.. كيف نستطيع أن نجد طاهية أخرى، وأنت لم تخطرينا في وقت مناسب!".. وذهبتْ توسلات "**كمالا**" أدراج الرياح، فاحتبست نفسها في غرفتها، وراحت تبكي وتصلي!

الفصل الثالث والخمسون

- في مساء اليوم التالي لحديث "**أنادا بابو**" مع ابنته بشأن الخطبة، عاودته نوبة الألم التي كانت قد أصابته في "**كلكتا**"، فقضَى الليل مُتوجعا، وإن كان في الصباح قد أحسّ ببعض الراحة، فجلس في مقعد بالحديقة، وأخذ ينظر إلى الطريق، ويغفو تحت شمس ديسمبر، بينما كانت "**همناليني**" تُعدّ الشاي. وكان وجهُه ممتقعا، مُكفهرّا من أثر العناء الذي لاقاه في ليلته، وقد أحاطتْ بعينيه هالات سوداء، وبدا وكأنما تقدمتْ به السنّ أعواما خلال الليل!.. وكانت "**همناليني**"، كلما رمقتْه، شعرتْ بالنّدم يَخزُ فؤادها. فقد عزت النوبة إلى استيائه من رفضها الخطبة. وراح ضميرها يؤنبها، واستولتْ على بالها فكرة العمل على التخفيف عنه. وفجاة، ذُهلت إذ رأتْ "**أكشاي**" مقبلا مع العمّ. وهمّت بأن تنسحب، لولا أن صاح "**أكشاي**": "أرجو ألا تنصرفي. إن هذا السيد هو مواطننا الجليل "**تشاكرا بارتي**"، من "**غازيبور**"، واسمه ذائع في كل الإقليم.. وقد جاء في أمر مهّم!".

وجلس القادمان على مقعد حجريّ بالقرب من مجلس "**أنادا بابو**"، ثم شرع "العم" يوضح مهمّته قائلا: "بلغني أنكما من الأصدقاء الحميمين لـ"**رامش بابو**" ولذا جئتُ أسأل إن كان في وسْعكما أن تمدّاني بأنباء عن زوجته!". وسلبتْ المفاجاة أنفاس "**أنادا بابو**"، حتى إذا غالب دهْشته، هتف: "زوجة "**رامش**"!".. وغضّت "**همناليني**" بصرها، بينما استطرد "**تشاكرا بارتي**" في حديثه: "قد تظنّاني جلفا عجوزا، ولكني أومن بأنكما لن تلبثا أن تتبيّنا أنني ما قطعتُ هذه الرحلة قادما من "**غازيبور**" لمجرد الخوض في سير الناس معكما!..

لقد قابلت "**رامش بابو**"، أثناء عطلات "**البوجا**"، وكان مصطحبا زوجته في رحلة على باخرة نهرية. وإنكما لتعلمان أن أحدا لا يمكن أن يرى "**كمالا**" دون أن يقع أسير سحرها!.. وكان "**رامش بابو**" مترددا بشأن المكان الذي يغادر فيه الباخرة، ولكن "**كمالا**" لم تلبث أن تعلّقت بشخصي المكتهل، وأغرت زوجها على الهبوط في "**غازيبور**" والإقامة معنا. ولست أحتمل الحديث عما جرى بعد ذلك.. لقد اختفت الفتاة العزيزة وتركتنا كسيري القلوب!".

وتملك التأثر "العم"، فسكت. ومالبث "**أنادا بابو**" أن سأل عما جرى للفتاة، فأخذ "**أكشاي**" يَرْوي القصّة كلها. وبدون أن يعلق بحرف أو يضيف حرفا، استطاع أن يُبرز تصرفات "**رامش**" في أسود إطار. ثم قال: "لَكَمْ كنا نتخبط في الظلام، إذ لم نكن موقنين من أنه متزوج من "**كمالا**"!".. والتفت إلى "العم" قائلا: "أواثق أنت يا سيدي من أنها كانت زوجته، وليست أخته أو إحدى قريباته!".. فصاح "العم": "ما الذي تعنيه يا "**أكشاي بابو**"؟ كانت زوجتَه بكل تأكيد، وكانت خيرَ زوجة يحظى بها رجل!". قال "**أكشاي**": "من الغريب أن الزوجة كلّما كانت فاضلة، كان جزاؤها سيئا؟".. فقال "**أنادا بابو**"، وهو يتخلل شعره الناحل بأصابعه: "لم يعد ثمة مجال لعمل شيء، ففيم

التحسّر؟" . وإذ ذاك قال "أكشاي" : "إنني لم أقتنع مطلقا بأن "كمالا" انتحرت، بل بدا لي من المحتمل أنها فرّت من بيتها. ولذلك جئتُ وهذا السيد نبحث عنها في "بنارس" .

وتساءل "أنادا بابو" : "وأين "رامش" الآن؟" . . . فأجاب "العم" : "لقد غادرنا دون أن يترك عنوانا" . وتحوّل "أكشاي" قائلا: "لقد علمتُ أنه عاد إلى "كلكتا" . ثم توجّه إلى "تشاكرا بارتي" يسأله أن ينطلق معه إلى المدينة ليشرعا في البحث، فسأله "أنادا بابو" : "هل ستقيم معنا يا "أكشاي" ؟" . . فأجاب: "أخشى ألا أستطيع أن أجزم بذلك، فلقد وهبتُ هذه المسألة كل اهتمامي، وسأكرّس كل وقتي في "بنارس" من أجل البحث. تصوروا حال الفتاة الرقيقة النفس. . لابد أنها وجدت الحياة في دارها لا تُطاق، فلاذت بالفرار! . . تصوروا ما قد تكون فيه الآن من عذاب!" .

*****

- وظل "أنادا بابو" طويلا يتأمل وجه ابنته في قلق، بعد انصراف الرجلين. وبذلتْ "همناليني" مجهودا جبارا لتتمالك نفسها -إذ كانت تدرك مدى قلق أبيهامن أجلها- ثم قالت أخيرا: "أرى يا أبت أنه لابد من استدعاء طبيب لفحصك اليوم، فإن أتفه الأمور يُتعب صحّتك في هذه الأيام" . . وارتاح الشيخ إذ رأى أن ابنته مازالت تهتم بصحته رغم ما سمعته عن "رامش" . فانتهز الفرصة ليقول: "هذه فكرة طيبة، ويحسن بي أن أستدعي الدكتور "ناليناكشا" فورا!" . وأجفلت الفتاة لذكر "نالیناكشا"، ولكنها تمالكت نفسها وقالت في اغتباط: "هذا أفضل، وسأبعث في طلبه" . وشجّع حال "همناليني" أباها على معالجة المسألة الشائكة، فقال لها: "بهذه المناسبة يا "هيم"، إن مسألة "رامش" . ." ولكنها قَطعتْ عليه الحديث قائلة: "إن الشمس حامية يا أبت!" . وقبل أن يجد فرصة للمعارضة، كانت قد تأبطتْ ذراعه وقادته إلى داخل الدار، فأجْلسَتْه في مقعد، وأسلمته صحيفة، ثم قالت: "سأتركك قليلا يا أبت!" . وحاول "أنادا بابو" أن يتمرّد عليها، في جهد الطفل الصغير، إذ مالبث بعد قليل أن نهض يبحث عنها، ولكنه وجد باب مخدعها موصدا، فعاد إلى الشرفة، وجلس فيها والقلق يفري أعصابه، حتى وصل الدكتور "نالیناكشا" .

وفحصه الطبيب في عناية، ثم وصف له العلاج، وتحوّل يسأل "هيم" عما إذا كان ثمة ما شغل بال الشيخ أو أقلقه في الفترة الأخيرة، وردّتْ الفتاة بالإيجاب، فقال: "يجب تجنيبه كل أسباب القلق ما أمكن. . إنني ألاقي نفس العناء مع أمي، فهي تتأثر بكل مسألة إلى درجة يصعب معها صَوْن صحتها. . إنني أحاول بطبيعة الحال أن أجعلها بمَنْجًى عن كل ما يثير الانفعال، ولكن من الصّعب تحقيق هذا في دنيانا الحافلة بالمتاعب" ، فقالت له "همناليني" : "إنك أنت أيضا لا تبدو في صحة طيبة اليوم!" ، فقال: "آه، إنني بخير. كل ما هنالك أنني ظللتُ ساهرا شطرا من الليل" . وقالت "هيم" : "من الأفضل أن تبحث عن امرأة ترعى أمك باستمرار، إذ ليس بوسعك أن تُعنَى بها كما ينبغي، فضلا عن أن عملك

يتطلّب منك جهدا" .. ولم تكن "**همناليني**" تفكر في نفسها حين قالت ذلك، ولكنها ما إن نطقتْ بالكلمات حتى فطنتْ، فتضرج وجهها حياء، إذ خطر لها أن "**ناليناكشا**" قد يُؤول قولها على غير ما قصدت. ولاحظ بدوره ارتباكها، فتذكر ما عرضته عليه أمه بصددها، ومن ثم حدّثها عن تقاليد أمه الدينية التي تجعلها تأبى أن يقوم بخدمتها أجير. ولم تصْغ "**همناليني**" إلى حديثه، إذ شغلها أمر، فما لبثتْ أن قالت: "إنني حين أعمد إلى اتباع تعليماتك لا ألبث أن أصطدم بعقبات متوالية تضطرني إلى أن أحيد عن هدفي. إنها ترهبني وتسلمني إلى اليأس!" . فقال بعد تفكير: "يجب أن تدركي أن الصّعاب لا تقوم في طريقنا إلا لتحفزنا على العمل والكفاح!" .. ورجته أن يزورها في اليوم التالي، إذ وجدت في لهجته المطمئنة الواثقة ما بعث في نفسها السّكينة المنشودة! وظلت بعد انصرافه تشعر بأن كلماته كانت بلْسَمًا لجراحها! ووقفت في الشرفة تسرح البصر في الفضاء الذي غمرته أشعة الشمس. وفي بهاء الظهيرة خُيِّل إليها أنها ترى عالم المخلوقات في نَصَب وفي استجمام، في آن واحد.. تمثلتْه مُفعما بالقوة ولكن في هدوء ودعَة.. وأحسّت بأن الشمس الحامية، والسماء ذات الصفاء الباهر، تسبغان على نفسها بركة وأمنا!

واتجهت أفكار "**همناليني**" إلى أم "**نالينا كشا**" . كان سبب هَمّ العجوز وأرقها جليا. وكانت الفتاة قد تغلّبتْ على المفاجاة، فلم تعد تجفل من تدبّر فكرة الزواج المقترح. بل إنها كانت أكثر حاجة إلى "**نالينا كشا**" عن ذي قبل، لا يشوب ولاءها له سوى وخزات قلقة يبعثها في نفسها الحب المهجور!.. وكانت تدرك أن "**نالينا كشا**" في غير حاجة –من الناحية العاطفية– إلي حب المرأة، ولكن كان في حاجة إلى خدماتها، لا سيما وقد كانت أمه مريضة ولابد لها من رعاية. ولا شك في أن خدمة رجل مثله تعتبر نوعا من التقوى والعبادة!.. ولقد كان الفصل الذي سمعته عن حياة "**رامش**" في ذلك الصباح، صدمة ساحقة اضْطُرّت إلى أن تستنجد بكل قواها لتدفع عنها وقعها. وأحسّتْ –في حالها الراهنة– بأنها لم تعد تأسى على "**رامش**" .، ولا تجد من نفسها ميلا إلى أن تحكم على أعماله. بل إن ميلا غريزيا أَوْحَى إليها بأن تُقصي عن ذهنها كل تفكير في "**رامش**" . وكانت إذا تصورتْ مصير "**كمالا**" ، ارتجفت فرقا. ثم لا تلبث أن تسائل نفسها: أية علاقة لها بحادث الانتحار التّعس؟.. ولكن الخزي، والسُخْط، والإشفاق، لا تلبث أن تتنازعها، فتضمّ راحتيها إلى صدرها وتهتف: "رباه! لماذا تُضنيني هذه الأفكار وأنا لم أرتكب ذنبا؟.. ألا خلّصني من هذه الروابط الدنيوية.. حررني منها تحريرا كاملا!" .

*****

– ومع أن "**أنادا بابو**" كان يتحرق شوقا ليعرف تأثير قصة "**رامش**" و"**كمالا**" على ابنته، إلا أنه لم يجرؤ قط على أن يمسّ الموضوع!.. على أنه حين جلس إلى جوارها في

المساء -يشرب قدحا من اللبن أُذيب فيه الدواء- وجد فرصة سانحة، إذ سأل "**همناليني**" أن تُغلق مصاريع النافذة، فسادت الحجرةَ عتمةٌ وادعة.. وإذ ذاك قال: "إن الكهْل الذي زارنا اليوم رجل طيب!".. ولم تجب، فتشجع واتخذ خطوة أخرى، فقال: "شدّ ما أذهلني مسلك "**رامش**"..."، ولكنها قاطعته في ضراعة: "دعنا من ذكره يا أبت!".. قال: "ما أردتُ أن ابحث شؤونه يا عزيزتي، ولكن القدر شاء أن ترتبط سعادتنا وتعاستنا بشخص أو بآخر، فليس بوسعنا أن نتجاهل تصرفاته!".. ولكنها صاحتْ: "لا.. لسنا نملك أن نقيم سعادتنا على أي فرد.. إنك تجعلني أشمئزُّ من نفسي يا أبت إذا كدرتُ نفسك ظنا منك أنني متأثرةبشيء!".. فقال: "لقد اكتهلت يا ابنتي، ولن أهنأ حتى أراك مستقرة في حياتك. كيف أرتاح في موتي إذا تركتك غير متزوجة؟.. إن تعرضنا للأحزان والصدمات القاسية، يجب ألا يحولّنا عما تستطيع الحياة أن تقدم لنا من أنعم أخرى!.. إنك في أساك لا تبصرين الطريق التي تؤدي بك إلى حياة سعيدة، نافعة.. ولكن، تذكري أولا أنه لا همّ لي سوى خيرك.. وإني لأعرف أين تكمن مصلحتك ورفاهيتك، فلا ترفضي الخطبة التي عرضتُها عليك اليوم!".. واختلج جفنا الفتاة، وقالت: "ما كنت لأرفض لك طلبا يا أبت، ولكن دع لي الفرصة كي أطهر قلبي من الهواجس وأهيئ نفسي!".

ومد "**أنادا بابو**" يده في الظلام، فتحسس وجنتيْ ابنته المرطبتيْن بالدموع، دون أن يتكلم!

وكان الأب وابنته يجلسان إلى مائدة الشاي، حين أقبل "**أكشاي**". وقال وهو يتقبل قدحا من الشاي: "لم نعثر بعد على أثر!.. على أن لـ"**رامش**" و"**كمالا**" بعض أمتعة لدى "**تشاكرا بارتي**" وإنه لحائر بصددها.. ولو أن "**رامش**" عرف بمكان وجودكما، لأتى إليكما، ومن ثم...". وهنا صاح "**أنادا بابو**" مغضبا: "ظننتك أكثر إدراكا من هذا.. لماذا يأتي "**رامش**" إلينا، ولماذا نحتفظ بأمتعته؟.. إنك إنما تحاول أن تستثيرنا بالدأب على ذكره يا "**أكشاي**". وإني لأطلب إليك ألا تَذْكُر هذا الموضوع مطلقا، ومهما تكن الأسباب!".

الفصل الرابع والخمسون

– وحانت الليلة السابقة على رحيل "**موكوندا بابو**"، فأخذت "**كمالا**" تتُوق إلى حادث يعطّل الرحيل! وراحتْ تصلي عَسَى أن يفدَ الدكتور "ناليناكشا" على الدار قبل الرحيل، ولكن أمنيتيها لم تتحققا!.. وكانت "**نابينكالي**" قد حرصت على أن تستبقيها تحت رقابتها، خَشْية أن تهرب خلال جلبة الاستعداد للرّحيل. وأمرتْها في تلك الليلة بأن تنام معها في غرفة واحدة، لتصطحبها في العربة التي تستقلها الأسرة إلى القطار في الصباح.

وغادر القطار "**بنارس**" في موعده، فانطلق في سرعة وضجيج، كأنه فيل هائج يعيث فسادا. وأحسّتْ "**كمالا**" كان نابيْ هذا الفيل يمزقان نفسها. وأخذت تطلّ خلال النافذة بعينين نهمتين. وعندما دَرَج القطار فوق الجسر، مالت "**كمالا**" بجذعها خارج النافذة، تُلقي نظرة أخيرة على المدينة المترامية على ضفة النهر. وصاحت "**نابينكالي**". "عجبا، ما الذي يدعوك إلى أن تشرئبي بعنقك هكذا؟... أتظنين أنك طير يستطيع أن ينشر جناحيه ويطير؟!".

واختفت "**بنارس**" عن بصر "**كمالا**"، فتهالكتْ في مقعدها تحملق في الفضاء. ومالبث القطار أن وصل إلى "**موجالسيراي**"، وكان على القوم أن يهبطوا ليستقلوا قطارا آخر إلى "**ميروت**". وخُيل لـ"**كمالا**" –وسط ضجيج المحطة وزحامها– أنها في حلم!.. وفجاة، أذهلها أن سمعت صوتا مألوفا يهتف: "أماه!".. والتفتت صوبه.. فإذا بها تَرَى "**أومش**" وقد أشرق وجهه حبورا. وقفز الصبي من عربة أحد القطارات، وارتمى عند قدميْها يتحسّس التراب تحتهما ويحسوه على رأسه في توقيرا.. وفي اللحظة التالية، تحرك القطار الذي كانت "**نابينكالي**" وحاشيتها قد استقلوه. وصرخت العجوز: "ماذا تفعلين؟.. هيا... اصعدي... لقد تحرك القطار!".. ولكن "**كمالا**" لم تكن تسمع شيئا.. والقطار ماض بسرعة مطردة، حتى غادر المحطة.

وقالت "**كمالا**": "من أين أتيت يا "**أومش**"؟".. فأجاب: "من "**غازيبور**"".. وأمطرته بالأسئلة عن القوم، وقد اغرورقتْ عيناها بالدموع.. ثم عادت تسأله: "وإلى أين ستذهب؟".. قال: "معك يا "أماه"!".. فقالت: "ولكني لا أملك شروى نقيرا".. قال: "لا تحملي هما.. إنني لم أنفق درهما من الروبيات الخمس التي أعطيتنيها!".. فهتفتْ: "إذن، هيا يا "**أومش**".. لنعد إلى "**بنارس**".. اذهب فابتع لنا بطاقتي سفر". وإن هي إلا لحظة حتى عاد بالبطاقتين، فقادها إلى القطار الذاهب إلى "**بنارس**"، وبعد أن اطمأنّ إلى استقرارها في المقصورة الخاصة بالحريم، اتخذ لنفسه مكانا في مقصورة مجاورة.

وإذ هبطا في "**بنارس**"، قالت "**كمالا**": "إلى أين نذهب؟"، فقال الغلام: "سأصحبك إلي أصلح مكان"، فهتفت في عجب: "أصلح مكان؟!".. وقال وهو يدفع بها إلى عربة:

"سترين!" . ومالبثت العربة أن استقرت بهما أمام دار، فدعاها "**أومش**" إلى الهبوط، وصاح وهو يَلجُ الدار: "أأنت هنا يا جداه؟" .. فواتاه الجواب من إحدى الغرف: "أهذا أنت يا "**أومش**"؟" .. وبرز "العم" إذ ذاك من إحدى الغرف، فأشرق محيا "**أومش**" .. وذهل الشيخ حين رأى "**كمالا**" أمامه تُبدي له آيات التوقير! وانقضتْ لحظة قبل أن يقوَى الرجل على الكلام، ولكنه لم يفقه ما بدر منه. ومالبث في النهاية أن أمسك بذقن "**كمالا**"، ورفع وجهها الصغير نحوه، وهتف: "ها قد رُدّتْ ابنتي الصغيرة إليّ!" . ثم صاح بأعلى صوته: "**سايلاجا**" "**سايلاجا**"!.. تعالي!" .. وأقبلت "**سايلاجا**" تطلّ من الطابق العلوي، ثم طوت درجات السلم. وانحنت "**كمالا**" ومست قدميها، فضمّتْها "**سايلاجا**" إلى صدرها، وقبلت جبينها، ثم قالت والدموع تنساب من عينيها: "يا عزيزتي!.. كيف تتركيننا هكذا؟.. أما عرفت أن عملك قد حطّم قلوبنا؟" .. وفي اللحظة التالية أقبلتْ "**أومي**" تهزّ ذراعيها وتصرخ في غبطة: "خالتي! خالتي!"، فاختطفتها "**كمالا**" بين ذراعيها، وضمّتها إلى صدرها، وأغرقتها بالقبلات.

وكانت "**سايلاجا**" قد أصرّتْ على أن تصحب أباها، حين أخذ برأي "**أكشاي**" ووافق على أن يصحبه إلى "**بنارس**"، وفيما كانوا يهبطون من القطار، لمحوا "**أومش**" يهبط خلفهم، إذ كان قد تسلل إلى القطار ليرافقهم خلسة. ولكن الأب وابنته مازالا به حتى قبل أن يعود إلى "**غازيبور**" . بيد أن الصبي لم يطق بقاء هناك، لا سيما و"**كمالا**" ليست في البلدة، فما لبث أن استغلّ النقود التي كان "العم" قد منحه إياها، في العودة إلى "**بنارس**" .. فكان هذا اللقاء!

الفصل الخامس والخمسون

- اقبل "**أكشاي**" لزيارة "**تشاكرا بارتي**" في اليوم التالي، فلم يقُلْ له أحد شيئا عن عودة "**كمالا**"، إذ كان "العم" قد بدأ يحدس كراهية الشاب لـ"**رامش**". ولم يسأل أحد "**كمالا**" عن سبب هربها، ولا اين كان ملاذها، وكان مجيئها إلى الأسرة أمرا طبيعيا بعد غياب عادي!.. ودَعتْ "**سايلاجا**" "**كمالا**" في تلك الليلة إلى ان تشاطرها مخدعها، وضمّتها في أحضانها، وراحت تمسح رأسها في رفق وحنان. مما هفا بأعصاب "**كمالا**"، فشرعت تروي لها سرّها: "لستُ أدري لمَ لَمْ أستطع ان أروي لك القصة من قبل؟!.. لم أكن إذ ذاك أقدر تطور الأمور، فلقد جاءتني الصدمة بغتة، فشعرت بأن ليس في وسعي أن أواجهكم ثانية!.. لقد حرمت من ابي وأمي يا "**ديدي**"، ولكنك لي أم وأخت، ولهذا أراني على استعداد لأن أروي لك ما لم أكن لأرويه لأي مخلوق!".

واستوت "**كمالا**" جالسة في الفراش، فَحَذَتْ "**سايلاجا**" حَذْوها. وراحت الأولى تروي قصتها مذ تزوجتْ. وعندما ذكرت كيف أن الرجل الذي وقعت بين يديه عقب نجاتها من الغرق، والذي ظنته زوجها، لم يكن زوجها البتّة، حملقت فيها "**سايلاجا**" في دهشة، وأحاطت عنقها بذراعها، قائلة: "واها لك يا مسكينة!.. الآن فهمت كل شيء!.. ولكن، ألم يفطن "**رامش بابو**" إلى الحقيقة؟".. فقالت "**كمالا**": "في ذات يوم - بعد الزواج بمدة- ناداني باسم "**سوسيلا**"، فقلت له: "لم تدعوني "**سوسيلا**"، وأنا أُدعَى "**كمالا**"؟". واني لأدرك الآن انه فطن إلى الأمر".

وانتزعت "**سايلاجا**" القصة كلها منها، قطعة فقطعة، حتى إذا فرغت "**كمالا**" منها، قالت "**سايلاجا**": "إنه لأمر فظيع بالنسبة لك يا عزيزتي، ولست أملك إلا أن أرى أنك كنت محظوظة حين وقعت بين يدي "**رامش بابو**" دون سواه.. لَكم أنا آسفة لحال ذلك الـ"**رامش بابو**" المسكين!".

وكانت "**كمالا**" ما تزال تحتفظ بالخطاب الذي كان "**رامش**" قد كتبه لـ"**همناليني**". فلمّا أفضت "**سايلاجا**" لأبيها بالقصة في الصباح التالي، قرأ الخطاب في إمعان، ثم وضعه في ظرف، وخلع نظارته عن عينيه، وقال لابنته: "وما الذي ينبغي عمله الآن؟".. فقالت: "لقد اصيبت "**أومي**" ببرد في الليلة الماضية، وأحب أن أدعو الدكتور "**ناليناكشا**"، فإن المرء يسمع كثيرا عنه وعن أمه في "**بنارس**"!".

واقبل الطبيب، ففحص الطفلة.. وأظهرت "**سايلاجا**" تلهفا إلى رؤيته، وهتفت بـ"**كمالا**" كي تصحبها، ولكن "**كمالا**" التي لم تقو على مقاومة شوقها إلى رؤيته في دار "**نابينكالي**"، لم تقو في هذه المرة على رؤيته لفرط حيائها!

*****

- وفي ذات يوم، سَعَى "العم" بنفسه إلى دار الطبيب، متخيرا وقتا لا يجده فيه هناك. والتمس رؤية أم "**نالينا كشا**"، فلما اقتيد إليها، قَدَّمَ إليها نفسه قائلا: "إن المرء ليسمع عنك في "**بنارس**" كثيرا يا أماه، ومن ثمّ جئتُ ألتمس حظوة لقائك. إن لي حفيدة مريضة، وقد جئت أنشد ابنك، فإذا هو غير موجود، ولم أردْ أن أنصرف قبل أن أرفع إليك احتراماتي". وارتاحتْ إليه "**كشمنكاري**"، فدعته إلى الجلوس ريثما يعود ابنها.. وقالت: "يجب أن تأتي غدا لتتناول الغداء هنا، إذ إنني غير متاهبة لاستضافتك اليوم!"، فقال "العم": "أرجو ألا تنسي الشيخ المائل أمامك، حين تكونين في حاجة إليه.. بوسعي أن أصحب خادمك فأريه داري... وهي جد قريبة من هنا". وبعد عدد من الزيارات، أصبح "العم" من أصدقاء الأسرة المترددين على البيت!

وظل الأب وابنته يرسمان خطتهما بدقة وحذر، إلى أن كان ذات صباح، إذ قال "العم" لـ"**كمالا**": "هيا يا فتاتي، يجب أن نذهب للاغتسال فاليوم عيد "**دساسواميد**".

وتخلّفتْ "**سايلاجا**" عن مرافقتهما متعللة بتوعك ابنتها. حتى إذا آن لهما أن يعودا، سلك العم بـ"**كمالا**" طريقا غير التي سلكاها في المجيء. والتقيا في تلك الطريق بالسيدة العجوز عائدة من النهر، ترفل في غلالة من الحرير، وتحْمل جرّة مليئة بماء "**الجانجز**"، فاعترض العم طريقها وقال لـ"**كمالا**": "هذه أم السيد الطبيب يا عزيزتي، فحييها!".. وأجفلت الفتاة مأخوذة، ثم سجدتْ عند قدميْ "**كشمكاري**"، ومستْ الغبار العالق بهما، فهتفت السيدة: "يا عجبا!.. من هذه؟... يا لجمالها!".. وانزاح النقاب عن وجه "**كمالا**". وسألتها العجوز: "ما اسمك يا عزيزتي؟". وقبل أن تجيب "**كمالا**"، قال "العم": "اسمها "**هاريداسي**" وهي ابنة ابن عم لي، فقدت أبويها فكفلتها!"

ودعتهما إلى دارها. وهناك قال "العم": "أحبّ أن أذكر لك أن قريبتي هذه كانت منحوسة الحظ. ففي صبيحة يوم زواجها، زهد زوجها الدنيا، وفارقها فلم تره منذ ذلك الحين. وقد اعتزمت أن تكرّس حياتها للعبادة في أحد الأماكن المقدسة. ولكنني لا أقيم هنا، ولا أستطيع أن أستغني عن عملي في "**غازيبور**". ولهذا أسألك أن تسدي لي صنيعا. لسوف أزيح عن رأسي عبئا يشغلني، إذا استطاعتْ أن تمكث معك وتغدو ابنة لك. فإذا سئمت يوما عشرتها، فرديها لي في "**غازيبور**". ولكنني أؤكد لك أنك لن تلبثي أن تتبيني -خلال يومين- أنها كنز غال، ولن تُطيقي فراقها لحظة واحدة!".. فهتفت السيدة: "هذا اقتراح طيّب، فكَمْ من مرة سرني أن ألتقط الغريبات من الطريق فكنتُ آتي بهن لأمنحهنّ الكساء والقوت، ولكني لم أكن أستطيع استبقاءهن معي. أمَا وقد أسلمْتَني "**هاريداسي**"، فلا تحمل لها هما. ولابد أنك سمعت عن تقوى ابني.. وليس سوانا يقيم هنا!".. فقال العم: "كل إنسان سمع عن "**نالينا كشا**"، وإني لمغتبط من صميم فؤادي إذ أعرف أنه مقيم معك. لقد سمعتُ أن زوجته غرقت بعد زواجهما، وأنه يعيش ناسكا!".

وعندما انصرف "العم"، أدنت "**كشمنكاري**" الفتاة منها قائلة: "دعيني أنظر إليك..

إنك طفلة.. أي زوج غبي هذا الذي فارقك!.. إني لأدعو أن تردّه إليك السماء، فإن القدر لم يخلق مثل جمالك ليذهب هباء.. إنك لن تجدي لدات من سنك هنا، فهل تطيقين العيش معي وحيدة؟".. فقالت "**كمالا**" وعيناها الجميلتان تفيضان بالرضا: "أجل يا أماه.. ولسوف أؤدي لك كل الأعمال!".. وإذ ذاك هتفت السيدة: "أهكذا؟!".. وتحولتْ تحدثها عن زهد ابنها، وأنه لا يسرّ خاطرها مرة بطلب نوع من الأكل، ثم قالت: "إذا كنت ستقضين ساعات اليوم الأربع والعشرين معي، فدعيني أنذرك مقدما بانك لن تلبثي أن تسأمي سماعي وأنا أتغنى بمديح ابني. ولكن عليك أن تحتملي!"

وسالتها إن كانت تعرف الحياكة، فقالت "**كمالا**": "إلى حد ما".. قالت السيدة: "سوف ألقنك دروسا في ذلك.. وهل تجيدين القراءة؟". فقالت "**كمالا**": "أجل.. كذلك تعلمت الطهو والتدبير المنزلي". وأحسّت بان أمامها فرصة لكي تُرضي رغبة تملّكتْ فؤادها فهمستْ: "ألا دعيني أقوم بالطهو اليوم يا أماه!".. فابتسمت "**كشمنكاري**" قائلة: "إن مخزن المؤن والمطبخ هما مملكة الزوجة الصالحة". ومن ثمّ انهمكت "**كمالا**" في أعمال المطبخ، بينما آبت العجوز إلى الغرفة التي أعدتْها لتتعبد فيها.

وكان من عادة "**ناليناكشا**" -إذ ما عاد إلى البيت- أن يبادر إلى رؤية أمه قبل كل شيء، إذ كانت صحتها شغله الشاغل. فما إن دخل الدار في ذلك اليوم، حتى أنبأه أنفُه وأذناه، بأن الطهو يجري على قدم وساق في المطبخ، فظنّ أن أمه هناك، وسعى فوقف في مدخل المطبخ. وانتبهت "**كمالا**" إلى وضع قدميه، فالتفتت، وإذا بها تجد نفسها وجها لوجه مع "**ناليناكشا**"، فتركت المغرفة من يدها وحاولت أن تُرخي القناع على وجهها، ولكنها أخفقت... بينما استدار "**ناليناكشا**" وانصرف.

*****

– لم يمض وقت طويل حتى فرغَتْ "**كشمنكاري**" من عبادتها، وعادتْ إلى المطبخ، فإذا "**كمالا**" قد فرغت من الطهو، ونظّفتْ المطبخ تماما. وعندما أُعدّ الطعام. جلس "**نالينا كشا**" وأمه إلى المائدة، بينما وقف شخص صغير، منفعل، يتسمع خارج الباب. وسمعت "**كمالا**" "**كشمنكاري**" تقول: "ما رأيك في الطعام اليوم يا "**نالين**"؟".. ولم يكن "**نالينا كشا**" نهما بطبعه، ولا كانت الأم قد عرفت أن ابنها قد علم بوجود فتاة غريبة في المطبخ، وأنه سُرّ لذلك، إذ كان دائما يسعى لإغراء أمه على استخدام طاهية، بعد أن ضعفت قواها. ولم يتمالك الشاب أن قال: "إن الطعام رائع يا أماه!".. ولاذت "**كمالا**" بأقرب غرفة، وعقدتْ ذراعيها على صدرها تحاول أن تُخفّف من تهدّجه. ومالبث "**نالينا كشا**" أن لاذ بغرفة مكتبه، فعكفتْ أمه على تنسيق شعْر "**كمالا**"، في فترة ما بعد الظهر، ثم راحت تدير رأسها يمنة ويسرة، تتأمل منظرها، و"**كمالا**" في درجة من الخجل لا تقوى معها على التطلع. وأرسلت السيدة العجوز زفرة حرّى، وهمست لنفسها: "آه،

ليتني أجد لابني زوجة مثلها!".

في تلك الليلة، اقترح "**نالينا كشا**" على أمه أن ترافقه بعيدا عن "**بنارس**" بضعة أيام للاستجمام، ولكن "**كشمنكاري**" هتفت: "لا يا بني.. إنني لا أضمن أن أعيش أياما، ولا أريد أن أقضي آخر عمري في مكان غريب!".. ثم التفتت إلى "**كمالا**"، قائلة: "أسرعي يا عزيزتي إلى غرفتك، ولا تضيعي شيئا من وقت النوم. وأنت يا "**نالين**".. إلى غرفتك، فقد آن لك أن تنام!".. ولكن "**كمالا**" ظلّت حتى أسلمت العجوز إلى سريرها، وجلست تدلّك لها قدميْها. وقالت السيدة: "ما الذي فعلت لأكون جديرة بهذا؟.. لقد فُطرت بحيث لا أطيق أن يخدمني غريب، ولكن لمستك تبعث القوة في كياني!.. ما أغرب أن أحسّ بأنني عرفتُك منذ سنوات، فلستُ أراك غريبة عني!.. والآن، هيّا إلى فراشك يا عزيزتي، ولا تحفلي، فإن مخدع "**نالين**" لصق مخدعي، وهو لا يسمح لأحد غيره بالسهر على أمه.. فمن فضائله وميزاته أنه يستطيع أن يقضي الليل ساهرا، وأن يحتمل كافة المتاعب، دون أن يبدو عليه أثر لذلك. أحسبك ستضحكين في قرارة نفسك لأنني لا أكف عن الحديث عنه.. ولكنه ابني الوحيد. بل إنني إخال أحيانا أنه أبي، وأنني عندما أكبر سأستطيع أن أجزيه عن كل ما يفعله من أجلي!".

وعكفتْ "**كمالا**" في اليوم التالي على أعمال البيت. وعندما دخل "**نالين**" حجرة مكتبه في الصباح، وجدها رائعة النظافة، وقد أُزيل الغبار عن الكتب التي رُتّبتْ على الأرفف بعناية. وكشفتْ أشعة الشمس المنْسَابة عن مدى نظافة أرض الغرفة. كذلك وجدت "**كشمنكاري**" -عند استيقاظها- أن "**كمالا**" تجثم في انتظارها، حاملة جَرّة من مياه "**الجانجز**"، فهتفت بعد أن غسلت وجهها: "هل ذهبت إلى النهر وحيدة يا عزيزتي؟.. إنك صغيرة وما ينبغي.."، فقالت "**كمالا**": "لقد عجز أحد خدم عمي يا أماه عن أن يكبح نفسه عن المجيء لزيارتي ليلة أمس، فاصطحبته إلى النهر".. وكان ذلك "الخادم هو "**أومش**"، الذي سُرّت السيدة العجوز لمرآه فسمحت لـ"**كمالا**" بأن تستبقيه في البيت ليساعدها في أعمالها. وهكذا استطاعت "**كمالا**" أن تفرغ من أعمال البيت مبكرة بمساعدته. ثم تحوّلتْ فجمعت ثياب "**نالينا كشا**" المتسخة فغسلتها وجفّفتها ونسّقتها.

*****

– أقبلت "**همناليني**" -بعد ظهر ذلك اليوم- تحمل باقة من الزهور، فانحنت راكعة لـ"**كشمنكاري**"، التي جلستْ في فراشها قائلة: "تعالي يا "**هيم**".. اجلسي.. هل "**أنادا بابو**" بخير؟"، فأجابت الفتاة: "كان متوعكا أمس، ولهذا لم أستطع الحضور، ولكنه تحسّن اليوم".

وتحوّلت السيدة العجوز تعرفها بـ"**كمالا**"، قائلة: "إنك لتعرفين يا عزيزتي أن أمي ماتت في طفولتي، وها هي ذي قد بُعثت بعد كل هذه السنين، فالتقيْتُ بها في الطريق بالأمس،

على غير توقع! .. لقد كان اسمها "**هاريباجيني**"، فاتخذت في تقمصها اسم "**هاريداسي**" .. أرأيت من قبل مثل هذا الجمال يا "**هيم**"؟" .. ونكّست "**كمالا**" رأسها في استحياء، ولم تستطع أن تتخلص من خجلها في حضرة "**همناليني**" إلا بعد وقت. وسألت "**همناليني**" السيدة عن صحتها، فأجابت: "إن المرء إذا بلغ ما بلغتْ من السن، لم تعد ثمة حاجة للسؤال عن صحته. والواقع أنني قانعة بأني مازلت على قيد الحياة، ولكني لن أستطيع أن أخدع الزمن طويلا! .. وبهذه المناسبة، أحبّ أن أتحدث إليك في أمر طال ترقبي الفرصة الملائمة لمفاتحتك فيه. هل ذكر لك أبوك الاقتراح الذي عرضتُه عليه منذ أيام؟" .. فأجابتْ "**همناليني**" وقد غضت بصرها: "أجل، ذكره لي".

فقالت "**كشمنكاري**". "ولكنك علي ما يبدو لم توافقي يا عزيزتي، لأن "**أنادا بابو**" لم يوافني بردّ. لقد حسبت "**نالين**" ناسكا يقضي نهاره وليله مستغرقا في العبادة، فشعرت بأن لا قبل لك بالزواج منه. والواقع أن من لا يعرفه يظنه عاجزا عن الحب، ولكن الناس يخطئون في هذا.. إن عواطفه لعارمة، ولهذا فهو دائما يحرص على السيطرة على مشاعره! . إنك لست طفلة يا عزيزتي "**هيم**"، بل إنك فتاة مثقفة، وقد ارتحت إلى تعاليم "**نالين**"، وإني لأموت راضية إذا وجدتك مستقرة في بيته! .. صارحيني يا عزيزتي، ما الذي لا يروق لك منه؟" .. فقالت "**همناليني**" وهي تغض بصرها: "ليس لدي اعتراض إذا رأيتني صالحة له يا أماه!".

وإذ ذاك ضمّت "**كشمنكاري**" الفتاة إليها، وطبعت قبلة على جبينها ثم التفتت إلى "**هاريداسي**"، ولكنها لم تجد لها أثرا. فقد تسللت الفتاة من الحجرة وهما تتحدثان. وما إن انصرفت "**همناليني**"، حتى استدعتْ السيدة العجوز "**ناليناكشا**"، وهنأتْه وتقبّل الشاب النبأ في هدوء، وهو يرجوها ألا تنفعل، وأن تستسلم للنعاس. وإذ خرج، نادت السيدة "**كمالا**"، وأسلمتها الزهور التي أحضرتها "**همناليني**"، فوضعتْ بعضا منها في آنية للزهور على مكتب "**ناليناكشا**"، كما وضعت بعضا آخر في مخدعه، ووضعت الباقي على نعلين كانا في صوان ملابسه، ثم ركعت أمامهما، والدموع تنحدر من عينيها، وهي تفكر في أنها لن تعود تملك أن تعبد.. حتى النعلين! .. وفجأة، سمعت وَقْع قدمي "**نالينا كشا**" فأسرعت تغلق الصوان، والتفتت، فإذا به لدى الباب. وتمنت لو أنها ذابت في أشباح الليل المقبل! .. أما هو، فقد تحوّل عن الغرفة فجأة حين رآها. وإذ غادرتْها "**كمالا**" مسرعة، فأسرع بدوره إلى الصوان يحدوه الفضول إلى معرفة ما كانت تفعل. وما إن أبصر النعلين وقد غطتهما الزهور اليانعة، حتى تحول إلى النافذة، وكأنه يريد أن يعب من آخر أشعة الشمس المحتضرة!

الفصل السادس والخمسون

- اخذت "همناليني" -بعد أن وافقت على الزواج من "نالينا كشا"- تحاول أن تقنع نفسها بأنها كانت سعيدة الحظّ، وشرعتْ تحاول التحرر من الماضي وأشجانه. وداخلتها السكينة التي تعقب اختتام فصل من فصول الحياة البشرية. حتى إذا عادت إلى دارها في ذلك المساء، كانت تشعر براحة سابغة. ووجدت أباها قد أوَى إلى مخدعه مبكرا، فاوتْ بدورها إلى غرفتها، وعكفت -حتى ساعة متأخرة- على تسجيل مشاعرها في مذكّراتها، فكتبت: "كنت قد قطعتُ كل الروابط الإنسانية، واعتبرت نفسي ميتة بالنسبة للدنيا، وما خطر لي قط أن الله قد ينقذني ويكتب لي حياة جديدة!".

وكان "أنادا بابو" و"همناليني" يهمان بمبارحة دارهما -بعد ظهر اليوم التالي- قاصديْن إلى دار "نالينا كشا"، حين أقبلت على الدار عربة يقودها أحد خدم "نالينا كشا"، فهبطت منها "كشمنكاري". وأسرع "أنادا بابو إلى استقبالها، فبادرته قائلة: "لقد جئت أبارك ابنتك!".. وأحاطت معصميْ الفتاة بزوج من الأساور الذهبية الثقيلة، فركعت "همناليني" عند قدميها، وإذ ذاك احتضنت السيدة وجهها بين يديها، وطبعتْ قبلة على جبينها.

وفي الصباح التالي، جلس الأب وابنته في الحديقة يتناولان الشاي والشيخ في أقصى درجات الغبطة، يتأمل وجه ابنته، ويخال أن روح زوجته المتوفاة قد هبطتْ على الفتاة وخفّفت من فورة الفرح لديها، بمسحة من وجوم!.. وفجاة، وقفت عربة أمام الباب الخارجي، وقد ظهرت فوقها بعض الحقائب. فصاحت "همناليني": "هذا "جوجن" ولابد!".. وخفت إلى الباب، فإذا "جوجندرا" يهبط من العربة، بادي البشر والسرور،، وسألته وهو يحييها في مودة: "هل معك أحد؟"، فضحك قائلا: "أجل، لقد أحضرت هدية عيد الميلاد لأبي!".. وبرز "رامش" إذ ذاك من العربة، فعندما وقع بصر "همناليني" عليه نكصَتْ على عقبيْها وأسرعت بالدخول. وأسرع "جوجندرا" خلفها يناديها، ولكنها لم تحفل به.

ووقف "رامش" حائرا، فارتدّ إليه "جوجندرا" قائلا: "تعال يا "رامش"، فإن أبي يجلس في الحديقة". وتأبط ذراعه، وقاده إلى "أنادا بابو". ولم يصدق الشيخ عينيه.. وأخذ يتمتم لنفسه في استياء: "ها هي ذي عقبة جديدة!".. وانحنى "رامش" أمام الشيخ، فدعاه هذا إلى مقعد، وقال لابنه: "جئت في موعد مناسب يا "جوجن"، فقد كدتُ أبرق لك".. وهتف الابن: "لماذا؟"، فقال الشيخ: "لقد اعتزمنا تزويج "همناليني" من "نالينا كشا".. قال "جوجندرا": "أتقصد أنكم اتخذتم قرارا نهائيا يا أبت؟.. أما كان ينبغي أن استَشَار في الأمر؟.. فقال الأب: "إن أحدا لا يعرف لك قولا يا "جوجندرا".. ألم تكن مُتحمّسا لهذا الزواج؟". قال الشاب: "هذا حق، ولكن دع الماضي.. إن لديّ حديثا طويلا، فاسمعني.."، فقال "أنادا بابو" وهو ينهض عن مقعده: "سأسمعه فيما بعد، فإنني و"هيم" مدعوان لتناول الفطور لدى أم "نالينا كشا".

الفصل السابع والخمسون

- كانت "**كشمنكاري**" قد قالت لـ"**كمالا**" في اليوم السالف: "لقد دعوتُ "**همناليني**" وأباها لتناول طعام الفطور غدا، فماذا نعتزم أن نقدم إليهما؟.. على أنني أعرف أنك طاهية بارعة يا عزيزتي.. ما سمعت قط ابني يبدي رأيا في الطعام، ولكنه لم يجد -أمسّ- العبارات التي يطري بها طعامَك!.. ولكن، لم لا تبدين مُشرقة الوجه يا عزيزتي؟".. فاغتصبت "**كمالا**" ابتسامة وهي تقول: "إنني بخير يا أماه، فشكرا!". ولكن "**كشمنكاري**" هزّت رأسها قائلة: "بل أراك مهمومة من أجل أمر ما. لا داعي لأن تكتمي عني.. لا تعتبريني غريبة عنك يا عزيزتي فإني أعتبرك ابنة لي!".. ولما عجزتْ السيدة العجوز عن حَمْلها على الكلام، قالت: "قد يكون من الخير أن تذهبي لعمّك فتمكثي لديه بضعة أيام، ثم تعودي إن شئت!"، فصاحت "**كمالا**" في لوعة: "أماه!.. طالما أتيح لي أن أمكث معك، فلستُ بحاجة إلى أن أرى في الدنيا سواك!".. فربّتت العجوز خدها قائلة: "هذا مما يجعلني أزداد اعتقادا بأنك كنت أمي في حياتك السابقة يا عزيزتي!".

وأوت "**كمالا**" إلى غرفتها في تلك الليلة، فاطفأت المصباح، وأغلقت الباب، وجلست على الأرض تفكر في الظلام. وانتهت بها أفكارها إلى هذه الصيغة: "لن أستطيع أن أواصل رعايته، إذ كانت السماء ستحرمني هذا الحق. يجب أن أروّض نفسي على اليأس منه، وأن أقنع بأن أؤدي له خدمة بين آن وآخر. فلْيَهبني الله القوة على أداء هذه الواجبات بوجه باسم!.. ومن الغد، يجب أن أتخلص من حسرتي وألا أبدو مطلقا شقيّة. لن أسمح أبدا لزفرة حزينة بأن تنبعث من صدري. سأقنع بأن أخدمه طوال أيام حياتي، ولن أطمع في مزيد أبدا... أبدا... أبدا!".

وأخذت تردد هذه العبارة وهي تتقلب في فراشها. حتى إذا أسفر الصباح، نهضت مستجمعة كل ما لديها من قوة الإرادة، وهي لا تزال تردّد العبارة. وأسرعت تغتسل في "**الجانجز**"، حتى إذا عادت، سعت إلى "**كشمنكاري**" بوجه باسم، فهتفت السيدة: "لماذا بكرت وسبقتني إلى النهر؟"، فقالت: "لم يكن بوسعي أن أتلكأ يا أماه، فهناك عمل كثير لإعداد الفطور للضيوف". وخرج "**ناليناكشا**" من غرفته إذ ذاك، فقالت له أمه: "أخارج أنت الآن؟.. إذن لا تتأخر في الخارج!"، فسألها: "ولماذا يا أماه؟".. قالت: "لقد نسيت أمس أن أنبئك بأن "**أنادا بابو**" قادم ليباركك!"، فقال: "ليباركني؟ كيف أصبح مباركا إلى هذه الدرجة فجأة؟"... فصاحت به: "لقد ذهبت أمس فأهديت "**همناليني**" سوارين وباركتها، وهو قادم بدوره ليباركك، فلا تتأخرا".. وسار "**ناليناكشا**" خافض الرأس، مستغرقا في التفكير!

الفصل الثامن والخمسون

- عندما فرّت "همناليني" من أمام "رامش"، أوت إلي حجرتها، وأوصدتْ بابها خلفها. وساءلت نفسها بعد أن غالبت انفعالها: "لماذا عجزت عن أن أقابل "رامش بابو" دون أن أفقد جلدي؟.. لماذا أقدمتُ على هذا التصرف المؤسف عندما حدث الشيء الذي لم يكن مُرتقَبا؟". ونهضتْ، فاستجمعتْ جاشها، وخرجت لتقابل "رامش بابو" وقد عوّلت على أن تصْمد للموقف. ثم تذكرتْ أمرا، فعادت إلى غرفتها وأحاطت معصميها بالسوارين اللذين تلقتهُما من "كشمنكاري"، وهبطت إلى الحديقة، ولكن "رامش" و"جوجندرا" كانا قد انصرفا.. فتاهبت لمرافقة أبيها إلى دار "نالينا كشا".

ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف حين بلغا الدار. ولم يكن الطبيب قد عاد بعد، فتولت "كشمنكاري" استقبالهما والحفاوة بهما. وأدهشها ألا ترى الفتاة بالغة الابتهاج في ذلك الصباح، فأثقل وُجوم "همناليني" استبْشار السيدة العجُوز، إذ خُيّل إليها أن الفتاة غير راضية عن الزواج من ابنها، وأنها ترى نفسها أهلا لمن هو أفضل منه!.. وأفلت منها عنان الحديث في غَمْرة أفكارها. وفجْأة ألفتْ نفسها تقول: "لا داعي هناك للتعجيل بالزفاف، فهما في سن يستطيعان أن يقررا فيها شؤونهما، ولا يليق بنا أن نوجههُما. ولست أدري بالطبع ما تشعر به "هيم" إزاء هذا الأمر، ولكنني أستطيع أن أقول إن "ناليني" لم يرض نفسه تماما على تقبل الفكرة بعد!".. وكان كلامها مُوجّها إلى "همناليني" أكثر منه إلى أبيها، فقد رأتها موزعة البال، فشاءت أن تشعرها بأن ابنها لم يطرْ فرحا بالزواج المرْتقب!

والواقع أن "همناليني" كانت قد أقبلت في ذلك الصباح وهي تغتصب الابتهاج اغتصابا، ولكنها لم تكد تجتاز عتبة دار "كشمنكاري"، حتى دهمها ذُعْر طارئ، وبدتْ لها الطريق الجديدة -التي وجهت إليها حياتها- مليئة بالصخور، والمفاوز. وعندما أبدت السيدة العجوز فتورها نحو الزفاف، استولى على الفتاة شعوران متضاربان. فقد رأت -من ناحية- أن التعجيل بالزواج يتيح لها التحرّر الذي تنشده من حالها الراهنة، ومن تشتت بالها، وحيرتها! ولكنها -من ناحية أخرى- وجدت راحة في الإشارة إلى احتمال العدول عن المشروع! وكانت العجوز ترمُقها من طرف خفيّ، فخُيّل إليها أن أسارير الفتاة اكتست هدوءا وطمأنينة عقب قولها ذاك، فإذا قلبها يقسُو عليها، وقالت لنفسها: "لقد أوشكت أن أبيع ابني الحبيب بثمن بخْس!". وسرّها أنه تأخّر عن الحضور، فتحولّت إلى "همناليني" قائلة: "هكذا هو "نالينا كشا".. إنه يعرف تماما أنكما قادمان اليوم، ومع ذلك فلم يبد له أثر". ثم تعللت بتفقّد العمل في المطبخ، وغادرت الضيفين وقد اعتزمت أن تستدعي "كمالا" لتشغل بها "همناليني"، ريثما تخلو إلى الشيخ في حديث خاص.

ووجدت "كمالا" قد فرغتْ من إعداد الطعام وَجلستْ في ركن من المطبخ، وقد

استغرقتْ في التفكير، إلى درجة أنها ذُعرت حين فطنت إلى وجود السيدة العجوز، فقفزتْ من مكانها وهي تبتسم في ارتباك. وسألتها السيدة: "لماذا تجلسين هنا واجمة يا عزيزتي؟.. إن "**هيم**" هنا، وأرى أن تصحبيها إلى غرفتك فتجاذبيها الحديث، حتى لا تضجر من حديث عجوز مثلي!".. وأحسّت السيدة بعد هذه العبارة بأن الفتور الذي بدا على "همناليني" قد ضاعف من عطفها على "**كمالا**". وقالت هذه مراوغة: "ولكني لن أجيد الحديث معها، فهي متعلمة وأنا لا أعرف شيئا!".. فصاحتْ العجوز: "ماذا تعنين؟.. إنك لا تقلّين عنها شأنا. ومع ذلك، فإن اللاتي يفخرن بتعليمهن كثيرات.. أما اللاتي أوتين مثل جمالك، فقليلات!".. وعقدت "**كشمنكاري**" عزمها على أن تظهر جمال "**همناليني**" باهتا إلى جوار الجمال الغض الذي أُوتيَته هذه الفتاة غير المتعلمة، فقادتها إلى غرفتها، وخلعت عليها ثوبا من الحرير الأصفر، وعقصتْ لها شعرها على أحدث نسق، وتأملتها طويلا، ثم طبعت على خدّها قبلة وهي تقول: "لعمري، إن لك من الجمال ما يرشحك لقصْر ملك!". حتى إذا فرغت من تزيينها، قالت لها: "هيّا بنا الآن يا عزيزتي، ولا تخجلي. إن فتاة الجامعة لن تلبث أن تشعر بالغيرة إذا رأتك. ارفعي رأسك عاليا أمامها!

*****

- وكان "**ناليناكشا**" قد وصل في تلك الأثناء، واندمج في حديث مع الضيفين. وما إن رأته "**كمالا**"، حتى استدارت تهمّ بالفرار، ولكن أمه أمسكت بها قائلة: "ليس ثمّة ما يدعوك للخجل يا عزيزتي!".

وراحت "**كشمنكاري**" تغبط نفسها على جمال الفتاة، وتُمنّي نفسها بأن ترى أثَره على الآخرين.. فإن ما خالته من فتور لدى "**همناليني**"، أيقظ الأمومة في أعماقها، فرأت في إظهار الفارق بين الفتاتين نوعا من الثأر لما اعتقدته إهمالا نحو ابنها من ضيفتها!.. وبالفعل، أذهل جمال "**كمالا**" الحضور!.. وشعرت "**كشمنكاري**" بالفوْز.. فما كان أحد ليرى "**كمالا**" دون أن يؤمن في قراره نفسه بأن جمالها هبَة من هبات الله. ومالبثت السيدة أن قالت لها: "خذي "**هيم**" إلى غرفتك، وساعدّ المائدة بنفسي". وكانت لحظة حرجة لـ"**كمالا**". فقد راحت تسائل نفسها عما قد يكون راي "**همناليني**" فيها، وهي التي لن تلبث أن تدخل الدار زوجة لـ"**ناليناكشا**"، وسيدة للبيت! وأبت أن تُقرّ نفسها على أنها هي السيدة الشرعية للبيت!.. وأخذت أوصالها ترتجف وهي تبرح الغرفة مع "**همناليني**"، التي راحت تقول لها في لطف: "لقد عرفت كل شيء عنك من الأم، وأرجو أن تعتبريني أختا لك يا عزيزتي! إنني لم أحظ بأخت، وقد ماتتْ أمّي في طفولتي. وكم من مرة تمنيتُ لو كان لي أخت أبثّها ما في نفسي، سواء في سعادتي أو في حزني"!

وتطرقتْ في الحديث إلى الزواج، فسألتها عمّا كان عليه زوجها. ولم تشأ "**كمالا**" أن تجيب على السؤال مباشرة، بل قالت: "ما عرفتُ أنني يجب أن أذكره يا أختاه!.. وعندما ذهبت للعيش في دار عمي، توثقت الصلات بيني وبين ابنة عمي "**سايلاجا**"، فرأيتُ بنفسي كيف تكرّس حياتها لزوجها، وإذ ذاك تفتحت عيناي إلى ما ينبغي على الزوجة نحو زوجها. إنني لم أرَ زوجي حقا، ولكني مع ذلك تعلمتُ كيف أحبه بكل قلبي. ولقد كافاني الله على هذا الولاء، إذ أصبحت أتمثل في ذهني صورة لزوجي. إنه لم يَحْظَ بزوجة في شخصي -في الواقع- ولكني أرى الآن أنني قد عثرتْ على زوجي!".. ووجد ولاؤها هذا استجابة من قلب "**همناليني**" التي قالت: "إنني أفهم ما تعنين.. إن الحصول على الشيء بالطريقة التي ذكرتها هو الفوز الحقيقي.. أمّا أي نوع آخر من الزواج، فمجرد علاقة مادية لا يمكن أن تدوم!".. فأطالت "**كمالا**" النظر إليها لمدة دقيقة أو اثنتين، ثم قالت: "إنني لا أحزن لفقده الآن، فأنا جدّ سعيدة، أرى فيما حصلتُ عليه جزاء حقا!".. فقالت "**همناليني**": "إن أستاذي يقول: إنه إذا استوى الكسب والخسارة لدى المرء، فهذا هو الكسب الحق!. لو أنني حصلت على قدر ما لديك من قناعة ورضا لكنت مجدودة حقا أتعلمين يا عزيزتي أن قلبي كان مثقلا اليوم، ولكن الهمّ زال عنه مذ رأيتك، وأصبحت أشعر بأنني أستردّ قواي النفسية!".

الفصل التاسع والخمسون

– عندما عادت "**همناليني**" من دار "**كشمنكاري**"، وجدتْ على مائدة غرفة الجلوس مظروفا سميكا يحمل اسمها بحروف عرفت فيها خط "**رامش**"، فتسارعت دقات قلبها، وحملت المظروف إلى مخدعها، حيث أغلقت الباب، وأقبلت تقرأ محتوياته، فإذا "**رامش**" قد أفضي إليها بكل قصته مع "**كمالا**"، دون أن يكتم شيئا، واختتم رسالته بقوله: "لقد فَسَخَتْ الظروف ذلك الرّباط الذي وصلت السماء به حياتي وحياتك، وها قد منحت قلبك لرجل آخر، ولست ألومك مطلقا على ذلك، ولكن يجب ألا تلوميني أيضا. ومع أنني و"**كمالا**" لم نعش يوما كزوجين إلا أنني أرى أن أعترف لك بأنني كنت أميل إليها مع مرور الزمن. ولست أدري بالضبط حقيقة مشاعري اليوم، ولكن قلبي كان خليقا بأن يجنح إلى مرفأ حبك، لو لم تنبذيه. وبهذا الأمل هرعتُ إليك في حيرتي وأشجاني، فلمّا سمعت أنك قبلت الزواج من رجل آخر، عاودتني كل هواجسي وحيرتي، ووجدت أنه ليس بوسعي أن أنسى "**كمالا**"، ولكن أحدا في الدنيا لن يتعذب لذلك سواي. أما إنني أتعذب فلأنني لن أنسى المرأتيْن الوحيدتين اللتين قُدّر لهما أن تعمرا قلبي، وستظلّ ذكراهما مبعث سعادة لا تقدّر لي، طوال حياتي.. ومن ثمّ فإنني أودعك وأنا قرير البال، فشكرا لك ولها، وشكرا للقدر الذي يجعلني لا أحسّ شقاء في ساعة الفراق هذه. وإني لأتمنّى لك كل سعادة وهناء، وأرجو ألا تقسي عليّ في تفكيرك، لأنني لم أرتكب ما يدعوك لهذا!".

وانزعج "**أنادا بابو**" حين رأى "**همناليني**" تدخل عليه فجاة، فسألها: "أأنت بخير يا "**هيم**"؟".. قالت: "أجل يا أبت. لقد تلقيتُ خطابا من "**رامش بابو**".. وناولتْه الخطاب، فقرأه، ثم أعاد قراءته وكانت. "همناليني" قد عادت إلى غرفتها، فأرسله لها مع خادم، وجلس يفكر. ومالبث أن قال لنفسه: "لا بأس!.. إن "**نالينا كشا**" خيرٌ من "**رامش**"!".. وفي اللحظة التالية، أقبل "**نالينا كشا**" بالذات. وعجب الشيخ مما دفع بالشاب إلى المجيء. وقبل أن يُرسل في استدعاء ابنته، بادره "**نالينا كشا**" قائلا: "هناك مشروع لزواجي من ابنتك يا "**أنادا بابو**"، على أنني أريد أن أروي لك –قبل أن نسير خطوة أخرى في هذا الصدد– حديثا لابد لك من أن تعرفه!".. وعجب الطبيب حين أجابه "**أنادا بابو**" بأنه يعرف قصّة زواجه الأول، فقال: "المهم أنكم تعتبرون زوجتي الأولى في عداد الأموات، ولكن ليس ثمة ما يؤكد ذلك، بل إنني أعتقد أنها على قيد الحياة.. وهتف الشيخ وقد أومض في ذهنه خاطر: "أسأل السماء أن يكون هذا حقيقة.. "**هيم**"!... "هيم"!...". وأقبلت الفتاة ملبية نداءه، فقال لها: "أين الخطاب الذي كتبه إليك "**رامش**".." فدفعت إليه الخطاب. وناوله بدوره إلى "**نالينا كشا**" وحين قرأه هذا بإمعان، سلبه الذهول كل مقدرة على الكلام!.. ومالبث –بعد فترة واجمة– أن نهض منصرفا. ولمح في طريقه "**همناليني**" واقفة في الشرفة، فإذا منظرها يسترْعي انتباهه، وساءل نفسه: "كيف تقف

هكذا هادئة، في الوقت الذي يجب أن يكون قلبها في مهب العاصفة!.. وحدثته نفسه بأن يذهب إليها فيواسيها، ولكن قلبه الحائر هتف به: "لا.. إن الحواجز التي تقوم بين نفس بشريّة وأخرى لا يمكن اخْتراقها.. يا للْوحدة الرهيبة التي تحيط بالنفس!".. وتعمّد أن يمر أمامها وهو في طريقه إلى عربته، فإذا بها تبادر إلى دخول الغرفة، فقال لنفسه: "ليس من اليسير لنفس أن تلتقي بنفس أخرى، فإن الرابطة التي تقوم بين إنسان وآخر من أشد الروّابط تعقدا!".. وسار إلى عربته بقلب مُثقل!

*****

– ولم يكد "**ناليناكشا**" ينصرف، حتى أقبل "**جوجندرا**"، فهتف أبوه حين رآه: "أَعُدْتَ وحيدا يا "**جوجن**"؟.. وأين "**رامش**"؟"، فأجاب الشاب: "إن لقاء مثل الذي استقبلتماه به كفيل بأن يجعله يدرك لنفسه قدرها، ولست أدري ماذا فعل، اللهم إلا أن يكون قد فاز بالراحة الأبدية، بأن ألقى نفسه في "**الجانجز**". إنني لم أره ثانية، ولكنه ترك لي قصاصة قال فيها: "إنني راحل –"**رامش**"!.. إنني لم أقوَ قط على استمراء هذه المأساة العاطفية، وسأرحل أنا الآخر!".. فصاح "**أنادا بابو**": و"**هيم**".. يجب أن تقررّ...". ولكن "**جوجندرا**" قال: "ما الذي بوسعي أن أفعله، وأنتما تحرصان على أن تفسدا كل قرار أتخذه، أرجو ألا تقحماني في الأمر مرة أخرى. لسوف أرحل في صباح غد، وسأعرج في الطريق على "**بانكيبور**".

ولم يجد "**أنادا بابو**" ما يفعله سوى أن يَمْسح رأسه، وأن يتخبط في أفكاره. كانت دنياه مليئة بألغاز عليه حلها!

الفصل الستون

– ذهبت "**سايلاجا**" مع ابيها إلى بيت "**ناليناكشا**"، بعد يومين أو ثلاثة وجلست "**سايلاجا**" مع "**كمالا**" في إحدى الغرف الجانبية، وأخذتا تتهامسان بينما استغرق "**تشاكرا بارتي**" في الحديث مع "**كشمنكاري**"، فقال لها: "لسوف أعود إلى "**غازيبور**" غدا، فإذا كانت "**هاريداسي**" تضايقك.."، وصاحت السيدة: "هانت ذا تعود ثانية لهذا الموضوع. ما الذي ترمي إليه يا سيدي العزيز؟.. أهي حيلة لتسْترد ابنة ابن عمك؟.. لقد كنت صريحا معي حتى الآن، وأصارحك بأنه ليس أشهى على النفس من أن يحظَى المرء بربّة بيْت شابّة مثل "**هاريداسي**"، و...". فقال "**تشاكرا بارتي**": "حسنا، لنكفّ عن هذا الموضوع.. إنها كانت حيلة مني لأسمع مديح "**هاريداسي**" على لسانك. بقي أمر واحد يشغلني، هو أن "**نالينا كشا بابو**" ربما وجدها مبعثا لضيقه والحد من حريته في البيت. ثم إنها مرهفة المشاعر، ولو أن "**نالينـاكشـا**" أبدى أتفه ما ينم عن غضب، لحزّ ذلك في قلبها!"، فصاحت السيدة: "عجبا!.. أيغضب "**نالين**"؟.. إنه لا يملك أن يغضب". فقال العم: "أصبْت!.. ولكني كما تعلمين شديد الحب لـ"**هاريداسي**"، ومن ثمّ لا يسهل عليّ أن اطمئن إلى حالها. وليس يكفيني أن تقولي ان "**نالين**" لا يغضب قط، وأنه سيتجاهل الفتاة فلا يحسّ بوجودها مطلقا. لن أهنأ حتى أعرف أنها –في مقامها بهذه الدار– تشعر كما لو كانت هي وهو فرديْن في أسرة واحدة!. إنها ليست قطعة من أثاث، وإنما هي كائن بشري.. فإذا هو تجاهل وجودها...".

فقطعت عليه "**كشمنكاري**" استرساله قائلة: "لا تشغل بالك يا سيديْ العزيز. لن أتردد في أن أؤكـد لك أن "**نـالـين**" يعدّها من أفراد الأسرة، وليست العبرة بالاهتمام الظّاهري، فأنا واثقة من أنه بحث أمر هناءتها وراحتها. وليس من المستبعد أن يكون قد اهتمّ بعمل أشياء من أجلها، دون أن ندري!". فقال "**تشاكرابارتي**": "يسرني أن أسمعك تقولين هذا. ومع ذلك فإني أرى أن اتحدث مع "**ناليناكشا بابو**" على حدة قبل رحيلي. إن الرجال الذين يحملون مسؤولية سعادة امرأة ما، قليلون في الدنيا!.. وإذا كانت السماء قد أنعمتْ على "**ناليناكشا بابو**" بهذه الشيمة التي تدل على رجولة حقة، فأحبّ أن أوصيه بأنه ينبغي في البداية الا يُبقي "**هاريداسي**" بمنأى عنه، تحت سلطان الحياء الكاذب، وإنما يجب أن يعتبرها ويعاملها كعضو حقيقي في الأسرة!".

وبعثت هذه الثقة –من الشيخ– بـ"**نالينـاكشـا**" شعورا من الزهو في صدر أمه، فقالت: "بل إنني كنت أخشى ألا تقرّ اختلاطهما فكنت أستبقي "**هـاريـداسـي**" بمعـزل عن "**نالينـاكـشا**" إذا ما كان في البيت، وإن كنت أعرف ابني، وأثق في رجاحة عقله!"، فقال "**تشـاكـرا بارتي**": "إذن، سأصارحك بما في ذهني. لقد سمعت أن "**نالينـاكـشـا بابو**" سيتزوج، وأن عروسه أكبر سنا مما ألفنا أن تكون عرائسنا عليه، كما أنها أوفر ثقافة..

لذلك ظننتُ أن "**هاريداسي**".." . فقطعتْ عليه الحديث قائلة: "إنني أقدّر هذا... لابد أن ثمة داعيا يدعوك للقلق في هذا الصدد، ولكن هذا الزواج لن يتمّ!" .. وصاح الشيخ: "هل فُسخَتْ الخطبة؟" ، فأجابت: "إنها لم تقم حتى تفسخ.. لم يكن "**نالين**" راغبا فيها على الإطلاق، وكنت أنا التي أستحثّه، ولكنني عدلتُ عن الضغط عليه... إذ لا جدوى من دفع الناس إلى مالا يحبون.. وقد أفارق الحياة دون أن أراه متزوجا!" .. وصاح "**تشاكرا بارتي**" : "لا تتحدثي هكذا" .. قالت: "إن "**نالين**" يكبر مع السنين، وقد أكربني أن أشعر بأن عدم زواجه راجع إليّ أنا، ومن ثم اندفعتُ -في عجلة- أبحث له عن عروس، دون أن أجيل البَصَر حولْي أولا، وأتأمل، وأفكرا" . وقال الشيخ: "لسوف تقرّي عينا بشريكة حياته، وإني لأعرف النوع الذي يروق لكما.. ليست صغيرة جدا، ولكنها قادرة على أن تؤدي واجباتها، وعلى أن تطيع.. دعينا نبحث عن عروس من هذا النوع ولا تشغلي بالك! والآن اسمحي لي بأن أوصي "**هاريداسي**"قبل انصرافي، وسأرسل لك "**سايلاجا**" تؤنسك" .. فقالت العجوز: "بل تحدثوا ثلاثتكم معا، وسوف أؤدي أنا بعض الأعمال" .

*****

– ووجد "**تشاكرا بارتي**" الفتاتيْن معا، والدموع تترقْرق في عينيْ "**كمالا**" . وبادرته "**سايلاجا**" قائلة: "كنت أقول لـ"**كمالا**" يا أبت إن الوقت قد حان للإفضاء لـ"**نالينا كشا بابو**" بكل قصتها، فإذا بها تثور علي!" .. فهتفتْ "**كمالا**" : "لا يا "**ديدي**" .. أتوسل إليك ألا تفضي بشيء!" .. وصاحت "**سايلاجا**" : "يالك من رعناء!.. كيف تجلسين ساكنة وتتركين "**نالينا كشا بابو**" يتزوج من "**همناليني**" ؟.. لقد عانيت منذ زواجك أفظع التجارب، حتى أوشكت أن تلاقي حتفك، فكيف تريدين أن تتحملي عذابا جديدا؟" .. وهنا قال "**تشاكرابارتي**" : "حسنا، ليتَبارك الإله، فإن الزواج الذي ذكرته لن يتم.. لا تخشي شيئا يا عزيزتي "**كمالا**" ، فقد انتصر الحق!" .. وحمْلقتْ فيه "**كمالا**" ، عاجزة عن أن تفقه ما كان يعني، فعاد يقول: "لقد فُسخَتْ الخطبة، لا لأن "**نالينا كشا**" لا يوافق عليها فحسب، وإنما لأن الأم أيضا عادت إلى رشدها!" .. فهتفت "**سايلاجا**" في صوت متهدج: "لقد نجونا يا أبت!.. إنني لم أنم الليل بعد أن علمتُ بنبأ الخطبة. ومع ذلك، فهل ستظل "**كمالا**" تعيش غريبة في البيت الذي هو بيتها شرعا؟" .. فقال أبوها: "لا تتعجلي الأمور يا "**سايلاجا**"" .

وقالت "**كمالا**" : "ولكنني قانعة بالوضع الحالي، ولا أبغي تبديله.. أرجوك يا عمّي العزيز ألا تنبئ أحداً بشيء. كل ما عليكما هو أن تتركاني في رُكن من البيت وتنسياني.. فأنا سعيدة بهذا!" .. وتدفقت الدموع من عينيها، فأخذ "**تشاكرابارتي**" يواسيها. وفي هذه الأثناء، اندفع "**أومش**" إلى الغرفة مبتسما وقد فغر فمه عن آخره، فسأله العم عما

هناك، وإذ ذاك قال الصبيّ: "إن "رامش بابو" في الطابق الأرضي يسأل عن السيد الطبيب".

وغاض الدم من وجه "**كمالا**"، وقفز العم قائلا: "لا تنزعجي يا عزيزتي، سأهبط وأسوّي الأمر معه". وهبط السّلم، فتناول ذراع "**رامش**" قائلا: "تعال نتمشى يا "**رامش بابو**"، فإن لي معك حديثا.. وصاح "**رامش**" في دهشة: "من أين أتيت يا عمّاه؟".. قال: "إنما أنا هنا من أجلك، وكم يسُرّني أن قابلتُك. تعال، فلابد من أن نسوّي هذا الأمر قبل فوات الوقت". وجر الشاب إلى الحديقة، ثم سأله: "ما الذي أتى بك إلى هذه الدار يا "**رامش بابو**"؟".. قال "**رامش**": "جئت أسعى للقاء "**ناليناكشا**"، فقد قرّرْتُ أن أصارحه بكل شيء عن "**كمالا**"، لأنني لا أكفّ عن الاعتقاد بأنها على قيد الحياة!". فقال الشيخ: "وهَبْ أنها على قيد الحياة، وأن "**ناليناكشا**" التقى بها، فهل من الخير أن يسمع القصة من فمك أنت؟.. إن له أما عجوزا، وقد يشُقّ على "**كمالا**" لو أن السيدة عرفت الحقيقة!".. فقال "**رامش**": "إنما أردت أن يعرف "**ناليناكشا**" أن ليس على "**كمالا**" ظلّ من شك أو لوم.. فإذا كانت غادرت الحياة، فإن شهادتي ستجعله يقدّس ذكْرَاها!".

وصاح العم: "عجبا يا أبناء العصر لتفكيركم. إذا كانت "**كمالا**" قد ماتت، فلستُ أرى داعيا لأن تزعجه بذكراها، لاسيما وأنه لم يكن زوجا لها لغير ليلة واحدة. أترى البيت القائم هناك؟.. إنني أنزل فيه، فإذا جئتني صباح غد، رويت لك كل شيء. على ألا تسعى للقاء "**ناليناكشا بابو**" قبل ذلك!".. ثم عاد العم إلى "**كمالا**"، فقال لها: "أريدك أن تأتي لدارنا صباح غد، فقد اعتزمتُ أن أجعلك توضحين الموقف لـ"**رامش بابو**" بنفسك.. إنني أؤمن بأن هذا هو الحلّ الأخير، فإن شباب اليوم لا يراعون قيم الماضي وأساليبه. لا تحفلي يا عزيزتي، إذ لا ينبغي أن تَدَعي سواك يَسْتَحلّ حقوقك، ومن حقك أن تتوليْ الإيضاح بنفسك!".. ولم ترفع "**كمالا**" بصرها عن الأرض، بينما استطرد الشيخ: "لقد طهرنا الأرض، فلا تتردد في كنس العقبات القليلة الباقية!".

*****

– وسمعتْ "**كمالا**" في تلك اللحظة وقع قدميْ "**ناليناكشا**"، فرفعت بصرها، فإذا "**ناليناكشا**" واقف في فراغ الباب. والتقت عيناها بعينيه، فلم يبادر إلى الإشاحة بوجهه كما كان يفعل في المرات السابقة! ولم تدم النظرة لأكثر من لحظة، ولكنها بدت وكأنها كانت تضُمّ وجه "**كمالا**" بدلا من أن تقصيه كما كان الحال من قبل!.. ولمح "**ناليناكشا**" في اللحظة التالية "**سايلاجا**"، فهمّ بأن يتراجع، لولا أن صاح به العمّ: "لا تهرب يا "**ناليناكشا بابو**"، فنحن نعتبرك واحدا منا. هذه ابنتي "**سايلاجا**"، التي عالجْتَ أنت ابنتها منذ أيام".. وانحنت له "**سايلاجا**"، فرد التحية متسائلا عن الطفلة. وقال الشيخ: "إنك لا تتيح لي مطلقا فرصة للشّبع من صحبتك، فلتدعْ لي هذه الفرصة الآن!". وحَمَله

على الجلوس، ثم التفت فإذا "**كمالا**" قد تسللت من الحجرة.

كانت نظرة "**ناليناكشا**" قد بعثتْ في نفسها مالا قبل لها باحتماله من الدهْشة والفرح، فسعتْ إلى خلوة تستوعب فيها المفاجأة على مَهَل!.. وأقبلتْ "**كشمنكاري**" في تلك اللحظة تدعو "**تشاكرابارتي**" إلى أن يعود لمجالستها في غرفة الجلوس، فصحبها مع "**ناليناكشا**". وما إن وصلوا إلى الغرفة، حتى قال العم لصاحبيه: "سالحق بكما سريعا".. وغاب دقيقة أو اثنتين، ثم عاد ممسكا بيده "**كمالا**"، تتبعهما "**سايلاجا**". وشرع "**تشاكرابارتي**" يقول: "يجب ألا تعامل ابنتنا "**هاريداسي**" كما لو كانت غريبة يا دكتور.. إن كل ما تنشده "**هاريداسي**" هو أن تتاح لها الفرص لتخدمكما معا، ولن ترتكب قط خطأ عن عمد!" فصاحت "**كشمنكاري**": "لا داعي لأن تقلق يا سيدي الجليل، لقد أنزلنا "**هاريداسي**" منزلة الابنة في دارنا، ولم يعدْ لي مكان في المطبخ ومخزن المؤن اللذين ظللت كل هذه السنين لا أفرط فيهما!.. بل إن الخدم لم يعودوا يعتبرونني سيدة الدار! إن "**هاريداسي**" قد سلبتني كل سلطاني، فأي شيء آخر ترجوه لهذه السارقة؟.. فأجاب "**ناليناكشا**": "وأنتما بدوركما فرضتما عليها سحرا أنساها وجود أي امرئ سواكما في الدنيا.. يا للمسكينة، لقد عانت أوقات عصيبة، وآن لها أخيرا أن تطمئن!".. واغرورقت عيناه.

وكان "**ناليناكشا**" ينصتُ في صمْت وهو شاردُ الفكر. فلما انفضّ الجمع، سار في تثاقل إلى غرفته. وكانت شمس ديسمبر تجنح للمغيب فتملأ الحجرة بفيض من الضوء الأرجواني الشبيه بحمرة الخجل على وجه عروس!.. وكانت "**كمالا**" قد بثّت له الورد في أرجاء الغرفة، فإذا أرجوانية الشمس وعبير الورد يثيران أحاسيسه. لقد ظلّ طيلة السنين الماضية يرى الدنيا عالم زهْد وتقشّف، أما الآن، فقد خُيّل إليه أن أذنيه تفعمان بأنغام أخذت تتردد في الكون كله، يخالطها صليل الصناعات (الصاجات) في أيدي راقصات مستترات!.. وتحوّل "**ناليناكشا**" عن النافذة، فوقع بصره على الورود المنسقة عند رأس سريره، فبدت له كعيون تتطلع إليه في رجاء صامت مسّ أبواب قلبه. وأمسك بوردة لم تتفتح أكمامها، وقد بدا لونها ذهبيا غير براق وإذ أخذ يداعبها بأنامله، خُيّل إليه أنها تستجيب له بملمس بشري، فسرَتْ في جسمه رعشة، وضمّ الوردة إلى شفتيه، ثم مس بها جفنيه!.. وعندما همّ بأن يغادر الحجرة، سار إلى السرير فرفع الغطاء، ووضع الوردة على الوسادة. وعندما رفع رأسه، وقع بصره على شبح منكمش في أحد الأركان. كانت "**كمالا**"، وقد غاب وجهها في طيّات خمارها، وأوشكت ان تنهار على الأرض حياء فلقد كانت في الغرفة عند مقدمه، فلم تجد فرصة للتسلل ومن ثمّ ظلت منزوية في أحد الأركان والحياء يكاد يخنقها؟.. وأسرع "**ناليناكشا**" نحو باب الغرفة ليعفيها من خجلها. ولكن فكرة خطرتْ له حين بلَغ الباب، فتوقف لحظة متردّدا، ثم استدار نحو "**كمالا**" قائلا: "انهضي... لا تخجلي مني!".

الفصل الحادي والستون

- ذهبت "كمالا" في الصباح التالي إلى منزل العمّ. وما إن سنحت لها فرصة حتى انتحت بـ"سايلاجا" جانبا، فسألتها هذه: "ما الذي يسعدك اليوم يا حبيبتي؟".. فقالت الفتاة: "لست أدري يا "ديدي"، ولكنني أشعر كان متاعبي قد انتهت!.. إنني أشعر أنه قد صار رجلي الآن بالفعل! لقد أشفقت عليّ السماء أخيرا!".. قالت "سايلاجا" مداعبة: "ما ينبغي أن تخفي عني أمرا". فقالت "كمالا": "لستُ أخفي شيئا يا "ديدي". لقد خُيّل إليّ -عندما استيقظتُ اليوم- أن الحياة أصبحت تحمل معنى جديدا لي. شعرتُ أني أكثر هناءة، وأني لا أطمع في مزيد! كل ما أخافه الآن هو أن أفقد ما حصلت عليه!".

وأقبل العمّ عند هذا الحد من الحديث، فقال لـ"كمالا": "يجب أن تأتي الآن لحظة يا عزيزتي، فإن "رامش بابو" هنا". وكان العم قد تحدّث إلى "رامش" عند وصوله في ذلك الصباح، وقال له: "إنني أعرف حقيقة علاقاتك بـ"كمالا" ونصيحتي لك أن تبدأ الحياة من جديد وأن تنفض يديْك من هذه المسألة، وإذا كانت ثمّة مشكلة باقية فدعْها للقدر يحلّها، ولا تحاول أنت أن تعالجها!".. فاعرب "رامش" عن أنه إنما أراد أن يروي القصة كلها لـ"ناليناكشا"، ليبرئ "كمالا" من أي ريب، وليُرضي ضميره. وهنا ذهب "العم" لينادي "كمالا" -كما أسلفنا- فوقف "رامش" في النافذة يسرحُ بصره في المارة وهو شارد الذهن، حتى سمع وقع أقدام، فالتفت. خلفه ورأى فتاة تنحني أمامه مُحيّية، حتى إذا رفعت رأسها، صاح مأخوذا: "كمالا"!.. وقال العم: "شكرا للسماء يا "رامش بابو"، لقد انقضت متاعب "كمالا" ونَحْس طالعها.. لقد انقذتها أنت حين كانت معرّضة للأخطار، فجلبت لنفسك التعاسة!.. أما وقد آن لكما أن تفترقا، فإنها لم تشأ أن تصمُت على ما هي مدينة لك به، فجاءت تودعك!.. وجاهد "رامش" حتى انبعث صوته من حلقه قائلا: "ليباركك الله يا "كمالا". اغفري لي ما قد أكون ارتكبتُ من أخطاء فطنتُ لها أو صدرتْ عفوا!".. فاستندتْ "كمالا" إلى الجدار، ولم تنبس ببنت شفة واستطرد "رامش" بعد لحظة: "إذا كان ثمة سوء تفاهم أستطيع أن أجلوه، فليس عليك سوى أن تأمريني!".. فضمّت "كمالا" راحتيْها إلى صدرها وقالت: "أرجو الا تنبس بكلمة لأحد". قال: "لقد ظللتُ زمنا طويلا لا أبوح لأحد بكلمة عنك، ومكثتُ صامتا، حتى عندما كان الصمت سببا في تعاستي. ولم أرو قصتك إلا منذ أيام قلائل، حين اطمأننتُ إلى أنك بمأمن من كل سوء. وحتى إذ ذاك، لم أروها إلا لأفراد أسرة واحدة. وأعتقد أن هذا لن يضرّك في شيء، بل أعتقد أنه قد ينفعك فإن العمّ يدرك كل شيء. أما "أنادا بابو" وابنته..."، فقال العم: "هل سمعا القصة؟"، قال "رامش": "أجل، وإذا كان ثمة شيء آخر تحبان أن أضيفه لهما، فأنا على استعداد لأن أفعل. امّا من ناحيتي، فلست أرجو شيْئا. لقد فقدتُ قطعة من حياتي. ومن عواطفي!.. وكل ما أصبو إليه الآن هو أن أتخلص من أي شيء يثقل

ضميري!".

فشدّ العمّ على يده قائلا: "لا يا "**رامش بابو**".. لسنا نطمع في شيء منك. لقد تعذّبت كثيرا، بل أكثر مما تحتمل، وإني لأدعو السماء أن تجعل حياتك منذ الآن سعيدة لا تعترضها المتاعب أو الهموم.

قال "**رامش**": "سأفارقكم الآن".. وتحوّل نحو "**كمالا**"، فلم تفتح فمها، ولكنها انحنتْ أمامه في احترام. وانطلق "**رامش**" في طريقه وكأنه في حلم، وقد راح يردّد لنفسه: "إنني مغتبط لأني قابلت "**كمالا**"، فإن هذا اللقاء خير ختام للفصل الذي انقضى. والآن، لم يعد هناك من يحتاج إليّ، ولا من يريدني. فلأنطلق في الحياة، ولأشقّ طريقي.. ولا ضرورة لأن ألتفت إلى الماضي كي أنظر إليه!".

الفصل الثاني والستون

– وجدت "**كمالا**" –حين بلغت البيت– أن "**أنادا بابو**" و"**همناليني**" كانا يجلسان مع "**كشمنكاري**". وقالت السيدة العجوز بمجرد أن رأتها: "ها هي ذي "**هاريداسي**".. ثم التفتت إليها قائلة: "هلا اصطحبت صديقتك إلى غرفتك يا عزيزتي ريثما أقدم الشاي لـ"**أنادا بابو**"!.

وما إن أصبحت الفتاتان في غرفة "**كمالا**"، حتى تحوّلت "**همناليني**" فطوقتْ عنق صاحبتها، وضمّتها إليها هاتفة: "**كمالا**"!.. فسألتها "**كمالا**" دون أن تُبدي أية دهشة: "كيف عرفت أن هذا اسمي؟".. فقالت "**همناليني**": "لقد روَى لي شخص ما كل قصتك.. وما إن سمعتها حتى أيقنت أنك أنت "**كمالا**"، وإن لم أدر كيف أبرر يقيني!".. وعندئذ قالت "**كمالا**": "لا أحب أن يعرف أحد اسمي، فإن اسمي الحقيقي هو مبعث أساي!".. فجادلتها "همناليني" قائلة: "ولكنه يساعدك على إثبات حقوقك!".. وهنا هزت "**كمالا**" رأسها، وقالت: "لستُ أنظر للأمر من هذه الناحية.. ليستْ لي حقوق أثبتها، ولا أنا راغبة في أية حقوق!".. فصاحت "**همناليني**": "ولكن، أي مبرر لديك في أن يبقى زوجك في الظلام؟.. لماذا لا تصارحينه بكل شيء؟.. ما ينبغي لك أن تكتمي عنه شيئا!".

وغاض الدم من وجه "**كمالا**" دفعة واحدة، وتطلّعتْ إلى "**همناليني**" في حيرة وعجز، وكأنما كانت تبحث في محياها عن ردّ، دون أن تجد. واستندتْ إلى السرير تتشبث به، ثم قالت: "لا يعلم إلا السماءُ سرّ ما بي من خجل، على أني لم أرتكب ذنبا، فلماذا أتلقّى القصَاص وأنا بريئة؟.. كيف أجسر على أن أروي له قصتي بأسرها؟".. فتناولتْ "**همناليني**" يدها، وقالت: "إنه ليس قصاصًا، وإنما هو اختبار وتطهير. على أنك الآن مقيّدة بأغلال غير حقيقية، ولن تتحرري حتى تُطْلِعِي زوجك على كل شيء... فتوكلي على القدر وحطمي أغلالك!".

وقالت "**كمالا**" في حيرة: "إن ما يستلّ قواي هو الخوف من أن أفقد كل شيء الآن. على أنني أدرك ما تعنين. يجب ألا أخشى ما يخبئه لي القدر، وأن أقصّ كل شيء عليه.. هو، إذ لا ينبغي أن يبقى في الظلام بعد الآن!". وضمّتْ يديها إلى صدرها في حزم وعزيمة. فسألتها "**همناليني**" مداعبة: "وماذا كنت ترجين إذن؟.. أكنت راغبة في أن يتولى سواك مصارحتَه؟".. ولكن "**كمالا**" هزت رأسها بقوة، وقالت: "لا، لا.. يجب ألا يسمعها من أحد سواي. أنا التي سأخبره بنفسي، فلا تظنيني عاجزة!".. فقالت "**همناليني**": "هذا أفضل.. لست أدري إن كنا سنلتقي مرة أخرى، أو لن نلتقي.. فقد جئت لأذكر لك أننا راحلون!".. فسألتها "**كمالا**": "إلى أين؟"، قالت: "إلى "**كلكتا**". والآن، ما أرى أن أشغلك طويلا، فلديك أعمال الصباح تنتظرك، ولذلك يحسن بي أن

أنصرف يا عزيزتي. ولا تنسي أنني أخت لك!".

وامسكتْ "**كمالا**" يدها، وقالت: "لسوف تكتبين لي.. أليس كذلك؟".. فوعدتْها "**همنالينى**" بذلك... وعادت الفتاة تقول: "يجب أن تكتبي لي، وأن تنصحيني في أمري.. فإني أعتقد أن خطاباتك ستكون مبعث تشجيع لي!". وابتسمتْ "**همنالينى**" قائلة: "آه، حسنا. ولكنك ستعاشرين من هو أسلم مني مشورة ونُصْحا!".

*****

– ولم يرتحْ بال "**كمالا**" إلى حال "**همنالينى**".. كانت رغم الهدوء الظاهر عليها، لا تتمالك من الإتيان ببعض حركات تنمّ عن حزن دفين مما أثار، حنان "**كمالا**" وإشفاقها. ولكن "**همنالينى**" كانت تحيط نفسها بجو يجعل المرء يتردد في مفاتحتها، ويحجم عن سؤالها. ومع أن "**كمالا**" فضفضَتْ لها عن كل ما كان في صدرها في ذلك الصباح، إلا أن "**همنالينى**" غادرتْ الدار وهي ملتفة في عين التحفظ والتكتم اللذين أقبلتْ بهما. كانت تكسر محياها مسْحة من حُزن روحي رفيع، بدا بالنسبة لمحياها كشفق دائم على قسماتها!

وظلت كلمات "**همنالينى**" العذبة، وعيناها الهادئتان، تلاحق "**كمالا**" طيلة يومها، كلما فرغت من أحد أعمالها. لم تكن تعرف عن ماضي "**همنالينى**" شيئا، اللهم إلا حقيقة واحدة، هي أن خطبتها إلى "**ناليناكشا**" قد فُسخَتْ.

وكانت "**همنالينى**" قد أحضرت معها في الصباح سلّة مليئة بالزهور، فجلست "**كمالا**" -بعد أن اغتسلت في الأصيل- وأخذت تنسّق عقودا من تلك الزهور، و"**كشمنكاري**" لا تكفّ عن الحديث: "أواه!.. ليس بوسْعي يا عزيزتي أن أصف ما خالجني من شعور حين ودعّتني "**همنالينى**" اليوم. ومهما يقال، فإنها فتاة لطيفة حقا. إنني لا أملك نفسي من التفكير فيما كنت أستشعره من سعادة لو أنها تزوجت من ابني. لا أحد سواه يعرف السرّ في تحوله عنها!". والظاهر إن "**كشمنكاري**" كانت لا تقوى على أن تصارح نفسها بانها قامت بنصيب كبير في فسخ الخطبة!

وانبعث وقع قدميْن في الخارج، فصاحت السيدة العجوز: "أهذا أنتَ يا "**نالين**"؟".. وأسرعت "**كمالا**"، تلفّ الزهور والعقود في طرف ثوبها، وتسدل الخمار على وجهها. ودخل "**نالينا كشا**" الحجرة، فقالت له أمه: "لقد رحلتْ "هيم" وأبوها.. ألم ترهما؟".. فأجاب: "بل قابلتهما حين انصرفا من هنا. فرافقتهما إلى دارهما في عربتي". قالت الأم: "قُلْ ما شئت يا فتى، ولكني لا أعتقد أن في الدنيا كثيرات مثل "**هيم**"!". وكانت تتكلم وكان "**نالينا كشا**" لا يرى رأيها، ولا يكف عن معارضتها! ولكنه لم يقل شيْئا، بل اكتفى بأن ابتسم، فصاحت: "أو تبتسم؟.. لقد خطبت لك "**هيم**" وباركتها، ثم إذا بنحلة تطن في رأسك، فتُفسد كل ما أعددت.. ألست آسفا عن ذلك؟".

وأجفل "**ناليناكشا**"، وألقى نظرة على "**كمالا**"، فلاحظ أنها كانت تُنعم النظر نحوه -خلال خمارها- والتقت نظراتهما، فودت "**كمالا**" لو أنها تضاءلت حتى تتلاشى في الفضاء، وأسرعتْ تغض بصرها.. وقال "**ناليناكشا**": "لماذا ظننت يا أماه أن ابنك أهل لتلك المتعلمة؟.. ثم إن الناس لا تنساق للحب بالعصا!".. وهنا رفعت "**كمالا**" بصرها، وإذا بـ"**ناليناكشا**" يُلقي إليها بنظرة أخرى مليئة بالحبور، فشعرت بأن الفرار من الغرفة خير مسلك تسلكه. بينما قالت "**كشمنكاري**" لابنها "اجر إلى غرفتكَ، ولا تتكلم، فإنك تغضبني!".

*****

- عندما خَلَتْ "**كمالا**" إلى نفسها. أكملت تنسيق زهور "**همناليني**" في عقود، ثم جدلت العقود في إكليل كبير وضعته على السلة، ثم رشته بالماء، وحملته بعد ذلك فوضعته في غرفة مكتب "**ناليناكشا**". واغرورقت عيناها حين ذكرت أن الإكليل الكبير صُنع من زهور الوداع التي قدمتها "**همناليني**"!".. وما إن عادت "**كمالا**" إلى غرفتها، حتى استغرقت في نوْبة طويلة من التأمل. وراحت تسائل نفسها: "ما الذي كانت تحمله نظرات "**ناليناكشا**" إليها؟.. وما رأيه فيها؟.. لقد خُيِّل إليها أن عينيه تغوصان إلى أعمق أفكارها الخفية. لقد كانت من قبل في راحة، حين كانت تتفادى الوجود حيثما وجد هو. أما الآن، فقد أصبحتْ تجد نفسها في مواقف حرجة متزايدة.. وكأنما كان هذا الحرج عقابا لتَسَتّرِها على حقيقة شخصيتها!

وقالت لنفسها: "لابد أن "**ناليناكشا**" يسائل نفسه: "من أين أتت أمي بهذه الفتاة "**هاريداسي**"؟!.. إنني لم أر أقل منها حياء!".. أواه! إنني لا أحتمل أن يداخله هذا الرأي لحظة واحدة!".. وعندما أوتْ إلى فراشها في تلك الليلة، كانت قد عقدتْ العزم على أن تنتهز أول فرصة في غدها، فتكشف سرّها، وتتحمل العواقب أيا كانت!

ونهضت "**كمالا**" مبكرة في الصباح، فاغتسلت في "**الجانجز**"، وأحضرت ملء جرّة صغيرة من مياهه لتغسل بها غرفة مكتب "**ناليناكشا**"، قبل أن تقوم بأي عمل آخر من أعمال البيت! هكذا كانت قد اعتادت. ولكنها في ذلك الصباح، فوجئت بـ"**ناليناكشا**" يشغل الغرفة مبكرا، على غير عادته. وأسفتْ "**كمالا**" لعدم استطاعتها أداء مهمتها، فتحولت في خطى بطيئة. ثم مرقتْ في ذهنها فكرة كوميض البرق، فوقفت مُسمّرة في مكانها!

وفي بطء، ارتدّتْ عائدة إلى الحجرة، ووقفت مرة أخرى لدى بابها، إذ لم تقوَ على أن تمضي خطوة أخرى! ولم تدر ما الذي غشيها، وإنما خالت أن الدنيا بأسرها تسبح أمامها في ضباب.. ولم تعد تشعر بالزمن في انصرامه!

وانتبهتْ فجأة إلى أن "ناليناكشا" قد نهض عن مقعده، وأنه كان يقف أمامها.. وقفزت "كمالا"، ثم جثت على ركبتيها، حنت رأسها حتى مسّت قدميه.. وتهدّل شعرها الناعم، المبتل -الذي لم تكن قد عقصته بعد الاغتسال- حتى غطى قدميه. ومالبثت أن نهضت ثانية، فوقفت أمامه جامدة، وكأنها تمثال، وقد نسيت أن قناعها سقط عن وجهها، ولم تفطن إلى أن "ناليناكشا" أخذ يتفرس بإمعان في ملامحها. بل إنها لم تعد تعي شيئا من العالم الخارجي. وفجأة، مرق في فكرها قبس من الإلهام، فقالتْ دون أن يتهدج صوتها: "أنا "كمالا"!".

على أنها لم تكد تنطق بالكلمتين، حتى بدّد صوتها النوبة السحرية التي كانت قد أنستها الدنيا، فسرعان ما ذابت عزيمتها. وأخذت كل جارحة في جسدها ترتجف. وسقطَ رأسها على صدرها، ولم تستطع أن تحير حراكا، رغم أن الفرار كان خير مسلك ينقذها من الحرج!.. كانت قد حشدت كل قواها وعزيمتها في تلكما الكلمتيْن: "أنا "كمالا".. فلما نطقتْ بهما، تسربتْ معهما القوة والعزيمة!.. وأحسّت بخزي وحياء بالغين.. لم يبق لها ما تواري به خجلها عن "ناليناكشا"!

أما هو، فقد رفع يديها في بطء إلى شفتيه وتمتم: "لقد عرفتُ ذلك!.. أنت "كمالا".. زوجتي!.. تعالي معي!".. وأخذها إلى الحجرة، فأحاط عنقها بأكليل الزهور الذي جدلته بيديها، وقال: "تعالي نسجد للإله!". وكان شعاع الشمس يسقط على صفحة من رخام ناصعة البياض في أرض الحجرة، فسجد الزوجان، وأسلما جبهتيهما إلى تلك الصفحة الرخامية.. والشمس تتدفق على رأسيهما!

وحين نهضا، عادت "كمالا" تركع عند قدميْ "ناليناكشا" في توقير عميق. فلمّا استوت قائمة على قدميها، كان خجلها قد كف عن تعذيبها. ولم يكن فرحها منفعلا، مهتاجا. وإنما غمرت كيانَها كله راحةٌ وادعة، وسكينة كضوء الصباح. وملأ كل ركن من نفسها شعورٌ بالتقوى الخالصة، وخُيّل إليها أن الخليقة بأسرها تحترق بخورا لمعبودها!.. وانبثق جدول فياض من الدمع، من عينيها، فأخذت القطراتُ تتساقط دون رادع.. تلك كانت دموع الفرح تبدّد غيوم الأسى التي خيمتْ على حياتها من قبل!

ولم ينبس "ناليناكشا" ببنت شفة، وإنما رفع الشّعر الندي عن جبينها بحركة سريعة، ثم غادر الغرفة. ولم تكن "كمالا" قد استنفذت كل مافي قلبها من عبادة، فتاقت إلى شيء تسكب عليه ولاءها.. ومن ثمّ سَرَت إلى مخدع "ناليناكشا"، فغمرت نعليه القديمين بزهور من الإكليل! الذي طوق زوجُها عنقَها به، ثم ألصقت جبينها بهما في ورع وتبجيل!

وعادت إلى أعمالها المنزلية، وكان كل عمل منها لونا من العبادة تؤديه لإله معبود.. كان كلٌّ منها صلاة ترفعها إلى السماء على أجنحة الفرح!.. وهتفت بها "كشمنكاري": "ماذا تفعلين يا عزيزتي؟.. إن الذي يراك تغسلين، وتكنسين، وتنظفين، يخال أنك تحاولين أن تجددي الدار كلها في يوم واحد!".. ومالبثتْ "كمالا" أن فرغتْ من أعمالها المنزلية،

فاحتبست نفسها في غرفتها.

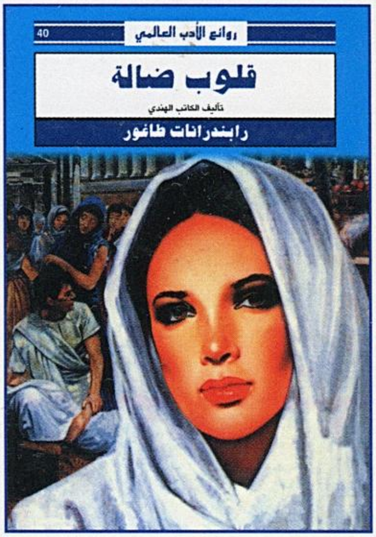
وألفاها "**ناليناكشا**" هناك حين أقبل حاملاً ملْء سلّة من البنفسج ذي الأريج العطر.. وقال: "ضعي هذه في الماء يا "**كمالا**" لتحتفظ بنضرتها.. فإذا حلّ المساء، فلنتقدم بها إلى أمي ونطلب منها أن تباركنا!".. قالت "**كمالا**" وهي تغض بصرها: "ولكنك لم تسمع القصة كلها بعد!".. فاجاب "**ناليناكشا**": "لا حاجة بك إلى أن تذكري شيئا، فإنني أعلم كل شيء!".

وأرخت "كمالا" قناعها على وجهها قائلة: "ولكن الأم...". ولم تتم حديثها، إذ مدّ "نالبناكشا" يده، فأزاح النقاب، وهو يقول: "لقد غفرتْ أمي في حياتها الطويلة كثيرا من الذنوب. وليس من شك في أنها ستغفر لك ما لم يكن من الذنوب في شيء على الإطلاق!".

*****

تمت

روائع الأدب العالمي
M 12



ولد "رابندرانات طاغور" في (كلكتا) في ٦ أيار (مايو) سنة ١٨٦١ .. وبعد أن درس في إحدى المدارس الخاصة بـ"الهند"، رحل إلى "إنجلترا" وهو في السابعة عشرة من عمره ليدرس القانون. ولكنه لم يستسغ هذا اللون من الدراسة، فعاد إلى بلاده، وتوفر على الكتابة في مجلات (البنغال) وصحفها، وما لبث اهتمامه أن اتجه إلى أحوال بلاده ومواطنيه، فراح يسعى لرفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية في "الهند"، وأنشأ في سنة ١٩٠١ مدرسة فذة في نوعها ورسالتها، تنكب فيها برامج التربية المألوفة، ليعنى بالنواحي الروحية والإنسانية والقومية.

وتوفر على الإنتاج الأدبي في تلك المرحلة، ففاز في سنة ١٩١٣ بجائزة "نوبل" للآداب. وقام بعد ذلك بعدة رحلات في أوربا، كما زار "اليابان" و"الولايات المتحدة". وقد وضع "طاغور" مؤلفاته - من أشعار وتمثيليات وروايات - بوحي من جمال الكون، وإدراك وجود الله، وحب الأطفال، والبساطة. وتبدو هذه المعاني في أجلى صورها في كل ما كتب.

وعندما بلغ الثامنة والخمسين - وهي سن تفتر فيها همم الكثيرين - وجد في مجال الفنون ناحية جديدة لنشاطه، فشغف بالرسم والتلوين، وأقبل على ممارستها.

وفي ٧ آب (أغسطس) سنة ١٩٤١ مات "طاغور" عن ثمانين عاماً.

إذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسفة والمفكرين من الفقراء والمستضعفين، إلاّ أنّ "الهند" شهدت مناسبتين، حاد فيهما القدر عن هذه العادة : وكانت أولى المناسبتين، يوم اختار القدر "بوذا" من قصر أحد الأمراء المالكين في "الهند"، ليكون مبشراً بالحكمة والفلسفة.. ثم كانت المرة الثانية، حين اختار "رابندرانات طاغور" حفيد الأمير "دواركاناث طاغور" ليكون من رسل الأدب والحكمة..

ISBN 9953-38-005-8
9789953380056

علي مولا